
رَسائل أنقرة
المُقَدسَة
قدرية حسين

رسائل أنقرة المقدسة

رسائل أنقرة المقدسة

تأليف
قدرية حسين

ترجمة
أحمد رفعت



رسائل أنقرة المقدسة

قدرية حسين

Lettres d’Angora la sainte

Kadria Hussein

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٠٥٥
تدمك: ٧ ٠٨١ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

كلمات عربية للترجمة والنشر

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

الغلاف: تصميم هاني ماهر.

المحتويات

الغازي مصطفى كمال باشا



الغازي مصطفى كمال باشا بطل سقاريا.



الغازي مصطفى كمال باشا بين أركان حربه.



الغازي مصطفى كمال باشا قادمًا من تفتيش الجيش.



الغازي مصطفى كمال باشا مرتديًا الثياب التي أرسلها إليه السيد أحمد السنوسي ملك الكرد.

إلى أرواح الشهداء

في ذمة الله تلك الأنفس الأبية التي استشهدت في معترك الشرف تحت نقع المجد والفخار دفاعًا عن الحرية والاستقلال.

وفي جنة الخلد تلاقي جزاءها الأوفى من نعيم أبدي وذلك أجر الشهداء الأبرار في سبيل الله والوطن.

ورضوان الله وأبرك تحياته على الأرواح الطاهرة الذكية التي أودت بها أيدي الهمجية الحديثة، والتعصب الذميم، والاستعمار الأثيم.

على أن تلك الأنفس والأرواح الكريمة — التي طاحت في المعمعان أو انتزعتها من أجسادها براثن العدوان — لم تذهب إلى ربها راضية مرضيًّا عنها إلا لتلتمس منه إمداد إخوتها المجاهدين، الذائدين عن الوطن والدين، بتأييده ونصره الذي وعد به عباده المتقين الصابرين.

وكأنما أرادت القدرة الإلهية من الأزل أن تنبت من دماء الضحايا غراس الحرية والاستقلال فأنبتت تربة الأناضول الخصبة في الحال شعبًا جديدًا هز راية المجد والظفر بيمينه في وجوه أعدائه العديدين المتكالبين عليه.

فسقيًا لتلك البطحاء التي أخرجت من جوفها قومًا لا يعرفون خور العزيمة ولا يتطرق اليأس إلى قلوبهم.

إن أرضًا لها هذه الميزة لجدير بأبنائها البررة الشجعان أن يفدوا استقلالها بالنفس والنفيس.

أولئك قوم بلوا حلو الحياة ومرها فلم تغرهم الظواهر، ولم تستهو ألبابهم الكلم السواحر. بل أدركوا أن الحرية والاستقلال لا ينالان بكثرة الأقوال؛ فعمدوا إلى الإقدام واعتمدوا على الحسام.

فإلى أرواح أولئك الشهداء الأتقياء أقدم هذه الأوراق تخليدًا لذكراهم العبقة المجيدة أنشودة الحرية والاستقلال التي يجب أن تترنم بها ألسنة المشارقة أجمعين.

أسباب تعريبي هذه الرسائل

رأيت أبناء وطني تواقين إلى الاستقلال متعطشين إلى الحرية، ولكنهم لا يجدون السبيل الذي يطرقونه ليصلوا إلى هاتين الأمنيتين الغاليتين.

وبصرت بالمفكرين منا فإذا بهم يضربون في بيداء الوهم جادين في طلاب الخيال.

وأنعمت النظر فإذا بهؤلاء المفكرين منا إما طلاب شهرة وإما متصيدو مصلحة، إلا من عصم الله فقال قولا سديدًا، ثم التزم صمتًا حميدًا.

وجاءت على ألسنة ثلة منا حكمة لم يوفقهم الله إلى العمل بها. قالوا: اقرأوا التاريخ! وإنه لقول حق! ولكن من ذا الذي يستعرض التاريخ على الأبصار لتستمد منه البصائر غذاءها الصالح؟ وهل قرأوا هم أنفسهم التاريخ؟ فإذا كانوا قد قرأوه فلماذا لم يسترشدوا بهداه.

فلأجل هذه الأسباب اتجه فكري إلى تعريب هذه الرسائل التي تظهر للعيان بأجلى بيان مقدار ما تحدثه قوة الإرادة من الأثر الواضح في حياة الشعوب.

ذلك أن الشعب الأناضولي الذي غُلب على أمره في المبتدأ من طريق الخداع والتغرير، وأصيب بضروب الاضطهاد والعنف وتألبت عليه عناصر التمزيق والتشتيت، وفي مقدمتها قوى الاستعمار الغربي، لم يلبث بعد أن صحت عزيمته على توحيد كلمته، وعلى التشبث بأذيال الحياة، وعلى الاستماتة في الدفاع عن حريته واستقلال بلاده أن تكونت منه دولة عظيمة الشأن ذات مجلس كبير يدير شئونها له أنظمة بديعة محكمة تجعل الشعب بأسره مشتركًا في إدارة هذه الشئون.

لقد أراد المستعمرون أن يقسموا هذا الشعب على نفسه وأن يحاربوا بعضه ببعض، واعتبروا الناهضين في الأناضول قطاع طرق وخوارج إلى غير ذلك، فلم يفت في عضد الأناضوليين كل ما حاوله المستعمرون ضدهم، وصحت عزيمتهم على انتزاع حريتهم

واستقلال بلادهم من أيدي الغاصبين، فتم لهم الشطر الأكبر مما أرادوا، وسيظفرون بما بقي على الرغم من المؤتمرات المتوالية، ومن إغراء تلك الدويلة المعتدية وإمدادها بالأموال والقواد والضباط والأسلحة والذخائر والأزواد.

وزادني رغبة في تعريب هذه الرسائل ما لقيته «الوطنية العثمانية» من الإقبال العظيم الذي دل على مقدار ارتباط قلوب المصريين بإخوانهم العثمانيين، ولا غرابة في هذا الارتباط فإنما المؤمنون إخوة.

وإذا كانت «الوطنية العثمانية» قد لاقت من حفاوة المصريين بها ما كان منتظرًا لها فإن «رسائل أنقرة المقدسة» ستصادف من العناية والإكرام أعظم من تلك بكثير، لأن شعور مدام بيرت جورج جوليس نحو العثمانيين لا يمكن أن يبلغ معشار ما تنطوي عليه جوانح الأميرة النبيلة قدرية حسين ناشرة هذه الرسائل من العطف والحنان والولاء لإخوتها المحروبين أبطال الأناضول.

وثمت سببان وجيهان آخران حملاني على تعريب هذه الرسائل:

أولهما: الرغبة في إحكام صلات الإخاء بين المصريين والعثمانيين لفائدة الشعبين الكريمين، تلك الصلات التي يحاول المأجورون وذوو الأغراض السيئة أن يبتروها ليشتد الجفاء بين الشعبين فلا يتساندان ولا يتضامنان، وبهذه الطريقة يتيسر التحكم في كل منها على انفراد بل في كل شعب شرقي إلى الأبد.

والسبب الآخر: الرغبة في حث أبناء وطني الكرام على التوسع في الاكتتاب لمساعدة إخوانهم البائسين الذين أناخت بهم كل المصائب والأهوال. والشعب المصري الكريم العطوف الذي أبدى أريحيته في حروب اليونان وطرابلس الغرب والبلقان لا تقعده أقوال المثبطين عن مساعدة الشعب العثماني المحروب، مساعدة نافعة يؤجر عليها من الله، وتكون له بها يد غراء لدى العثمانيين قد تصير داعية التذكير في يوم قريب.

الأميرة قدرية حسين

بقلم بدر الدين

شد ما يسر المرء أن يرى فتاة من بنات وطنه آخذة بنصيب وافر من الأدب، يخفق بين جوانحها قلب تجري فيه دماء الشرف والكرم والشهامة والرحمة والإحسان.

وما أبلغ اليراع الذي يتناوله بنان رطب يفيض عليه رقة عواطفه ليستودعها بطون الصحف آيات بينات ناطقة بالإباء والإخلاص!

لقد تلوت ما نشر من قبل لهذه الأميرة الناشئة وأخذت أتوسم لها مستقبلًا باهرًا في حلبة الأدب يرفع من قدر السيدة الشرقية.

وما كنت أحسبني سأذيع أريج أدبها الغض في لغتنا الشريفة يومًا ما. وها أنا ذا اليوم أعطر قلمي بنفثاتها الذكية. ولا أزال أتمنى لها من الرقي الفكري فوق ما وصلت إليه حتى الآن.

وليس من المستغرب على هذه الأميرة الناشئة في حجر العلياء أن ترفع لواء الأدب في مصر، بل في الشرق ساميًا خفاقًا، وأن تتجمل بأشرف وجدان وأرق عواطف تنطوي عليها جوانح إنسان.

وليس من البدع أن تشدو بمدح الغزاة الأكرمين المدافعين عن الوطن والدين، وأن يفيض على شباة يراعها شعورها الحي، القوي، المتوقد غيرة وحمية وشماسًا، فقديمًا اشتملت نساء العرب بالدروع بدل الشفوف، واستعضن عن المغازل والمناسج بالسيوف، ولا تزال نسوة الأتراك حتى الساعة يندمجن في الصفوف ويكافحن الأعداء غير عابئات بالحتوف.

فالآن أفسح ليراعها الرشيق مجال القول لينقل إلى هذه الصفحات خميلة بديعة مجللة بالأزاهر الجميلة من روض أدبها النضير.

أيها الحسام! إنك الكفيل بحراسة الحياة ومع ذلك فأنت مثلها مراوغ عديم الوفاء، فأنت الخصم الألد لوجود الإنسان في حين أنك المحتفظ بكيانه.

وإنك لتتراءى في معمعان القتال كالغمام والصاعقة، وهذا هو السبب في أنك حينما ترسل عبراتك تشبه السحاب، وعندما تضحك أيها الصمصامة الذكر فإنما تحاكي البرق الخاطف.

كلمات موضحة

بقلم قدرية حسين

كارتينا في يوليو ١٩٢١

في الساعة التي تزداد فيها فظاظة الكفاح في سبيل الدفاع عن استقلال الأناضول وتضغط على العقول بهولها وشدتها مدهشة العالم الغربي بأسره، شرعت أرتب وأدون في هذا الكتيب الرسائل والملاحظات الطفيفة الواصلة من آسيا الصغرى أثناء فصل الربيع الأخير، وطفقت ألتقط من ثناياها بعض معلومات مفصلة أصابت مكانًا من عنايتي واهتمامي.

ويلوح لي أني بإهدائي الجمهور الصور التي لم تنشر حتى الآن لمحرابنا الشرقي المجهول لدى أغلب الناس والمستعصي وصولهم إليه إنما أرفع الستار قليلًا عن الغموض المحدق بتلك المدينة المتنائية الخالدة، وذلك الملاذ المقدس الذي تخفق له قلوب عالم لجب مضطرب طافحة بالضيق المستحكمة خلافاته.

وإذ صارت أنقرة العاصمة الوحيدة الممتازة فقد أصبحت بفضل بطولتها التي لا تعتورها شائبة ما دار حج حديثة الطراز. يؤمها جمهور الأبطال الناسلين من سائر الأمم الإسلامية ليستثيروا نيران حميتهم بالحرارة المنبعثة من هذا المكان المعتد مهبط الرجاء والعزم.

وإذا ما راقني أن أرسم هنا صورة جمالها البديع الآخذ بمجامع الألباب، فإنما أقدم على هذا العمل إرضاء لتلك القلوب التي لا تحصى والتي تأبى في صدورها وتختلج بين جوانحها لأجل تلك العاصمة.

نعم لأجل تلك القلوب التي وإن لم تتمتع بمرآها فقد تغلغلت فيها قوتها الساحرة، وجعلتها مستعدة لتلبية ندائها المحترم المطاع.

وإني لراجية خيرًا من حبها المتلهب على بعد المزار، لأن اتساع نطاق شعورها اليوم سينتج — كما أنا واثقة من ذلك — فجر الغد المشرق، وعلى الرغم من حرج هذه الآونة ومرارة ما نذوقه فيها من العناء، فإننا نترقب هذا الفجر الوضاح بعزيمة صادقة لا تتزعزع أركانها.

الرسالة الأولى

صامسون في ١٩ أبريل سنة ١٩٢١

غادرت المدمرة «أوداس» ميناء برندزي في منتصف الساعة الخامسة بعد ظهر اليوم العاشر من أبريل مقلة على ظهرها الوفد العثماني.

وكان النهار ضاحيًا هادئًا، فانطلقت في وسيع البحر وهي زاهية بلونها الأبيض الناصع كأنها طير كبير يحلق في فسيح الجو، آخذة في الابتعاد منتحية وجهة تلك البقاع ضحية التعصب والاضطهاد، حاملة بين حافتيها، المشبهتين جناحي طائر بحري، قلوب مكافحين من خيرة الأبطال، خافقة لأجل الاتحاد ومستعدة لأعظم تضحية في سبيل هذا المقصد الأسمى.

وهؤلاء الرجال الكرام المصطفون على الجسر الصغير الضيق الممتد فوق ظهر المدمرة أخذوا يحيون في هذه الآونة النفر القليل من الأصدقاء القادمين إلى ذلك المكان ليصافحوهم مرة أخرى قبيل إبحارهم.

وكان هؤلاء المشيعون متأثرين أمام منظر الباخرة المقلعة إلى مسافة غير معلومة المدى، إلا أنهم تمالكوا أنفسهم وأخذت شفاههم تفتر عن ابتسامات متوالية وأيديهم تخفق بالمناديل.

لقد كان الموقف جليلًا وكل من كان حاضرًا هذا المقام استولت عليه مسحة من السكون السري العميق.

إلى أين يذهب هؤلاء الرسل الجريئون المغاوير الذين يرتحلون وهم على مثل هذه الثقة العظيمة بالمستقبل؟ أفيجدون النجاح أمامهم في منتهى طريقهم؟ إنها لمسألة عصيبة الحل

شغلت أفكار الأصدقاء الأوفياء الذين ظلوا وقوفًا على رصيف الميناء، وأعينهم شاخصة برعاية وحنان إلى الباخرة الحربية البيضاء أثناء خروجها بهدوء وسلام من المرفأ.

وطفقت الباخرة أوداس تشق العباب بسرعة مقتحمة الأمواج الزرقاء التي لم تلبث أن خفضت من إرغائها وأزبادها، وكافحت هذه الباخرة الباسلة بمهارة العناصر الهائجة في متسع الدأماء (البحر) لأنها على ما يظهر كانت على ثقة تامة بمقدار التبعة الملقاة على كاهلها. أوليست تقل فوق ظهرها فوجًا من النفوس الجريئة الذاهبة لتبشر كلمة العزم والإقدام بين أولئك الأبطال، الذين لا يغالبون، والمستمرين على خوض غمار الوغى بغير هوادة وهدوء؟

واستمر هذا الطائر البحري الفائز بهذه الخطوة على انتهاب اليم بسرعة لا تواني فيها …

وها هي ذي الآن تقتحم مدخل الدردنيل مجتازة بمجموعة البواخر ذوات الجدود العواثر التي غرقت على مقربة من الشاطئ الرقيق الذي دارت فوقه وحوله أفظع المعارك البشرية وأعظمها … وإن قلب الإنسان ليتقبض لدى الإصغاء إلى تفاصيل هذه الملاحم الهائلة التي عفى عليها تعاقب الأيام، وتراءت الباخرة كأنها وقفت إزاء الجمهور العديد الذي لا يحصى من أولئك الإخوان الشجعان الذين اختفوا في أعماق اللجج الممتدة على هذا الشاطئ الخالد ذكره أبد الدهر.

وإن استحضار تلك الذكرى الغابرة في الذهن لتمثل مناظر الآلام التي عاناها أولئك الشجعان، لتُبرز في صورة واضحة — تبدو عليها مخايل الفتوة والعزم — ذلك الرجل الذي عرف بمنتهى المهارة في مثل تلك الساعة العصيبة أن يتحكم في الموقف الهائل بتراميه في ذلك الجحيم المستعر مع عصبته المقدسة.

وإن سيرة الفتى الظافر الأغر المقرونة بالحماسة والحمية لأشهر من أن يدعو الأمر إلى إعادة سردها في هذا المقام: فمصطفى كمال أصبح الآن من رجال التاريخ وعمله المجيد صحيفة غراء من أبدع صحف الشهامة الوطنية وأمجدها.

وما وصلت الباخرة أوداس إلى مياه الأستانة حتى استقبل سكانها رجال الوفد استقبالًا حافلًا جليلًا لا ينمحي ذكره من البال فازدانت العاصمة بكل صنوف الزينة، وعلى الرغم من وجود أساطيل الدول المتفقة فإن الأهالي لم يستطيعوا أن يتمالكوا أنفسهم من إظهار شعورهم القوي وإعلان ابتهاجهم بهؤلاء القادمين الكرام بكل الوسائل التي تهيأت لهم.

وقد حيا الجمهور المتحمس لدرجة الجنون أعظم تحية رئيس الوفد بكر سامي بك، ذلك الرجل ذا الإقدام والعقل العجيبين الذي قدرت أوربا كفاءته حق قدرها في مؤتمر لوندره.

ومن المستغرب أن ندون هنا أن هذا الرجل المحكوم عليه بالإعدام حضر وأبصر بمقلتيه منظرًا من أشد المناظر المؤثرة في النفوس، ومن أعظمها مجدًا وانتصارًا لحياته، في نفس البلد الذي نطق فيه بحكم الإعدام عليه!

إن الحياة البشرية حافلة بالمدهشات المضحكات.

وبعد قضاء ليلة زاهرة متجملة بكل ضروب الحفاوة والترحاب واصلت الباخرة أوداس بركبها الجليل سيرها في منتصف الساعة الخامسة، بعد ظهر اليوم الثاني، محفوفة بعدد جم من الزوارق الصغيرة والزوارق البخارية التي أخذت تزدحم حولها وتقتاف آثارها، ناسلة إليها من جوانب البسفور ذي المناظر الشائقة الساحرة. وكان شعور الأهالي بالغًا منتهى ما يمكن أن يتصوره العقل من التأثر سواء المنتشرين منهم على الشاطئ الآسيوي أم على الشاطئ الأوربي. وأخذوا يبتهلون ويصيحون هاتفين وأصواتهم تتعالى في الجو حتى تبلغ مسابح الأفلاك، بينما تتهادى المناديل بين الأنامل وتتجاوب أصداء التصفيق في كل مكان.

ولكن هذا الاحتفال الفخم الباهر لم يلبث أن انتهى، وبتخييم المساء خفت وطأة الحماسة وانفعال النفوس ثم تلاشت مظاهرها تمامًا.

وما ذلك إلا لأن المنظر كان قد تغير منذ انسياب الباخرة من البسفور إلى البحر الأسود، فتحولت الحالة من ابتهاج واغتباط إلى حزن وارتياع على إثر ظهور مشاهد التخريب التي أخذت تبدو معالمها.

فالأروام شرعوا يحرقون عددًا عظيمًا من القرى فإذا الشاطئ كله سعيرًا متأججًا. وانبعثت أعمدة ضخمة من الضرام مرتفعة نحو السماء، وتحت جلباب الدخان الكثيف المنتشر على امتداد الساحل أخذت تتداعى أركان المنازل الصغيرة، التي كان يقطنها أولئك الذين لم ينكفوا عن الجهاد الموصول منذ عشر سنوات مستصحبة معها في تهاويها المفزع آخر آمالهم الوهمية في العدل الإنساني. وإنه لمنظر رهيب لا يزول أثره من البال ظل ماثلًا إزاء الإبصار سواد الليل بأثره.

وقد استحال النزول إلى الشاطئ في مرفأ اينبولي الصغير البديع لأن الجليد غطى الثرى ببساط سميك، وأصبحت وسائل السير في البر عسيرة، فلم يك للباخرة أوداس بد من الرسو في ثغر أبعد من هذا وهو صامسون.

وهنالك أيضًا أقبل آلاف من الناس زرافات مختلطة من سائر الطبقات ينتظرون مقدم الوفد ليحيوه ويبجلوه.

إلا أن جمهور المستقبلين في آسيا الصغرى ظهروا في مظهر أشد تأثرًا وأكثر روية وتماسكًا وأعظم تقوى وخشوعًا، فهم إنما احتشدوا في ذلك المكان ليتعرفوا الحكم الذي أصدرته أوربا! فاقتربوا من رجال الوفد وكلمات التوحيد تتردد بين شفاههم وعلى عذبات ألسنتهم … وما كادوا يزحفون كأمواج خضم بشري متدافعة من سائر النواحي حتى صار لا يسمع في هذه الأرجاء سوى ترديد الجملة الإسلامية المأثورة وهي: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وهذه التحية الدينية التي ظلت مسترسلة من آلاف الأفواه انتشرت في فسيح الجو كأنها ابتهال حار مرفوع إلى القدير الفعال.

وحالما وطئت أقدام رجال الوفد الثرى نمى إلى علمهم نبأ الانتصارات العثمانية الأخيرة التي حدثت في قطاع عشاق وفي دوملو بونار، وفي الوقت عينه ألموا بأخبار المجازر والجرائم التي اقترفها الجنود اليونانيون أثناء لياذهم بأذيال الفرار على إثر اندحارهم في معركة أين اونو — اسكي شهر.

وعلى إثر اجتراح هذه الفظائع وجه مصطفي كمال باشا بدعوة يمازجها الأسى والقنوط إلى سائر الدول الأوربية، لافتًا أنظارهن إلى هذه الفظائع التي أخذت تتوالى بغير انقطاع. وهذه الدعوة تستجيش النفوس وتستفز القلوب، وهذا نموذج منها: «إن جنودنا الذين أسروا في ساحة الوغى أعدموا بعد اقتلعت أعينهم بظبى الخناجر، وقد ذُبح الأهالي المسلمون المسالمون العزل من السلاح بدون مراعاة بين الرجال والنساء، ولا تمييز بين الأعمار، وكل منقولاتهم وأنعامهم نهبها الأروام وأخذوها معهم أثناء انهزامهم، والنساء والعذارى المسلمات أسيء إلى طهرهن، وأحرقوا ودمروا عددًا عظيمًا جدًّا من المدن والقرى والضياع، وعلى الأخص من المساجد التي أصبحت ركامًا، وفيما بينها الضريح البالغ منتهى الاحترام الذي يتوسد في جوفه شلو الغازي ارطغرول أب مؤسس الأسرة السلطانية العثمانية، فقد نسف في سويود بالديناميت؛ فهذه هي الكبائر التي ارتكبها الأغارقة على عجل بمنتهى الخشونة، غير عابئين بما تستدعيه الإنسانية من الرحمة ولا حاسبين لقوانين الحرب أقل حساب، وهلم جرا.»

بيد أن أوربا لبثت أمينة على صممها المعتاد عندما يكون صوت الشكوى المرتفع إليها في صدد تمزيق شعب مسلم! وما هذه إلا طريقة الاستئصال المنظمة التي تندفع في مجراها منذ بضعة قرون.

وبينما عساكر الأروام تحتم على أنفسها حمل المدنية إلى حظيرة أولئك العثمانيين الهمجيين، إذا بسائر أمم الإسلام تمد أيديها من فوق النار والدم لتحكم وصل تلك الرابطة المقدسة. وذلك أن أغرب المصادفات جعلت من «مغارة قطاع الطرق» أعظم ملجأ للإسلام الآن!

وهذا السبب بفرده هو الذي حمل رسول الأفغان الموفد فوق العادة على أن يصرح في الأناضول منذ عدة أيام لأحد محرري جريدة «المستقبل» بما يأتي:

> «إن كافة الأفغانيين يعتبرون هذه الحركات الوطنية ذات صبغة تضمن سلامة العالم الإسلامي وخلاصه من نير الاستعباد الأجنبي، وإن الأفغان تعتبر الأمة العثمانية الزعيمة المؤتمة المستعدة في كل آونة لتضحية نفسها في سبيل الذود عن كيان الإسلام وإعلاء كلمته، وإن من الواجب على جميع الشعوب الإسلامية أن تعمل متحدة حول حكومة أنقرة ...» إلى غير ذلك مما جاء في تصريحه.

ولكننا الآن أمام اليقظة التي شرعت تباشيرها تتمثل للإبصار؛ اليقظة إزاء الحقيقة المؤلمة لحالة أمة مترامية بأجمعها في غمرة الكفاح للمحافظة على استقلالها، لأن المرء ببلوغه صامسون يغشى عالمًا جديدًا، عالمًا يعاني مضض الألم ويواصل الصراع بغير انقطاع، إلا أنه مع ذلك لا يزال شديد العزم عظيم الأمل.

الرسالة الثانية

فندق الأناضول في تشيروم يوم ٢٠ أبريل

لقد كانت الكتابة عسيرة ونحن مقيمون بفندق «منتيكا بالاس» في صامسون، وذلك لما تتابع بعد الوصول إلى هذه المدينة البديعة الرافلة في بحابح الرغد والهناء من المقابلات الرسمية والزيارات التي يقتضيها الواجب، وقضاء المهام المتنوعة المتعددة، وهذه كلها أمور تحول دون التفرغ لأية مكاتبة. وتكاد تكون هذه الأمور هي الشواغل للمرء في المدن التي يكون فارقها منذ خمسة عشر يومًا تقريبًا، إلا أن هذه المدينة الكبيرة، المعدودة وسطًا حافلًا على الدوام بعدد عظيم من تجار آسيا الصغرى، كانت لها ميزة تستأثر بها على تلك الخصائص التي تتساوى بها سائر المدن الأخرى، وهذه الميزة هي المنظر العسكري، ولقد يجوز القول بأنها بالنظر لكثرة اختلاف السيارات الحربية إليها تحسب في موقف حربي.

وأحدث استمرار حركة الضباط والجنود العديدين — غدوًّا إليها ورواحًا منها — تطورًا في طبيعة شوارعها الكبرى الهادئة، فعمت في جميع أحيائها حركة عظيمة لم تكن معهودة فيها من قبل، ولم تلازم السكينة سوى المرفأ الشهير الذي لا يزال محتفظًا بالجراح الغائرة التي أحدثتها فيه العمارة البحرية الروسية التي هدمت وجهات سائر البيوت المحدقة به.

على أن صامسون ليست ثغرًا حربيًّا …

وظل بكر سامي بك طول يومه يستقبل الأعيان وكبار الضباط ووجهاء التجار ووفدًا من الأروام العثمانيين المتسلسلين من أرومة عثمانية، وقد أقبل ليعرب عن ولائه وإخلاصه للأمة العثمانية متمنيًا لها الانتصار المبين الحاسم.

وعمد رئيس الوفد إلى استقبال هؤلاء الأروام بضروب الحفاوة والبشاشة المتضمنة مغزى يفقهه أولئك الذين يعرفون ما هي «المسألة الرومية»، أولم تكن تمت بفضل الدسائس الأجنبية «مسألة رومية» بالمثل؟

بلى لقد جاء وقت استولى فيه هؤلاء الأروام على صامسون واندفعوا إلى الأبوق والثورة على بكرة أبيهم.

فعمدت حكومة أنقرة إذ ذاك إلى الحكمة والحزم بإرسالها رجلًا حديدي الإرادة والساعد، بدأ بقمع هياجهم وكبح جماحهم ثم نزع إلى مسالمتهم وتهدئتهم بالحجج الناصعة المرتكزة على حقيقة باهرة، مظهرًا لهم أنهم إنما يثورون على إخوانهم، لأنهم في الواقع منحدرون من نبعة عثمانية بحتة لم تشب عنصرها شائبة أجنبية بتاتًا.

فألزمهم الحجة بهذا الدليل المقنع، وأخذوا يفكرون في صحته، حتى إذا ما اقتنعوا به استسلموا بمحض إرادتهم إلى حكومة أنقرة وصوبوا وجهة نظرها، لأنهم علموا علم اليقين بأنهم من أصل عثماني عريق في وطنيته.

وإذا ما نظر المرء إلى قسمات هؤلاء الأروام المنتمين إلى العنصر العثماني، وإذا ما أصغى إليهم وهم يتحادثون فيما بينهم بنفس اللغة التي يتناجى بها العثمانيون المسلمون أنفسهم عراه الدهش وظل مأخوذًا، إذ لا يرى ثمت ما يفصلهم عن إخوانهم الحقيقيين إلا معتقدهم، فهم يتبعون كنيسة الأستانة الأورثدوكسية إلا أنهم جميعًا يؤدون صلواتهم بلغة تركية بحتة.

وإذا كانوا يماثلون العثمانيين في الشكل ويشاركونهم في اللغة، وهم في الحقيقة طائفة منهم، فقد طلبوا في هذه المرة الانفصال من البطريركية؛ راغبين أن يتخذوا لهم كنيسة حرة مستقلة في آسيا الصغرى.

ويكاد الأروام يكونون الفئة الكبرى التي تقطن ساحل البحر، فبعد التزامهم جانب السكينة والطاعة أسندت الحكومة إليهم بعض المناصب العالية فأظهروا لها الولاء والإخلاص.

وقد أعدت محافظة هذا الثغر وليمة شائقة ألقيت في خلالها خطب حماسية، أجاب عليها رئيس الوفد ذو الهمة التي لا يتطرق إليها أدنى فتور بما جبل عليه من الأنس

والبشاشة، موضحًا بإيجاز المقصد الذي انتحى لأجله وجهة أوروبا والحفاوة المرضية التي لوقي بها في باريس وروما، وأخذ يفيض على مسامع المجتمعين ألفاظًا باعثة على الرجاء، وباثة في نفوسهم القوة والعزم، وموجدة لديهم الاعتقاد بوجوب الحصول على الفوز النهائي بقوة إرادة لا تقهر.

وأثناء الجلوس حول المائدة أخذت الموسيقى العسكرية تعزف أنغاما وطنية، وكأنما هذا أول مظاهر الاستقبال التي يلاقي بها الوطن أبناءه الغائبين عنه بعد أوبتهم إلى صدره الحنون.

وفي الساعة التاسعة من صبيحة اليوم التالي انتظم موكب مهيب مؤلف من اثنين وثلاثين مركبة، يحفه سائر الأعيان والتجار وشطر كبير من الأهالي وبدأ في السير، وهكذا لبث الوفد في طريقه مدة ساعة مصحوبًا بهذا الجمع الحاشد، وبعد هذه المسافة الطويلة وقف الموكب الحافل بطبقات الشعب على اختلافها، وبعد تتابع المواثيق والعهود من الأعيان ومن عامة الشعب وهم متحدون، أقسم الجميع بأوكد الأيمان أن يثابروا على الكفاح إلى النهاية القصوى، مستخدمين كل ما يتهيأ لهم من وسائل المناضلة، وإذ ذاك ودع الجميع بعضهم بعضًا، وافترق الطرفان وهما في أشد ما يكون من التأثر، وتقدم ركب الوفد تاركًا خلفه صامسون سابحة في لجة الزينة مائجة باحتفالها العظيم، وقد ارتفعت في سائر شوارعها لوحات بديعة الرواء خط فيها بأحرف باهرة الخط الجملة الآتية:

> سلام على وفدنا الذي أوضح لأوربا جمعاء الآلام التي نكابدها والمظالم المتساقطة على رءوس أمة لا هم لها إلا أن تعيش مع العالم أجمع في سلم ووفاق.

وعلى إثر ذلك أخذ الركب يطوي الطريق وهو محوط بنطاق من الحرس العسكري.

وكانت الطريق في غاية البهاء بما حف بجانبها من الآكام الزمردية وقد اتشح الربيع بأبدع حلله، وطفقت الأزاهير المتنوعة تستجر إلى نضرتها البصر بتنعم وارتياح.

وعلى حين فجأة انتشر في الجو أريج ذو نفحة خاصة عذبة.

ولم يك ذلك سوى عبق منبعث من حقول مكسوة بحذافيرها ببنفسج طبيعي لم تعمل في استنباته يد الإنسان.

وحينئذ حدث شيء مؤثر في النفس من رجال الركب. وذلك أن أعضاء الوفد اجتذب أبصارهم مرأى تلك الأزهار البنفسجية الأناضولية الصغيرة، فانحدروا من مركباتهم

ليقطفوا من تلك الأزاهر الزاهية وليستنشقوا مع عبير هذه الزهرة الرمزية رائحة الوطن الذكية المتغلغلة في أعماق قلبها.

وعلى إثر هذا المنظر المنعش السار انثنى رجال الوفد إلى مركباتهم وعاود الركب تسياره.

وتناول الركب أكلة الغذاء في خان قديم العهد، ثم واصل السير محوطًا بفصيلة من أبدع الجنود المشتملة بأجود الملابس والمتطية أفخر الجياد، يقودها ضباط شبان شجعان، وهم جميعًا يسيرون حول مركبات الوفد بسكوت حافظين الطريق التي لا تنسى محاسنها.

ووصل الركب قبيل المساء إلى تشاكالي، وهي قرية ظريفة محوطة بغدران وسهول مزروعة. ويقيم بها في هذه الآونة معسكر هذه الناحية الحربي.

وتناول المسافرون طعام العشاء في الثكنة بدعوة من قائد هذا الموقع. وكانت الأطعمة شهية ونظام المائدة الذي أعده الجنود مدهشًا.

وبعد النهوض من حول المائدة اجتمع رجال الوفد أمام الثكنة، حيث أخذ اللازيون على توقيع عزف الموسيقى العسكرية يرقصون رقصهم الوطني داخل دائرة مطبقة حولهم من الجنود، وعلى ضوء المشاعل المتماوجة ألسنة لهيبها في مهاب الرياح.

وفي أثناء ذلك برز جندي صغير من وسط الجمع المحتشد وأنشد بغيرة وحمية عدة مقتطفات من القصائد الحماسية الوطنية، وقد وقف على جانبيه جنديان يحملان علمين يخفقان فوق رأسه، بينما ينشد هو تلك الأشعار المتضمنة تاريخ الدولة العثمانية بعبارات متلهبة ملمة بفتوحها، والمهمة التي حملتها على عاتقها، وما قامت به من الدفاع المجيد حتى بلغ عهد الصراع الذي تجاهد به في سبيل الحرية والاستقلال. وكان صوت هذا الجندي الصغير تخالجه عوامل التأثر عندما شرع يصف الآلام التي كابدتها أمته للاحتفاظ مدة سبعة قرون بالعلم النبوي المقدس. وأخيرا اختتم خطابته الوطنية بقوله:

> إننا نريد الاستمرار على الكفاح إلى آخر نسمة من حياتنا أو نحظى بحياة المجد والشرف.

ولم يستطع أحد من الحاضرين أن يتماسك فاغرورقت عيونهم جميعًا بالدموع، وفي الحقيقة أن الموقف كان باعثًا بعظمته التاريخية على التأثر والانجذاب إلى ما يسرد على الأسماع، فاضطر رئيس الوفد إلى الإجابة على خطابة هذا الجندي الناشئ بكلمات قيمة مصبوغة بصبغة الثقة والرجاء.

فنهض على إثر رئيس الوفد روشن أشرف بك، وهو كاتب نابغ لا يزال في ربيع الحياة، ترامت شهرته في أنحاء البلاد العثمانية بما دبجه يراعه القدير من المؤلفات المتعددة التي استساغها بأجمعها الذوق العثماني العام، وقد التحق بالوفد كممثل للصحافة الأناضولية، وألقى الخطابة الآتية موجهًا كلامه فيها إلى الجندي الفتى قائلًا:

> لقد وعيت منذ عهد طويل كل الأشعار المختارة مما جادت به قرائح شعرائنا الوطنيين، وشغفت بها حبًّا لما تضمنته من روح العظمة التي لا مثيل لها، بيد أني لم أر نفسي متأثرة — وأنا منهمك على استظهارها — كما تأثرت من سماع ما طرق أذني منها في هذا المساء، إذ كان من الضروري أن ينشد هذه الأشعار المتضمنة مجدنا وفخارنا مقدام من أبطال الوطن مثلك، لانتفض من شدة التأثر بها حتى تصل هزات الانتفاض إلى أعمق أغوار قلبي. وإني مثلك واضع سلاحي الوحيد تحت تصرف أمتي في سبيل خدمتها: فأما أنت فتحمل الحسام لتذود به عن هذه الأرض المقدسة، وأما أنا فأشرع يراعي لأجل هذا المبتغى الشريف.

وبعد انتهاء هذا الشاب النابغ المحرر بجريدة «يني جون» من خطابته، نهض يونس نادي بك عمدة الصحافة الأناضولية ومنشئ ومحرر صحيفة «حاكميت مليه» البالغة غاية الذيوع والمنتشرة في العالم الإسلامي انتشارًا لا مثيل له، وأفاض على الأسماع أقوالًا جذابة ختمها بهذه الجمل البديعة:

> إن السلاح والصحافة، أي الإقدام والنبوغ لأمتنا الباسلة، النصيب الكافي منهما للفوز بآمالنا الشرعية، والشعب بأسره مستعد لأن يجود بآخر مجهوداته وسائر موارد إثرائه، والله جل وعلا سيتوج بالتحقيق بتاج النصر المبين كل الضحايا القيمة التي بذلت بشهامة عظيمة أثناء هذه السنوات الحافلة بالعظمة التي لا تقهر وبالتضحية التي لا يمكن التعبير عنها.

وحينئذ صاح الجنود الحاضرون كافة: إننا على أتم الاستعداد للموت في سبيل استقلال وطننا المحبوب المقدس.

وبعد قضاء ليلة حافلة بمظاهر التأثر الشديد في تشاكاللي بارحها الركب في ضحوة الغد، بيد أن الركب لم يكد يبدأ بالجد في سيره حتى رؤيت كوكبة من أبرع الفرسان

تترامى مغذة في ركضها نحو الركب، فلما انتهت إليه دعت أعضاء الوفد إلى أن يقصدوا «قواق» ليتناولوا ثمت شاي الساعة العاشرة صباحًا.

وقواق قرية صغيرة ضحوك المرأى ناهضة فوق تامة ذات منظر ضاح بديع.

وكانت شرذمة من أحداث التلاميذ وحديثات التلميذات تحمل الرايات في أكفها منتظرة هنالك تشريف رسل سلم. حتى إذا ما أقبل الوفد حيته هذه الشرذمة بنشيد وطني وخطابة رقيقة الشعور وجهت فيها المقال إلى الرئيس، وقد رجت فيه من بكر سامي بك ألا يداخله اليأس أمام الصعاب التي ربما تنهض قبالة النتيجة المرجوة للكفاح الوطني الظافر.

ومما كان له وقع عظيم في النفوس أن يرى المرء هؤلاء الكائنات الصغيرة تخاطب ذلك الرجل الرسمي العظيم وهي رافعة رءوسها الضئيلة إباء، لترسل أصواتها بطريقة أوضح إلى أذني ذلك الرجل الذي أصبحت قامته المرتفعة مشهورة لدى العالم أجمع.

وجاء في خطابهم: «نحن وإن كنا ضئال الأجساد صغارها في المنظر فإن لنا قلوبًا قوية كبيرة لأننا أبناء الكفاح الأسمى.»

وأرسلت نسوة قواق حلويات خاصة بقريتهم لا تتعداها، وأصحبنها برسلات داعية إلى التشبث بالأمل وبالدعوات الصالحات لأجل التوفيق والنجاح.

وبعد الفراغ من تناول الشاي أمّ الركب «اوتشخانلر» حيث تناول فيها طعام الغذاء، ثم واصل السير حتى بلغ «هوزا» حوالي المساء.

وعلى بعد نصف ساعة من هذه البلدة أقبلت نساء الجهة يهدين تحياتهن إلى أعضاء الوفد. وكن لابسات كلهن شفوفًا مسطرة بخطوط بيضاء وأخرى زرقاء كلون السماء محوكة في هذه الجهة نفسها.

ووقفن صفين على جانبي الطريق التي يسلكها الوفد وهن مرتديات بهذه الأثواب الرسمية لديهن التي مع بساطتها حوت كل ميزات الظرف والرقة، فأوجدن بهذه الطريقة عنصرًا بهجًا من الابتكار الوطني!

وهذه البلدة الفاتنة الصغيرة تعتبر مصيفًا بديعًا من الطبقة الأولى. إذ توجد فيها ينابيع مياه متفجرة مفعولها ناجع جدًّا يقدرها حق قدرها أولئك الذين يعرفون خفايا آسيا الصغرى التي لا تحصى، ومقدار ما فيها من منابع الثروة والرفاه، تلك المنابع التي لا تزال في طي الخفاء حتى الآن. ولهذه المياه من الخصائص ما لمياه افيان وفيجي فهي موصوفة للمصابين بأمراض الكلى.

وستكون هذه البلدة في المستقبل مصيفًا صحيًّا تستشفي بمياهه وجوه النفوس التي أضنكتها متابعة الأعمال من غير أن تجد فيه داعيًا إلى السأم، فتقضي فيه مدة التروض والراحة. وبفضل ما امتازت به هذه البلدة الوديعة الهادئة من السكينة الملطفة والنسيم العليل والجو الرائق الصافي، كل الأناس الذين يشكون من النوبات العصبية سيجدون في هذا المكان بالتأكيد وسائل استعادة قواهم وصحتهم كما كانت عليه في أوائل أدوار الحياة.

وفارق الركب هوزا بعد أن ارتفعت الشمس في الأفق كثيرًا قاصدًا الوصول إلى مرزيفون في ساعة تناول الشاي. فأقبل فرسان أخر من سائر العناصر تعدو جيادهم ضبحًا لملاقاة رجال الوفد، فأصبح الحرس المحدق بجانبي الوفد مجتازًا هذه الطريق البديعة، وهو يزداد فخامة أمام النظر كلما ازداد تقدمًا في سيره.

وكان الاستقبال في هذه القرية الكبيرة من أبهر وأفخر ما يكون، فقد صعدت فصيلة من «الكشافة» رصيف الحرس أمام دار البلدية المشرفة على ميدان فسيح وشرعت الخطب تترى من الجانبين.

وطفق الفتيان والفتيات يترنمون بالأناشيد الوطنية، بل إن تلميذا صغيرًا لفت أنظار الجميع بألفاظ حركت عواطفهم إذ قال: «نحن مواطنو ذلك النابغة الوطني العظيم قره مصطفى باشا الذي قاتل بمنتهى الشجاعة والإقدام في البلاد الأجنبية، والذي قضى نحبه بعيدًا عن أهله وصحبه في سبيل عظمة وطنه ومجده. فنحن نعرف ونقدس التضحية السامية التي تقضي بها الضرورة في ساعات الحرج التي تصاب فيها الشعوب بتطورات التاريخ البشري التي لا يمكن توقيها. إلا أننا لا نقبل الضيم ولا نحني رءوسنا صَغارًا لأننا من فصيلة الظافرين الغر النبلاء.»

ولهذه القرية أن تتيه فخارًا باحتوائها مسجدًا من أعجب المساجد الموجودة في المملكة العثمانية. وقد شيده الخليفة السلطان على النسق العثماني البحت تخليدًا لذكرى انتصارات قائده مصطفى باشا الذي ولادته في مرزيفون.

ولهذا المسجد فناء واسع في وسطه عين متفجرة تستخدم مياهها للوضوء، وتنهض فوقها سقيفة كبيرة مستديرة رسمت في داخلها مناظر أهم المعارك التي حدثت في فينا وفي بودا تحفها أسلحة ذلك العهد، وترفرف الملائكة بأجنحتها فوق هذه المناظر كأنها محافظة على ذكرى تلك الأيام الخالدة ببطولتها العجيبة ومجدها التليد.

وتنهض حول هذه العين ثلاث شجرات ضخام طوال عتاق يرجع عهد غرسها إلى زمن تشييد هذا المسجد، وهي تخبئ في أغصانها الوريقة الظليلة المسترسلة بجلالها في الفضاء سر تلك الطرق المؤدية إلى تلك البهجة وذلك الرواء.

وكان هذا النهار عاصفًا مكفهرًّا، واحتجب وجه السماء بحجب كثيفة من الغمائم الثقال، وغشي الظلام الأفق بدرجة مرعبة. أفكان هذا نذيرًا بما يجنه الغيب وراء ستار المستقبل من الهموم والأرزاء؟! فبعد أن كانت الشمس تفتر عن ابتسامات متألقة جذابة في وسط الربيع المتهلل الوضَّاح أخذت هذه الديم ترسل على مقربة من أنقرة وابلها الهطَّال أو بالأحرى تمطر جميع القلوب صيب التطير والخيال.

وقائمقام مرزيفون رئيس إحدى المدفعيات البرية سابقًا، ترامت شهرته في الآفاق بقوته العضلية من جانب وبخبرته العظيمة في سداد المرمى من جانب آخر، حتى لقد أطلق عليه لقب «صياد الأرانب بالمدفع»، وعلى الرغم من تجهم الأفق وقصف الرياح العواصف فإنه قام برسوم الحفاوة والإكرام في موقعه بدرجة مدهشة.

وكان الإنجليز على إثر الهدنة قد تغلغلوا في جوف الأناضول حتى بلغوا مرزيفون، وبما أن احتلال هذه المدينة لا ينطبق عليه أي شرط من الشروط التي قررها الاتفاق، فقد اضطروا بناء على إنذارات قائد الموقع — الذي كان إذ ذاك ذلك البطل الجسور رأفت باشا — أن يتخلوا عنها.

والخلاصة أنه كان لا بد لنا من مغادرة هذه البلدة التاريخية في بكور الصباح التالي؛ لأننا لا نزال في حاجة إلى قطع مسافة طويلة من الطريق. وبعد أن أغزرنا السير ستين كيلومترًا بلغنا أخيرًا تشيورم حيث حللنا بفندق الأناضول.

وهنا أتيحت تلاوة بلاغ رسمي صدر حديثًا ينبئ بحدوث تحقيق دقيق مع ضابط إغريقي قبض عليه في قرية تلتهمها النيران، فلما سيق إلى الأسر اعترف في خلال التحقيق جهارًا بصدور الأوامر إلى الضباط اليونانيين بصفة خاصة … بذبح ونهب وإحراق كل من يصادفونه أو يلوح لهم في طريقهم توصلًا إلى إفقار الأمة العثمانية وإسقاطها إلى الأبد في هوة الشقاء والبأساء، فتلبث خامدة فاقدة قواها وتهلك تحت إصر الفاقة الميئسة، ولا تقوى على النهوض والظهور مرة أخرى أبد الدهر.

وإنها لطريقة غريبة في تهذيب وتحضير الهمج المتوحشين وإشرابهم روح المدنية الحديثة! وما أعظم تلوث الحرب الصليبية الجديدة بالدماء التي لا تذكر بجانبها ما أريق منها في الحرب الصليبية التي أضرم سعيرها القديس لويس منذ ستة قرون ونصف قرن قبل الآن!

وفيما كانت هذه التأملات المؤلمة تمر على البال إذا بآلات موسيقية من ذوات الأوتار تبعث بنغماتها الشجية على حين فجأة، فتحرك كوامن الأشجان، يوقع عليها موسيقاريون متفننون أنغامًا رخيمة تترنم بالعذوبة المتناهية، والفتور الذي لا يمكن التعبير عن كنهه السائد على هذا الشرق الذي يلبث على الدوام عرضة للاضطهاد المنظم.

إن المكافحات والآلام والغصص والعبرات المنبعثة من هذه الأنغام المتناهية في الشجو كانت تتوافق مع حزن جميع الأهالي الذي لا يوصف ومع الاكتئاب الشديد المخيم على نفوس أعضاء الوفد الذي انتدبته الأمة ليمثلها لدى دول الاتفاق وهي اليوم تحتفل بمآبه.

الرسالة الثالثة

٢٤ أبريل في محطة ياخشي خان

لقد ظلت الطريق التي يسلكها الركب إلى تشيورم بديعة وقابلة لسير المركبات براحة تامة، ولكنها بعد مفارقة هذه الناحية إلى بلوغ سونغورلي التي بلغها الركب في الساعة السادسة مساء بعد عناء شديد، صارت سيئة إلى درجة لا يمكن تصورها. فاقتضى الحال اجتياز أكثر من خمس عشرة مرة مجاري من روافد نهير قبزيل ايرماق للاجتهاد في الوصول إلى سونغورلي في الوقت المقصود.

وإن منظر اثنين وثلاثين مركبة يحدق بها صفان من الحراس وهي تعبر الغدران من مخاضاتها لمن المناظر الفريدة التي تصبو إلى رؤيتها الأبصار.

وبعد مغادرة تشيورم انتشرت إشاعة غريبة بين رجال الوفد، فاتخذت على إثرها وسائل حذر وتدبر للمحافظة على الوفد مما قيل عنه إنه هياج سائد من قبل سكان سونغورلي، الذين بصفتهم جميعًا علويين على التقريب أي شيعيين، فهم على ما يظهر يضمرون مشروعات معادية للحكومة، وقد بلغ من ضعف إيمانهم بحسن نية الحكومة أن تمشت السعايات الأجنبية بينهم وصدقوا بعضها؛ فمن مقتضى الإشاعة المتداولة على الألسنة، والتي تؤكد صحة ما ترويه، أن هؤلاء القوم يحسبون أن كل من لم يكن سنيًّا لا يلبث أن تستأصل شأفته على إثر إبرام الصلح.

وما هذه المكيدة إلا من عبث الطفولة وأوهامها التي تحلق حولها مخيلات الغربيين، الذين بنوا آمالهم على جهل الجمهور الشرقي المتفق عليه في تصديق أمثال هذه الدسائس،

غير حاسبين أقل حساب للعلائق الوثيقة التي تربط سائر المذاهب والفرق الإسلامية بعضها ببعض!

ومصداقًا لتغلب الروابط الدينية على الدسائس الأجنبية أقبل قبل بلوغ ذلك المحط الليلي فوج عظيم من أعيان وسراة سونغورلي وعدد كبير من الضباط، يدعون الوفد إلى تشريف وليمة أعدها لهم عمدة البلدة في ذلك المساء نفسه.

وكان تناول أكلة العشاء في دار البلدية ذا فائدة عظيمة، فان الوجهاء كانوا غضابًا على الأروام، وقد اخذوا يقصون على الأسماع تفاصيل حوادث الاضطهاد والاعتداء التي أحكم العدو تدبيرها.

وقد انتهزوا هذه الفرصة السانحة لتجديد الإعراب أمام بكر سامي بك عن عواطف إخلاصهم الأكيد، وثقتهم التي لا حد لها بالحكومة، التي وقفت نفسها للكفاح بشجاعة متناهية لأجل انقاذ الشرف الوطني. ثم قالوا إنه على الرغم من كثرة الجنود النظاميين الذين ذهبوا من بلدتهم للانضمام إلى الجيش العام الذي يقاتل الآن على الجبهة، قد خف عدد عظيم من الشبان المتطوعين إلى ساحة الوغى لمساعدة إخوانهم على تحرير أرض الوطن المقدسة.

فأظهر رئيس الوفد آيات بلاغته ومنتهى نبوغه، وبفضل ما ألقاه في هذا الاحتفال الباهر من الحقائق الواضحة والآراء الصائبة والحكم الجلية تبددت في هذا المساء سحب الشك، وزال بتاتًا كل سوء تفاهم كان من الجائز أن يظن وجود أثر له في العقول.

وكان قائد هذا الموقع رجلًا عظيم الإيمان حضر معركة غزة الهائلة، ولم يفقد ذرة من رباطة جأشه ولا من ثقته العظيمة بالمستقبل الباهر، وقد حمل بين أسرى العثمانيين إلى مصر، وعلى إثر إيابه من دار الأسر انضم إلى صفوف الجيش العامل من غير أن يعمد إلى الراحة هنيهة من الزمن.

وقبيل الهجوم الرومي الثاني بمدة وجيزة أخذ يوالي الصلوات والدعوات الحارة إلى الله تعالى، فغشيه فجأة إلهام مبشر اطمأنت له نفسه. فشرع على الإثر يجمع سائر المركبات والعربات على اختلاف أنواعها من جميع أطراف هذه الناحية لينفذ خطته التي رسمها في فكره بمحض إرادته، ثم أرسل إلى الجبهة من غير أن يراجع رؤساءه كل الذخائر التي تحت يده حاملًا على عاتقه وحده تبعة هذا العمل الخطير.

وفيما كانت معركة أين أونو — اسكي شهر بالغة أقصى شدتها إذا بذخائر هذا الضابط الغيور قادمة كنجدة أقبلت في إبانها، فكان لها حظ لا يمكن تقديره في رجحان كفة الكرة العثمانية التي طبقت شهرتها التاريخية الآفاق.

وعلى إثر مشروعه المبتكر المكلل بالظفر أرسل إليه الزعيم الأكبر كتابًا يبسط إليه فيه تهنئته وثناءه العظيم.

إن الحوادث هي التي تظهر بمفردها أقدار الرجال، وما قيمة الرجال الحقيقية إلا بأعمالهم. وإن النادرة التي أوردناها الآن لتثبت بأقوى دليل صحة هذه النظرية التي لا مراء فيها.

ولكن كم عدد أولئك الذين يستطيعون في هذه الآونة أن يفخروا بأنهم أدوا ما عليهم من الواجب بطريقة فعالة، وأن يزعموا أنهم تركوا أثناء حياتهم المنعزلة خطًّا واضح الضوء يرسم آثار مرورهم في هذه الأرض المنغصة المحروبة؟

وارتحل الركب من سنغورلي مبكرًا في الصباح التالي، وإذا بالطريق قد عادت إلى ما كانت عليه من البهاء، وأخذت المركبات مدة ست ساعات؛ إما تتبع في سيرها مجرى قزيل ايرماق الفخم، وإما تنتهج السهل المحدق بهذا النهير، ذا الخضرة النادرة الباهرة والمغطى أجمعه بشتى الزراعات.

وبعد قليل وصل الركب إلى قرية قرة بكير. وهنا تجلى منظر يأخذ بمجامع الألباب، فقد أشرفت على الأنظار سلسلة الأكمات الصخرية الممتدة الشهيرة ذات اللون الأحمر اللهبي المطلة على البحيرات الملحية، فكان لها رواء لا تلتقي العين بمثل بهجته في أي مكان آخر.

ولا يكاد البصر يصافح هذا المنظر الفتان المباغت حتى يصبح أخيذه، فلا يقوى على التخلص منه إلا بالعناء الشديد؛ فإن ما احتواه هذا المكان من العظمة المدهشة واللون الذي لا مثيل له يلازم ذاكرة السائح مدة طويلة بعد التنائي عنه.

ثم اجتاز الركب جسرًا كبيرًا وشيك التداعي، وهو اجتياز محفوف بالخطر إذا ما اعتبرت جسامة الركب، وانتهى المسير حوالي المساء عند محط يغلي، وهو وسط تركماني صغير.

وقرية يغلي هذه المحتفظة بكل خصائص ذلك العنصر الحربي الآسيوي، وهو سلالة أولئك الذين أقبلوا من أقصى أغوار «الألطاي»[١] مجردة من كل وسائل المعيشة الرغدة. وما ذلك إلا لأن هؤلاء المكافحين المغاوير ليست لهم حاجة إلى الترفه، فهم إنما يعيشون على حالة الفطرة تقريبًا، ولكن ما أعظم هيامهم بالطبيعة!

[١] سلسلة جبال عظيمة في أواسط آسيا بها مناجم ذهب وفضة مستغلة من قديم الزمان.

وليس سوى النظر إلى مآويهم الضئيلة المحفوفة بهذه الحدائق الغناء ذوات النسائم العليلة والمرائي السارة الجميلة المنظومة على أبدع نسق، وقد أثملت نفحاتها الشذية وظلال أشجارها المثمرة وأراحت أولئك الذين ينشدون ملجأ فيها يقضون فيه سواد الليل، ما يحمل الناظر على الاعتقاد بأن هؤلاء الرّحل الذين لا يعرفون الكلل اختصوا كل ما أوتوا من حب وشغف بقطعة صغيرة من الأرض المزهرة النضيرة.

والنساء في ياغلي التي تكاد تكون شبيبتها برمتها قد ترامت إلى الجبهة، هن اللواتي بتساندهن مع الأحداث بل مع الكهول بالمثل يزرعن الحقول، وقد ثبت أنه على الرغم من اشتداد وطأة الحرب الطاحنة زاد المحصول هذه السنة خمسين في المائة عن المعتاد من محاصيل هذه الجهة في الأعوام الأخرى.

وكان استقبال التركمانيين للوفد ذا صبغة خاصة، فأقبل أكبر رجال القرية سنًّا، وهو موسيقار هذه الجهة قديمًا، حاملًا طبلة وحوله جمهور من القرويين، بينهم عازف بالمزمار؛ فاستدار على شكل نصف دائرة أمام الدار التي استقر بها الرئيس، وعلى إثر ذلك أخذ الموسيقار الكهل يوقع على طبله نقرات موزونة، محنيًا قليلًا رأسه المشتعل شيبًا، بينما يجيب المزمار الخلوي، وهو على بعد قليل عنه، وفاقًا لتوقيعه بنغمة حربية، تختلج في نبراتها كل حماسة ذلك العنصر المقاتل. وإذ ذاك بدأ المجتمعون يرقصون على طريقتهم الخاصة بهم.

وإن هذا لمؤثر في النفوس ومحرك للعواطف من قبل هؤلاء الأشخاص البسطاء الذين عز عليهم أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تشريف الوفد، فلا يقدموا له ما يدل على إخلاصهم إليه واحترامهم إياه، فعمدوا إلى إظهار حفاوتهم لممثلي الأمة على أية حالة كانت بمنتهى ما في وسعهم من أدلة الترحيب والتبجيل بهذا العمل المعرب عن الاحتفاء الطبيعي.

وبعد الرقص المجهد انفض القرويون بأجمعهم، وجاء رب البيت الذي يقطنه بكر سامي بك، وهو رئيس القرية، وجلس إلى جانب ضيفه على أبسط ما يكون في العالم، وأخذ يحادثه في شئون البلاد. وكان ملمًّا بكل المسائل الداخلية، فلذا فقد أخذ يخاطبه جادًّا في القول وبخبرة مدهشة، فوجه إلى الرئيس أسئلة عن سفره إلى أوربا وعن النتيجة التي تيسر الحصول عليها، بمقدرة لا يمكن تصورها.

وكان الرئيس قد اتخذ له مكانًا في أحد ركني الأريكة، فشرع يجيب هذا الريفي الوطني على أسئلته، ويوضح له المشاكل السياسية التي تعترض تسوية الحالة الحاضرة، وهو ملتزم في محادثته جانب الوداعة التي آثرت بها الديموقراطية الإسلامية وحدها للمتبعين سنن النبي بصدق وإخلاص.

وكان رجال الوفد في هذه الأثناء قد استقروا في عدة بيوت، سواء أصابوا قسطًا من الراحة أم لم يصيبوا، إذ لم يكن لهم من هَم سوى الاستكانة في جنح الليل، بل لقد كان نصيب نفر منهم المبيت في العراء تحت سقف القبة الزرقاء!

واضطجع الرئيس على مهاد بسط له فوق الأرض. وهذه حالة المرء في زمن الحرب يظل دائمًا كأنه في ميدان القتال.

وانطلق الركب مبكرًا في الصباح. وكان شيخ القرية هو الشخص الوحيد الذي سار فوق متن جواده محاذيًا مركبة الرئيس بكر سامي بك، مظهرًا في أوضح مظهر ما ينطوي عليه عنصره المجيد من الفتوة والشهامة والوفاء.

وأخذ السير تارة يحاذي قيزل ايرماق، وآونة يتبطن سهلًا عظيمًا مغطى بالمزارع، حتى بلغ الركب ياخشي خان قرب المساء.

وياخشي خان هي أولى محطات السكة الحديد الممتدة إلى أنقرة من هذه الجهة. والمحطة والجسر البديع المصنوع من الحديد الذي يصل ما بين ضفتي النهر هما من عمل ضباط قسم الهندسة العسكري. وقد انتهى مد هذا الخط أثناء نشوب الحرب الأخيرة.

والثكنات هنا كشأنها في جميع البقاع الأناضولية ملأى بالأجناد، ولا يلبث رائيها أن يشعر بمسحة من القوة تتمشى في نفسه ونفحة من الثقة وأمل تنهض حالته الأدبية، ولو كان من أشد الناس ترددًا وإيجاسًا. ويتماوج الجو بخطرات الشجاعة والثبات، حتى ليشعر المرء عند استرواحه هذه الخطرات بمنتهى الثقة ألا سبيل إلى التغلب بقوة السلاح على أمة بأسرها موطنة نفسها على مواصلة الكفاح إلى الفناء.

ولا يستطيع الناظر إلى هؤلاء الجنود الغر المعاد نظمهم والدائبين على الكفاح مدة عشر سنوات، أن يتمالك نفسه من الابتسام لدى تلاوته البلاغات الإغريقية التي تصدرها قيادة الجيش الرومي محتذية فيها حذو قيصر، بإعلانها جهارًا «أن العدو المدحور المهزوم مقتفى أثره». ولكن أين؟

إن آسيا الصغرى واسعة النطاق، ولا يزال مجال العمل خلف حدودها فسيحًا جدًّا في بقية القارة الآسيوية التي يتقلب فيها على جمر القلق عالم هائل لا ينتظر سوى إشارة واحدة ليشرع في التماوج والاضطراب …

ولماذا لا تريد أوربا أن تقتنع بوجود قوة خفية عجيبة أشد مفعولًا من قوتها المادية؟

وصح العزم على مبارحة ياخشي خان في منتصف الساعة الثالثة صباحًا، لأن الزعيم الأكبر أنبأ بالتليفون برغبته في جمع نواب المجلس الكبير الوطني والوزراء ليحيوا أعضاء الوفد

في محطة أنقرة نفسها، وأن القطار الخاص الصغير الذي سيقل الوفد يجب أن يصل لتحقيق هذا المقصد، في منتصف الساعة العاشرة صباحا تقريبًا.

وانقضت مدة انتظار ساعة الصباح المحددة للرحيل في الكتابة وقراءة الصحف واستماع التفاصيل والشروح التي لم تكن معلومة إلى هذه الآونة عن انتصار أين أونو — اسكي شهر.

فغدًا يستقر النوى في أنقرة المقدسة، ولله الحمد الجزيل.

الرسالة الرابعة

أنقرة المقدسة في ٢٦ أبريل

وأخيرًا أشرقت أنوار أنقرة، العاصمة المكرمة!

لقد كان بلوغها في منتصف الساعة الحادية عشرة تقريبًا من صبيحة الأمس.

وكان الجو بديعًا رائقًا وتهلل الربيع الآسيوي يفيض سحره الباهر على جميع الأشياء ويغرق الطبيعة في لجة من الضوء الساطع.

ووقف القطار في الخط الحديدي الأخير على بعد مائة متر عن المحطة، ليتمكن الوفد من الاتصال مباشرة بالشعب الناسل من كل حدب وصوب، بقصد أداء شعيرة التحية إليه، وقد احتشد هذا الشعب المتماوج على طول الطريق الكبرى الممتدة بموازاة السكة الحديدية.

وكان رئيس الوفد واقفًا متحفزًا للنزول عند باب المركبة. في حين أن جميع الأعضاء التزموا التأخر عنه قليلًا. وما كاد القطار يقف حتى بادر بكر سامي بك بالانحدار من المركبة. ورؤي حينئذ ذلك الرجل ذو العقل المتناهي في السمو والذكاء، الذي استطاع منذ عامين ونصف حول أن يتناول بين يديه القديرتين أزمة العالم الإسلامي، وهو قادم لملاقاة رئيس الوفد.

ومصطفى كمال باشا ذو قامة متوسطة، رقيق، أبيض اللون مشرب بالحمرة الوردية، له عينان زرقاوان حادتان نظرتهما تكتنه الخفايا وتخرق الحجب الكثيفة. وجبينه المرتفع دال على النبوغ يكسوه قلبق أسود ذو صفة ممتازة جد الامتياز متسع

أعلاه. ويشتمل ملبسًا جبليًّا سنجابي اللون ضاربًا إلى القتمة في غاية البساطة، إلا أنه بديع الهندام. وفي يده قفاز مصطبغ بلون الملبس وعصا صغيرة من الخيزران.

فتقدم بقدم مطمئنة وصافح رئيس الوفد مصافحة يتمشى فيها الود والولاء. فانحنى هذا معانقًا مقبلًا بحب وإخلاص ذلك الذي التفت حوله شخصه آمال الجميع.

وبعد مصطفى كمال باشا هرع الوزراء والضباط والنواب والسراة ووجهاء أنقرة إلى التسليم على رسل السلام.

وعلى الرغم من الحفاوة والبشاشة وألفاظ الترحيب العذبة التي استقبل بها أهالي أنقرة الوفد، فقد كانت نظراتهم جافة تنطبع فيها سيما الأوصاب التي كابدوها في ليالي العمل الموصول خلال كل المكافحات التي تتابعت.

وهؤلاء الأهالي المتجمعون في أنقرة يكونون مجموعًا عظيم الشأن صحت عزيمته على القيام بالواجب المفروض عليه كيفما كان هذا الواجب شاقًّا هائلًا.

ثم عطف مصطفى كمال باشا على أعضاء الوفد يقرئهم السلام وما هم إلا الخلاصة المتخيرة من باقة الأمة؛ ما بين سياسيين وشراع وماليين وضباط وصحفيين وكتمة أسرار، وبالجملة كل أولئك كانوا يمثلون في الخارج جزءًا من الوطن المحبوب غير منفصل عنه، تقدموا بالمثل وأدوا واجب التحية المشفوعة بالاحترام.

وكان هذا التلاقي في محطة أنقرة بعد الأخطار المتعددة والصعاب المتنوعة التي صار التغلب عليها في الأسابيع الأخيرة مما يدعو إلى تحرك النفوس بشدة، وأخذت القلوب تسبح في لجة من الابتهاج عند رؤية هذه الأفواج المتماوجة — التي خيل إليها نظرًا للحوادث المستجيشة الغضب التي تتلاحق بعضها ببعض — أنها لن تتلاقى إلا بعد غياب غير محدود.

وطفق هؤلاء الرجال الأباة اليقنون بعظمة المهمة المضطلعون بها، المعذبون على الدوام بسبب تشربهم روح الحرية والاستقلال، والذين إنما يجاهدون لأجل العالم الإسلامي بأسره، يتصفحون وجوه القادمين الجدد بنظرات مستشفة مستفسرة.

وظلت مراسم الاستقبال بضع دقائق، ثم صحب الزعيم الأكبر بكر سامي بك يمنة وفوزي باشا يسرة، وسار بهما محاذيا الخط الحديدي منتحيًا وجهة منزله الصغير الظريف الناهض على جانب الطريق الكبرى غير بعيد عن المحطة.

وسار الوزراء والنواب وأعضاء الوفد جميعًا في آثار أولئك الرؤساء الثلاثة زمرًا متلاحقة.

وبعد المرور ببضعة بيوت وكذلك بفندق صغير ذي شكل حديث الطراز بدا منزل محاط برحبة بديعة النسق على مدخلها جنود لازيون ذوو مناظر باهرة يتولون الحراسة.

وقبل اجتياز الرتاج استقبل مصطفى كمال باشا جمهور المؤتمين به مسلمًا عليهم مستثنيًا منهم الوزراء ورئيس الوفد وهــ زاده، الذين بعد أن اجتازوا الرحبة دخلوا مسكن الزعيم الأكبر.

وعند مرورهم حمل الجنود اللازيون أسلحتهم مؤدين التحية العسكرية. وهم فتيان غر الوجوه أصحاء الأجساد لونهم نحاسي، مفتولو السواعد، مدربون تدريبًا لا يعتوره نقص، تزدهي قاماتهم العظيمة بثيابهم البديعة المحوكة من الصوف الأسود المطرز، وتتجمل خصورهم بمناطق من الفضة المهدبة، وتبدو على وجوههم سيما الأبهة والإباء والتجهم تحت ظلال عمائمهم ذات الشكل الخاص بهم، وهي سوداء اللون ذات أهداب من النضار تسترسل خلفها عذبات مطرزة بوشي خاص.

وتقدم الزعيم الأكبر مستقيمًا في صعوده إلى الطبقة الأولى التي يوجد على يسار مدخلها بهو الاستقبال. وكل ما هو موجود في هذا المكان مطبوع بطابع الوطنية البحتة؛ فالأثاث والأواني، والأبسطة والطنافس، والستائر، بل أقل الأدوات الصغيرة والزخارف كلها مكسوة بالصبغة البلدية، وهي من صنع هذه البلاد، وهدايا مقدمة إليه كل خاماتها من نتاج الأناضول، وقد أبدعت صنعها الأكف الأناضولية في خلال هذه السنوات العصيبة.

والمتأمل في أثاث هذا المكان لا يلبث أن يجد بصره قد اتجه إلى الطنفسة التي تكسو مائدة الوسط، وذلك لأن براعة التطريز جملتها بتسطير الآية الشريفة الشهيرة التي تم الاتفاق على اتخاذها شعارًا مقدسًا منذ ابتداء هذه الحرب الغاشمة وهي: ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

وعلى مقربة من الأرائك المرقشة بنقط ذهبية سفعاء تنهض موائد صغيرة مستديرة من الخشب المنقوش أو من المرمر الأخضر، وهو الحجر الرمزي لدى البكطاشيين، وضعت فوقها منافض سجائر، وعلب كبريت وكلها من الصناعات الأناضولية، وهي على جانب عظيم من دقة الفن وسلامة الذوق.

وفوق الأريكة الكبيرة الممتدة يمنة والمتبوئ فيها بكر سامي بك وأحد الوزراء تتراءى لوحة رمزية معلقة في الجدار. ويحوي إطار هذه اللوحة قطعة من نسيج الحرير الرقيق الأبيض بارز، فوقها رسم سيفين متعانقين على شكل صليبي، وأحدهما مبتور، وقد كتبت فيما بين قبضتي السيفين الموشيين بالحرير الأسود جملة معناها «أن سيف الحق يمحق دائمًا سيف الباطل».

وما ذلك الباطل إلا محاولة الاستيلاء وهمًا على أمة لها حق الحياة وقد حكم عليها بالفناء بالنار والحديد.

وأمام هذه اللوحة ذات المغزيين المتمازجين اللذين يوضحان فكرة الاستقلال، يحلق الفكر في جو التأمل حتى يصل إلى الحكم الجازم بالموت، الذي أصدرته أوربا منذ بضعة أسابيع سالفة، لأنه لا يوجد بين الإسلام والإغريق ما يجيز التردد!

ثم أخذ مصطفى كمال باشا بعد أن استقر المجلس بالحضور يتكلم ويفرق على الجميع — وهذا أمر مدهش — سجائر مصرية من أفخر نوع.

وبعد الانتهاء من تناول القهوة صار الكلام عامًّا بين سائر الموجودين، فجرى الحديث عن السفر الطويل الذي تم بمشقة، وعن الحفاوة التي أظهرتها أوربا للوفد، ثم العودة إلى الأرض المقدسة والتحمس العظيم الذي أبداه الأهالي المطالبون بحقوقهم التاريخية المقررة من أزمان طوال.

وكان الزعيم الأكبر تارة يصغي إلى ما يقال، وآونة يتكلم بما يقتضيه الحال، وقد قال أخيرًا في معرض الإيضاح: «أجل إن الأمة بأسرها قد أدركت — بعد العذاب والجهاد ونشر الحقيقة بكل الوسائل الممكنة — أن أعداءها يريدون إخماد أنفاسها، ولذا فإنها هبت بحذافيرها كرجل واحد مرتمية في حومة الوغى عندما اشتد الهجوم اليوناني.»

وبعد الفراغ من المجاملات المعتادة انصرف الوزراء، وبقي في المجلس بكر سامي بك وصديق مصطفى كمال باشا الخاص المطلع على كل أسراره هــ زاده.[١]

ولما خلا الجو لهؤلاء الثلاثة قال الزعيم الأكبر: «على الرغم من شدة تعبك فإني مستبقيك لتتناول طعام الغذاء معي. ولكن لا تخف فإني سأخفف عنك العبء فأتولى الكلام، بدلًا منك في هذا اليوم … لقد ذهب فكري إليك، وأخذت أتصور مقدار دهشك منذ ما يصل إلى سمعك نبأ تراجع الجيش المدبر عسكريًّا قبل وقعة اين اوني.»

ثم ضحك وقال: «وهذا هو السبب في الإشارة البرقية التي أرسلتها إليك ليزول روعك وتظل مطمئنًا.»

[١] لاعتقادي بأنني مسموح لي تمام السماح بذكر ما أجد من المفيد ذكره، فإني لا أتأخر عن نقل مقتطفات من تلك المحادثة الثلاثية، التي وإن لم تكن لها أهمية تاريخية لقراء رسالاتي، إلا أنها بالتأكيد تلقي بعضًا من الأشعة على هذا الرجل العظيم، فتظهر حقيقته التي صار إخفاؤها أو تشويهها في الغرب فتصوروه هناك في صورة أخرى لا تنطبق علي الواقع.

قال بكر سامي بك مستدركًا: «على أننا لم تصل إلينا أية اشارة برقية، سوى تلك التي تحمل إلينا على جناحيها السعيدين نبأ الانتصار الذي تكلل به ملتحم اسكي شهر، بيد أن اضطرابنا كان بالتأكيد عظيمًا، لأننا لم نكن ندرك شيئًا من أسرار هذه الحركات العسكرية التي ظلت خافية علينا تمام الخفاء. إن ثقتنا بجيشنا لم يطرأ عليها خلجة من الشك آونة ما، إلا أن الأنباء التي نمت إلينا عن الارتداد الأول بعد المفاوضات التي دارت في مؤتمر لوندره، واعترف أثنائها خصومنا أنفسهم جهرة بما لجنودنا الشجعان من القيمة العظيمة في القتال، كان من شأنها أن تحرك في نفوسنا عاطفتي القلق والاكتئاب.»

فابتسم الزعيم الأكبر ابتسامة منطوية على ألم ومرارة ثم قال: «في الوقت المناسب الذي كانت أوربا تعرض فيه علينا مقترحات للصلح سمحت للأغارقة بأن يتخذوا خطة الهجوم ضدنا، فما الذي كنا صرنا إليه الآن لو أننا استسلمنا إلى وعودها الخلابة وسبحنا في لجة من الأماني الكواذب؟ فأية فائدة أمكن استخلاصها من خداع وغش بعض أولئك الممثلين الهزليين البكم الذين ظهروا بأدوارهم المفتعلة في مسرح مؤتمر لوندره الشهير، الذي صار لنا درسًا تاريخيًّا لا يمكن تناسيه؟»

وبعد ذلك شرع الزعيم الأكبر قيامًا بالواجب يشرح بعناية سائر التفاصيل المختصة بالأعمال الحربية، وأوضح بدقة فوق العادة التقلبات التي تراوحت بينها المعركة.

وهنا تغير المنظر: فبعد أن كان الذي يتكلم بلطافة ووداعة هو رب البيت الحفي بأضيافه ذو الشمائل الرقيقة، إذا به قد تحول إلى القائد الذي يؤيد بالحوادث المؤكدة ما قام به جنوده من الأعمال الباهرة في القتال الأخير. وليظهر كيف اضطر العدو إلى الهجوم في النقطة التي كان هذا الزعيم الحازم قد عينها بالتدقيق، وطبقًا للخطة التي رسمها هو بنفسه، وأخذ يذكر الطريقة الحمقاء التي اندفع الإغريقيون بمقتضاها في تراميهم إلى الأمام، وهم يسيرون على غير هدى، وليس لهم مقصد معين يرمون إلى إدراكه، معتمدين على تفوقهم العددي، متباهين بأدواتهم الحربية الخيالية، إلى غير ذلك.

ثم قال مصطفى كمال باشا مستتبعًا بيانه: «لقد قام كل رجل من رجالنا الغيورين بواجبه خير قيام، منجزًا عمله بمنتهى الإحكام، والأوامر التي كانت تصدر لم يكن ثمت حاجة لمراقبة تنفيذها لأنها كانت تنفذ من تلقاء نفسها، لأن الضباط الشبان ماهرون وذوو إقدام باهر، وقد أتت المدفعية بالمعجزات الباهرات، وبهذه المناسبة أذكر أن رئيس إحدى البطاريات رأى مدفعي الأعداء يستخدمون الهاون بمهارة ونجاح، فجمع كل مدافعه وصوب ألسنة نيرانها على مدافع العدو الهاونية، وبعد انتهاء المعركة بحث في مواقع العدو فألفى ثلثي تلك الفوهات الفظيعة أصبحت في حكم العدم.

ولقد أحسن العدو إلى نفسه بالاعتراف المتقدم ذكره عن كفاءة عساكرنا وشجاعتهم، وهذا الاعتراف الذي لا سبيل إلى إخفائه يشرف قدره.

وأما من جهة الفرسان فقد جدوا في آثار الأعداء يضربون في أقفيتهم ولا يدعون لهم سبيلًا إلى الراحة أو لم شعثهم، حتى بلغ من اشتداد الحرج على الإغريقيين أنهم لم يستطيعوا أثناء إدبارهم أمام فرساننا أن يقتلوا أحدًا أو يحرقوا دارًا. وظلت هذه حالتهم حتى صدر الأمر إلى الخيالة بالكف عن مطاردة أولئك الشاردين. ومذ هذه الآونة أي مذ الانقطاع عن المطاردة ابتدأ إغراق البيوت بالبترول ثم إرسال ألسنة اللهب عليها.

وهنا بدأ الزعيم الأكبر يسرد سلسلة الفظائع التي ليس لها اسم في معجمات اللغات، وإنها لفظائع تقشعر من هول سماعها الأبدان، ثم قال: «إذا قدر للعدو أن يعاود الهجوم مرة أخرى، فإني بفضل الله وبحسن ثقتي بعنايته واعتمادًا على رجالي الشجعان عظيم الرجاء في تغلبنا عليهم مرة أخرى طبقًا لخطة أنجزنا إعدادها.»[٢]

وفي نهاية الساعة الأولى بعد الظهر نزل الحاضرون إلى الطابق الأرضي حيث توجد فيه قاعة الطعام، وهي قائمة منظومة على النسق العثماني البحت.

وقد أعدت المائدة لجلوس اثني عشر شخصًا، وتقدمت المآكل الشهية بنظام مراعى فيه أحدث ترتيب عصري.

وعم الحديث بين الجميع وألم بسائر الموضوعات، إلا أن الموضوع الذي أصاب الاهتمام أكثر من سواه هو الكلام على الخطوط الحديدية التي تم مدها أثناء الحرب، ثم يلي هذا الموضوع التكلم على رقي الصناعات الوطنية.

وبعد الفراغ من أكلة الغداء صعد المجتمعون إلى قاعة الاستقبال المرقشة بالنقط الذهبية حيث شربوا القهوة، وبعد هنيهات وجيزة استأذن الجميع الزعيم الأكبر في الانصراف فسمح لهم قائلًا: «تفضلوا واستريحو من أتعابكم ولتكن مقابلتكم غدًا على أتم سرور.»

---

[٢] إلا أن المرء يفكر والله يقدر! وماذا عسى أن تصنع تركيا أمام التفوق العددي الآخذ في الزيادة على الدوام بدرجة ساحقة لدى عدو غني جدًّا بالذخائر، وهو حر في اجتياز الدردنيل وفي عبور مضيق البسفور أمام أسطول الدول المتفقة، وينزل عساكره على سواحل البحر الأسود وهو مشجع على عمله، وفضلًا عمَّا لديه من الأدوات الحربية الهائلة ومن جملتها عدة من الطيارات، فإنه حاصل على قوة أدبية لا حد لها ... نعم ماذا عسى أن تصنع إزاء هذا العدو الأمة العثمانية الموجهة الهمم الأجنبية إلى إعدامها وإشقائها والمصابة بضروب من المحن والآلام لم تعرفها أمة من قبل في العالم بأسره حتى الآن؟

وقد خصصت سيارته المنتظرة أمام الباب لنقل اثنين من أضيافه، وكان الذي يتولى إدارة هذه السيارة سواق عسكري، وكان على جانب هذا السواق جندي جالسًا لا يبدي حراكًا.

وانطلق الأتوموبيل مخترقًا الشارع الأكبر ومتجهًا نحو المسكن الذي خصص لسكنى رئيس الوفد، وهذا المسكن كائن في مدينة أنقرة القديمة.

وكان قد خف إلى منزل هذا الرئيس جمهور كبير من سائر طبقات الناس قادمين من كل ناحية لرؤيته. وعلى الرغم من التعب الذي لا يوصف لم يتهيأ للنوم إلا بعد منتصف الليل بمدة طويلة، عقب انفضاض المجتمعين، وهم حاملون بين جوانحهم عواطف مختلفة حسبما تأثرت به نفوسهم من هذا السفر الشاق المؤلم في أقصى أنحاء أوربا.

الرسالة الخامسة

أنقرة في ٢٨ أبريل

لم تحن بعد الساعة التي يمكن فيها إبداء المعلومات الضرورية عن الحرب الناشبة في آسيا الصغرى، فإن سرد هذه المعلومات سيجيء مؤخرًا في الفرصة المناسبة؛ إذ لا يزال القتال جاريًا في مجراه المحزن الفاجع. وهذا هو السبب في استحالة الإفاضة في تاريخ الحركة الوطنية في هذه الآونة.

إن الصراع الناشب بقسوة والممتاز بكثرة ما أريق من الدماء فيه لا يزال ناشبًا بعناد وعزم، وإنه لفريد في بابه.

ولم تعلم أمة في أوربا تخطت البطولة العظيمة التي امتاز بها هذا العنصر الذي يستمد يد المعونة من الخارج، والذي ظل مع ذلك يوالي الكفاح لأجل تمتعه بحق البقاء.

وبسبب حرمانه من كل شيء من جراء الحصر، فقد أصيب بخسائر وضحايا لم يسمع بمثلها في سائر الإعصار، ومع ذلك فهي لم تثبط عزيمته ولم تقعد به عن موالاة الزود عن أرضه المقدسة.

إن صلابة هذا الشعب ذي الأخلاق الوديعة اللطيفة في هذا الموقف العصيب تعتبر من خوارق العادات.

فوا حر قلباه عليك أيها الشرق التعس المتهلل المتلألئ الجذاب السابح في لجة الأحلام، الذي كانت أوربا المفكرة الرشيدة مولعة بالإعجاب به وإطرائه فيما غبر من الأيام!

سمح الدهر بالأماني ولكن أين ولت وهل لها من إياب!

أجل إنه ليحق التساؤل عن تلك العهود المنقضية؛ فقد خفتت أصوات أولئك المتغنين بصفات الشرق والهايمين بمحاسنه، وذلك الانعطاف المتناهي — الذي كانت تبدو مظاهره إذ ذاك — تحول إلى فتور وتحطم على صخرة الزمان غير تارك أثرًا من عهد ذلك التعاطف المتبادل.

فهل كانت الصلات سهلة الانفصال إلى هذا الحد؟

أليس من المعلوم أن الهوة تستدعي دائمًا وجود هوة آخرى؟ وأليس هذا التقاطع، وهذا الاستخفاف من شأنهما زيادة الهوة انحدارًا واتساعًا حتى تصبح على توالي الأيام مستحيلة الاجتياز؟

أفلم تصب الإنسانية بما هو فوق الكفاية من الكلوم الدامية أثناء الحرب الكبرى؟

إن ألفاظ العدل، والحق، والسلم ليست في الحقيقة سوى كلمات عميقة الغور عويصة المعنى ... ما دام لا يزال يوجد شيء لا مراء في وجوده وهو: حرب الأناضول.

والقوم في أنقرة أكثر تفكيرًا وتأملًا من سواهم في سائر الجهات الأخرى، وهم لا ينفكون ينعمون النظر فيما يقع تحت أبصارهم من المرائي المحسوسة، فإنهم منذ أعوام طوال لم ينفكوا عن رؤية الجنود المتقاطرة من كل فج عميق، ولم يلقوا أسلحتهم من أكفهم ويستكينوا إلى الراحة وهدوء البال ...

إن وصف حياة وعمل الرجل الذي طبع بطابع اسمه ذلك المشروع الذي تم إنجازه منذ إبرام الهدنة إلى الآن، والذي ينفث من روحه في هذه البقاع الأناضولية التي أقصته إليها حكومة ذلك الوقت الضعيفة المأفونة، على إثر احتلال الأستانة بقوى الدول المتحالفة، هو بمثابة إلقاء نظرة دقيقة على صورة الدولة العثمانية التي كانت تجود بنفسها الأخيرة في ذلك الوقت المشئوم، ومقارنتها بهذا العهد الذي يتولى الدفاع فيه هذا الرجل العظيم بشهامة وإباء عن هذه الدولة البائسة ليمكنها من الحياة في دعة وسلام.

إن مصطفى كمال باشا المستقر في صميم قلب آسيا الصغرى والمقطوعة صلاته بكل جهة أخرى، والمحفوف بالغموض والإبهام والمصوبة إليه سهام الملامة والنقد من الدول الكبرى، والمتتابعة عليه حملات هذه الدول الغربية، بلا مؤازر يشد عضده ولا ظهير يناصره، لبث يعمل بهمة لا تكل ولا يتغلب عليها السأم لتحقيق خطته العظمى التي ترمي إلى الاستقلال الوطني، فهو كغليوم الصامت يحشد مشروعاته في دائرة عقله،

وكل ما يصبو إليه في حياته يمكن حصره في هذه الكلمات الأربع: «المكافحة، والأمل، والإقدام، والحذر».

وهو كأمير الأورانج قلما يفوه بالألفاظ، وإذا ما تكلم كان قوله وجيزًا، ماضيًا كالحسام. وصوته المعتاد على الرآسة العسكرية فخم جليل. وهو لا يستسلم إلى أحد ما، وما سُمِعَ مرة ما يتبجح بعمل ذي مظهر خلاب.

وانكبابه على العمل لا مثيل له، فهو يدرس بنفسه وبمنتهى الدقة الأحكام كل الأوراق والمستندات التي تعرض عليه لإبداء رأيه فيها.

وبما أنه يهتم بالاطلاع على كل أمر، وهو على علم تام بسائر المسائل الشرقية، وله نظرة إجمالية في مجموع المسائل الغربية، فإنه يدهش أولئك الذين يقتربون منه بصواب آرائه وملاحظاته.

ويتطلع مصطفي كمال باشا بعين مترصدة إلى الإنسانية على الدوام كما يدقق النظر في أفق بلاده الحافل بالغمائم.

فمتى ترتفع الشمس المشرقة بعد احتجابها وتفيض أشعتها الزاهية مرة أخرى على محاسن آسيا الصغرى الجليلة العزيزة علينا جميعًا إلى النهاية القصوى.

ويعمل مصطفى كمال باشا وهو متوطن في أنقرة، ليمكن أهالي الأناضول من التمتع — ولو قليلًا — بالأشعة المتلألئة التي قد تنفذ أحيانًا من خلال البهمة الدائمة المستحكمة حلقاتها فوق الأفق.

إن ما تلقاه مصطفى كمال باشا من مبادئ التثقيف والتعليم عسكري بحت، وقد أتم دراسته العليا في المدرسة الحربية بالأستانة. وبما أنه ذو ذكاء متوقد وذهن حاضر فقد استطاع أن يستفيد منذ نضارة صباه دروسًا عملية من تجارب الحياة جعلته يرسم لنفسه مسلكًا خاصًّا ظل منتهجه طول حياته.

ولقد توالت عليه من عوامل الإخفاق والألم والمرارة المتتابعة أحوال شتى تركت لها أثرًا بينًا في حياته، إن لم يكن قد غمرتها برمتها، فقد صارت عاملًا مهمًّا في تكوين خلائقه، فأصبح على إثر ذلك عليمًا بدقائق الطبيعة الإنسانية، وظل يشاهد بغير اهتمام دسائس هذا العصر المحزن التي تجاوزت بغرابتها حدود التصور. وقد أصغى إلى الصيحات المختلجة التي انبعثت من فم الأمة المختنقة من غير أن يدفعه الهلع إلى التعثر والسقوط، كما أنه بصر بما يئول إليه استبداد الزعيم الذي يتناول بين يديه أزمة

السلطة، ولا يريد أن ينقذ أمته من حكم الإرهاق والضغط الذي كان متبعًا في العصور الوسطى.

وبما أن الأمور مرهونة بأوقاتها فقد صار من نصيبه أن يشهد تداعي أركان ذلك الملك الذي لم يكن في عصره من هو أقوى منه عزمًا وأشد بطشًا عبد الحميد خان الذي لم يكن بُدٌّ من سقوطه.

وقد حملته هذه الحادثة المدهشة على أن يفكر بإنعام في مبادئها وخواتمها، فخرج من هذا التأمل بخلاصتين جوهريتين وهما:

أولًا: أن كل أمير — ولو كان خليفة جليل القدر ذائع الصيت تنحني أمامه أعظم الهامات خضوعًا ورهبة — لا يمكنه أن يظل طول حياته متغلبًا على النهضة الوطنية التي ترفع شأن بلاده، وأن لا بد له من التهاوي عن دست تحكمه في نهاية الأمر من جراء سوء سمعته وانصراف القلوب عنه.

ثانيا: أن الثورة إذا أحكم نظامها وعولج بمهارة وذكاء تدبيرها؛ فإنها تؤدي إلى الغرض المقصود منها بدون إراقة دماء غزيرة.

وظل الزعيم الأكبر بعد ذلك غارقًا في لجج أفكاره، وإنها لدروس ذات شأن خطير، ولم يكن يولي ثقته إذ ذاك إلا أفرادًا قلائل جدًّا، وأولئك الذين كان يثق بهم من خيرة الأشخاص الذين عرف بواطنهم وخلائقهم حق المعرفة، وداوم على اعتكافه هذا عن الناس وإدمانه على تأمله العميق المديد أكثر مما كان يفعل ذلك من قبل.

وقاتل مصطفى كمال باشا بشجاعة في طرابلس الغرب. وأتاحت له عيشة الصحراء فرصًا موافقة تمكنه من إظهار مقدرته على تحمل حياة التقشف والجلد.

فهنالك عرف كيف يصبر على الشظف والحرمان من أكثر مطالب الحياة المدنية، وتدرب على الانصياع لما تقضي به الشدائد والأزمات، وما تتطلبه مقتضيات الأحوال من سائر أنواع التضحيات.

إلا أنه من جهة أخرى أخذ يتقدم بهوادة في المجال العسكري.

ولقد كان بعض من رفاقه الذين رزقوا من الحظ أعظم مما أصاب هو منه جادهم الدهر بهتان من المجد والفخار وبعد الصيت، فغطوا بسمعتهم على شخص هذا الضابط الشاب الملتزم جانب العزلة والسكون.

وقد وجد أثناء الحرب الكبرى في عدة جهات من مواطن القتال، إلا أنهم لم يجعلوا لاسمه خاصة شأنًا مذكورًا.

وأخيرًا استقدموه إلى الدردنيل، وهنالك تخيره ليمان فون ساندرس من بين عدد عظيم من القواد الآخرين لتلافي الحالة المعروضة لأشد الأخطار.

فكان دفاعه مجيدًا مقرونًا بالبطولة وفوق مجهود البشر، بيد أن الجنود الذين أجهدهم القتال، واشتفت قواهم الأعمال، وقضت على كثير منهم قذائف المدافع المتوالي انطلاقها بغير انقطاع، حتى لتكاد تكون حمم بركان منفجر، قد قاربوا استنفاذ قوة مقاومتهم. وتحرجت الحالة برًّا وبحرًا وأقبل الخطر الداهم منذرًا من كل جانب؛ من غير ما توقف ولا تباطؤ، فكاد يذهب بعقول الحماة المجاهدين الأبطال الذين ستخلد ذكراهم العاطرة على توالي الأجيال.

ويقصون في هذا الصدد أن المعركة تكللت بتاج الظفر بطريقة تعتبر من خوارق العادات: فإن مصطفى كمال باشا وقف في وسط أجناده ووابل القذائف ينهل من كل صوب كالغيث المدرار وخاطبهم مستجيشًا ما تبقى من حميتهم بقوله:

> أيها الجنود إني أرى العدو يجود بأنفاسه الأخيرة، وقد التوى على نفسه وبدأ ينسحب من الهيجاء، فهلموا بالارتماء عليه قبل تمكنه من الارتداد، واسقطوا عليه سقوط الصواعق الماحقة وانتقموا منه لزملائكم النبلاء الذين تواروا في بطن هذه الأرض المقدسة.

وإذ ذاك اخترط حسامه واندفع مهاجمًا في مقدمة شرذمة من الأبطال المغاوير مرتميًا على العدو بشدة لا يمكن صدها، فدفعت هذه الجرأة المتناهية بقية الجنود إلى التحمس والاقتداء برئيسهم وزملائهم، فكان عملهم هذا هو النتيجة النهائية لهذه المعركة، لأنهم بوثوبهم الهائل وعنادهم الذي لا يطاق وقفوا في وجه العدو حائلين دون تقدمه حتى نقلت من المؤخرة إلى المقدمة المدافع الغليظة، وأرسلت شواظها الصاعق على العدو؛ فأعقب ذلك إخلاء شبه جزيرة غاليبولي.

إلا أنه على الرغم من وضوح عمله الباهر، وعلى الرغم من نتيجة المعركة فإن أناسًا آخرين هم الذين جنوا ثمار هذا النصر المبين الخالدة ذكراه إلى الأبد، وأرسل إلى جبهة أخرى يقاتل فيها، فذهب إليها وهي تتعثر في خطاها وتوشك أن تسقط في أيدي عداها، واضطر بحكم مجرى الأمور أن يعتزل ميدان الظهور، وهو منطوٍ على ألم في النفس ومرارة.

على أنه لم يتأخر عن القيام بواجبه واتفق مع رأفت باشا الذي كان إذ ذاك في غزه على أن يطلبا عدة مرار نجدات قوية، إلا أن صوتيهما المتعاليين كانا يذهبان أدراج الرياح.

وما ذلك إلا لأن الدولة العثمانية التي اندفعت في حرب مقرونة بسوء الحظ وليس من ورائها مطمع يستفاد، كانت كل قواها تقريبًا متوزعة خارج أراضيها؛ فالعساكر متفرقة إلى أجزاء منفصل بعضها عن بعض في أماكن متعددة؛ فهناك في غاليسيا جانب منهم، وثمت في إيطاليا جانب آخر، وهناك في القوقاز قوى ضاربة في نجودها، فما تخلف من القوى في داخل البلاد لم يكن كافيًا للذود عن حياضها. وتوالت الكوارث المحزنة قاضية على خيرة الأجناد وأشجعهم بانطمارهم تحت طبقات الجليد، غير حاصلين على نجدات تشد أزرهم أو إمداد من المؤن والذخائر يدفعون بها غائلة الجوع وطائلة العدوان.

وستظل صار ياكاميش بأهوالها في ذاكرات سائر الرجال كما هي منقوشة بأحرف من نار لا تخبو في ذاكرة أحد أولئك الوطنيين الأتعاس.[١]

وبهذه الطريقة لم يتيسر جمع القوى اللازمة وحشدها في المواقف الحرجة فأدى هذا الأمر إلى سقوط مصطفى كمال باشا في وهدة اليأس، ولم يكن هذا الزعيم موافقًا على آراء ولاة الأمور لذلك العهد، بل كانت له خطة عمل خاصة به مستقلة في نفسها.

وشاء القدر المحتوم إلا أن يزيد في غصته، فقسم له أن يكون في الأستانة أثناء إبرام الهدنة، فرأى عاصمة الإسلام التي أنقذها دفاعه الباهر المجيد عن الدردنيل أصبحت فريسة لكل الفظائع والأهوال.

---

[١] إن السيرة التي سردها رئيس فرقة من جيش القوقاز وهو القائمقام أديب بك وهي إحدى النوادر الصغيرة من ذلك المنظر الرهيب لخليقة بأن تدون هنا، وهذه السيرة عبارة عن مأساة؛ فقد كان آلاي مارًّا في عودته إلى القرية ليأخذ قسطه من الراحة، وكان البرد والجوع قد نالا من رجال هذا الألاي منالًا فظيعًا، فأخذوا يتحاملون وهم سائرون على الجليد وألبستهم خلقة وأرجلهم تسوخ في الجليد بغير أحذية. وإنه لمرأى مفزع فتقدم القائمقام إليهم وقال لهم: «نعمتم صباحًا أيها الرفاق.» فأجابوه: «نعمت صباحًا.» قال القائمقام: «خبروني هل ينقصكم شيء من مطالبكم الضرورية، وهل تشتهي نفوسكم شيئًا ما كائنًا ما كان؟» فكان الجواب: «لا شيء، شكرًا لك.» فتمالك القائمقام نفسه وصاح: «ليرافقكم الحظ السعيد وليعنكم الله ويقويكم على القيام بالواجب.» فقابلوني على هذا الدعاء الصادر من أعماق قلبي لهم بهتاف عال رنان ينبعث من تلك الصدور المفعمة بالأشجان: «ليحيا الوطن.»

فلم يستطع القائمقام أن يتغلب على عواطفه وأطلق ساقيه للريح ليختفي من أمام أبصارهم على عجل كي لا يروه ودموعه تنحدر من مآقيه على محاجره. ولقد قال فيما بعد: «لو أنني ساقني الجد العاثر إلى توجيه هذا السؤال إلى آلاي أوربي لكان الجواب أن يطلق علي أحد الجنود رصاصة تودي بحياتي، لأن هؤلاء المساكين في أشد العوز إلى كل شيء وأنا أسائلهم إذا كانوا لا ينقصهم شيء. وإذا كانت نفوسهم لا تشتهي شيئا؟»

وكانت هذه هي المرة الأولى التي سقط فيها مقر الخلافة تحت نير الاحتلال الأجنبي، فإن القسطنطينية لم ترزح فيما غبر من العهود تحت هذا النير الثقيل، وإزاء هذا الهوان الذي لا يغتفر الموجه ضد الإسلام بأسره أرن واشتد جماحه ولم يعد غضبه يقف عند حد معين.

ولقد ذهب الظن بدون أدنى شك إلى وجوب طعن الدولة العثمانية مباشرة في سويداء قلبها، لأن القسطنطينية كانت العاصمة الناطقة بلسان الإسلام والمفوضة من سائر الأقطار الإسلامية، فكان لا بد لضوء الهلال الباهر أن يصاب بالمحاق ما دام صليب برلين الذي أعلن الحرب لم يكن نصيبه سوى تحمل الآلام القليلة والضغط الهين[٢] ...

وبما أن مصطفى كمال باشا قائد عظيم، ومدافع بارع عن الدردنيل وقد اشترك في كل المعارك العظيمة التي وقعت أثناء الحرب الكبرى، فقد اعتبر من الأشخاص الذين يجب الحذر منهم واتقاء بأسهم، إلا أن السلطة المتوجسة خيفة منه لم تجرأ على نفيه[٣] ولا على اعتقاله، لأنه لم يكن سوى ضابط كبير مخلص لدولته غير مشايع لأي حزب سياسي، وليس له أي غرض يسعى لإدراكه سوى القيام بواجبه.

فاستقر الرأي حينئذ على إرساله إلى آسيا الصغرى بصفته مفتشًا عامًّا للجيش المنتشر في تلك الأصقاع المتنائية. وكان المقصود بهذا الإبعاد اتقاء خطر وجوده في الأستانة.

---

[٢] ليست المسألة المعروضة الآن من مسائل التعصب الديني الذي ليس له أثر من الوجود لدى أشياع النبي ولا في الأصقاع الشرقية الإسلامية ويمكن تأكيد هذا القول بأدلة عديدة.

فبعد الحرب الصليبية التاسعة التي أعلنت في عام ١٩١٢ حينما نشب القتال في البلقان كان المظنون أن الخلاف الشاجر بين الهلال والصليب قد سوي نهائيًّا. إلا أن الحقيقة كانت على عكس ذلك، لأنه أثناء اكتساح فلسطين عاد هذا الأمر إلى الظهور ثانية. والآن يعلن «بطل المدنية الغربية» على الوتيرة التي كان يتبعها ريكاردوس قلب الأسد، بإصداره تصريحًا للعالم أجمع متضمنًا أن الحملة الموجهة إلى آسيا الصغرى يمكن اعتبارها كآخر حرب صليبية، وقد أصدر هذا التصريح من معسكره العام بكورديليو.

أفنحن إذن إزاء حرب صليبية عاشرة؟ لم يكن يدور في الخلد طرق هذا الموضوع لو أن الغرب لم يتعرض لمهاجمة الشرق في بعض صحفه الكبرى. وعلى الأخص في الفيجارو التي ظهر فيها المسيو دنيس كوشان كمبوق لصليبي هذا العصر. متناسيًا بالمرة أن فرنسا إذا كانت محبوبة حقيقة في الشرق فالفضل في ذلك يرجع إلى الدولة العثمانية..

[٣] لقد نفي على إثر إبرام الهدنة إلى مالطة عدة من الوزراء والقواد وأعضاء البرلمان العثماني والشعراء وكبار الكتاب.

إلا أنه لم يكن يتمنى ما هو أعظم من ذلك، فقد أزفت ساعة ظهوره في ميدان العمل؛ لأنه إنما يستمد القوة اللازمة لإنقاذ أمته، من نفس آلامه الشديدة التي يعاني غصصها منذ أمد طويل ...

إن مهمته عظيمة جدًّا ... غير أنه لا بد له من متابعة الجهاد على كل حال.

أما الآن فهو هنالك، جالس في مكتبته ذات المنظر البسيط الموجودة في بيته الصغير.

وترى على جلود الأثاث المزينة به غرف هذا البيت الصغير وقاعاته طابع الصناعة المحلية؛ لأن المائدة والأرائك والكراسي كلها من صناع عمال أنقرة أنفسهم.

وقد تغطت جدر القاعة بتذاكر مصورة قادمة من سائر البقاع الآسيوية: وبأسلحة بديعة مهداة من العناصر الإسلامية، فمن فرود مزينة بأدق النقوش وأبهرها، إلى أسياف مرصعة بأثمن الجواهر وأفخرها، إلى بنادق من ذوات الخرطوش، فمناطق شائق رواؤها، فخناجر عثمانية ذات مقابض نادرة المثال، وكلها هدايا مقدمة من الشراكسة، والأكراد، واللازيين، وغنائم مما جمع من الأسلاب الحربية في الوقائع الظافرة تندمج في جملتها تحف أخرى مضمومة بعضها إلى بعض في أشكال متناسقة. وفوق مكتبه الخاص الكائن في الركن الأيسر معلق سلاحان واضحان للعيان أتم وضوح بتألقهما الفتان فوق الجدار.

وهذان السلاحان هما خنجر أبدعت يد الفن الماهرة في صنعه أيما إبداع، ومسدس[٤] مرصع بالعسجد. وقد قدمهما الجيش لرئيسه الأكبر اعترافًا منه بالجميل تلقاء الخدمات الجليلة التي قام بها للوطن المحبوب المفدى بالنفس والنفيس في مسألته المقدسة.

وبعد الانتهاء من إجالة النظر في هذه القاعة الخاصة، التي ترفرف فيها آمال وأحلام ذلك البطل الشاب ومطالبه المشروعة، يعود البصر كرة أخرى إلى التأمل فيه هو بإنعام، وإذ ذاك يخيل إلى الناظر كأنه يراه ناطقًا هذه الألفاظ:

«سيرى العالم أجمع ما سنقوم به من عظائم الأمور، وهل الأمة التي خلفتها الأسلحة في أعصب الأوقات تستطيع أن تعدل عن الجد في طلاب حقوقها وتستسلم إلى الفناء بالسلاح الأجنبي؟»

ومن المؤكد أن الكلام عن هذا البطل المغوار سيظل متداولًا في الأفواه؛ لأنه بينما تنتشر نشوة الربيع في نسمة الصباح العليلة وتنساب في المكتبة ممزوجة بالأشعة المتألقة،

[٤] هذا المسدس الذي هو إحدى الأعاجيب المدهشة أهداه الزعيم الأكبر إلى هــ. زاده تذكارًا لزيارته أنقرة.

إذا بنظر الزعيم الأكبر يتصوب فجأة وينبعث منه بريق وامض يخترق الجدر ويستطير في الأفق الفسيح كبريق الحسام القاطع.

الرسالة السادسة

أنقرة في أول مايو

إن أنقرة ناهضة على مستشرف من التلاع. وبما أن مباني هذه المدينة منبسطة عرضًا، فهي مشرفة على واد نضير مخضل الجنبات، ينساب فيه غدير متلألئ الماء. وتتراءى بيوتها الصغيرة المشيدة على الطراز العثماني وقد بدت عليها مظاهر القدم من توالي الفصول ذات الشدة المختلفة ما بين أمطار وثلوج متتابعة، إلى رياح عاصفات، فحرارة قيظ متلهبة، وهي مع ذلك متلاصقة عجيبة الوضع في شوارعها وحواريها الضيقة المندمج بعضها في بعض.

وتنهض هنا وهناك طلول السير القديمة، ما بين أقواس متداعية، وعمد متهاوية، وهي دمن متخلفة من عصر آخر سحبت عليها صروف الليالي ذبولها.

وتمتاز أنقرة بوضوح طابع الزمن المتقادم عليها.

والشارع الأكبر الذي يخترق المدينة بأجمعها ويشطرها إلى قسمين هو أهم السبل، لأنه مؤد إلى دار الندوة العثمانية، وإلى الوزارات وأهم العمارات المقيمة بها إدارات الحكومة ومصالحها، وهو محفوف على جانبيه بالمخازن والحوانيت الحافلة بسائر الأصناف، والتي تعرض فيها جميع متاجر البلاد، وفي هذا الشارع أيضًا يوجد السوق الشهير الغريب في بابه الذي يرى المرء فيه كل خصائص الصناعة الأناضولية وفنونها المتنوعة، وكذلك الأفراء الثمينة، والجلود القيمة، والطنافس ذوات الألوان الزاهية المتناسقة الآتية من قيصرية ومن بوردور.

وإزاء عمارة دار الندوة توجد حديقة البلدية، التي على الرغم مما أصابها من الإهمال الناجم عن شواغل الحرب، فإنها لا تزال حافظة بهاءها القديم الباعث في النفوس الراحة والانشراح.

وهذه الحديقة موضع تلاقي المواعدين من الأصدقاء وراغبي التحادث، لأن ناديًا يشمل قهوة ومطعمًا ينهض في وسط المثلث المزهر، وقد أحاطت به مستظلات خشبية (أكشاك) صغيرة. وبما أن الأشربة الكحولية محظورة بتاتًا من البقاع الأناضولية بأسرها، فلا يتناول القوم في هذه الأماكن البهية سوى المرطبات العذبة والشاي البديع سواء في الصيف أم في الشتاء.

وحظر المواد المسكرة بالغ منتهى الشدة، ولذا وضعت عليها الرقابة الصارمة.

وكذا توجد خانات عظيمة الترحيب والحفاوة بزوارها، ومطاعم فخمة لمن يشاء الإنفاق عن سعة، وتوجد خارج المدينة مستشفيات باهرة النظام تتولى مهمة التمريض فيها سيدات تابعة للجمعية.

ولقد كانت المدينة فيما سلف ذات سعة كافية لقبول كل الناسلين إليها، إلا أنها بعد أن اشتعل فيها ذلك الحريق الهائل الذي التهم لهيبه حيًّا كاملًا من أنقرة، وعلى الأخص بعد أن أصبحت مقر الحكومة حلت بها أزمة السكن، وهي أزمة عسيرة الحل. إن الازدحام الموجود بها الآن لم يسمع بمثله، بل قلما يجد السائحون الوجهاء أماكن يأوون إليها إلا بمشقة عظيمة.

فالقادمون الراحلون من ذوي الوجاهة عديدون ما بين ضباط وتجار وريفيين، وكل فرد منهم منهمك في أعماله الخاصة من غير أن يتعرض للشئون السياسية التي عهد النظر فيها إلى المجلس الأعلى والجمعية الوطنية.

وبسبب ازدحام أنقرة بسكانها المتوطنين فيها وبالقادمين الجدد عليها كل يوم أصبحت مطالب الحياة فيها أغلى مما تقوم به من الثمن في أية مدينة أخرى من مدن آسيا الصغرى. على أنها مع غلاء الأسعار فيها لا ينقصها شيء ما. بل لقد أضيئت بالنور الكهربائي وأنشئت فيها مطبعتان كبيرتان تطبعان الجريدتين الرسميتين وهما الحاكمية الملية، واليوم الجديد (يني جون).

ويستطيع كل امرئ أن يرى في الحي المحترق خطة استحداثه مبينة على الثرى، تتوضح فيها الشوارع المتلاقية والمتقاطعة على نسق محكم ونظام بديع، فالبيوت المتجانسة محوطة بمربعات متشابهة، دالة بذلك على أن تشييدها ومواقعها ستكون

على طراز حديث مراعى فيه كل ابتداع في فن المعمار، ومتوفرة فيه كل شروط الصحة والرونق البديع.

ويكاد يكون مجموع السكان من العنصر الإسلامي فقط إذ لا يوجد في أنقرة سوى عدد قليل من الإسرائيليين، ومن الأرامنة ومن الأروام.

والسكينة والأمن العام مستتبان تمام الاستتباب في هذه المدينة، وما ذلك إلا بفضل الطاعة المتناهية التي يتشبث بها الأهالي من تلقاء أنفسهم، ويقضي الإنسان سواد الليل مستمعًا وقع أقدام فصائل الحراس التي تتجول في سائر أحياء المدينة.

ولا يستطيع أي أجنبي — ولو كان متنكرًا — أن يدخل أنقرة أو يخرج منها بدون أن تكون الشرطة على تمام العلم بأمره.

وفضلًا عن كثرة الأعمال الموصولة التي لا تنكف سائر طبقات الأهالي عن إنجازها، فمن الميسور أن يرى المرء بعض المواطنين جلوسًا في بعض الأندية العامة (القهاوي) كعهدهم من قبل يتذوقون الدخان من شيشهم المرقشة بواطيها بمختلف الألوان الزاهية، وهم مرسلون بنظراتهم الهادئة العميقة فيما ينفسح أمامها من الفضاء، ومسترسلون في تصوراتهم وأوهامهم العذبة اللذيذة.[١]

وتوجد عدة مدارس جليلة الشأن في أنقرة، إلا أن المدرسة الحربية لم تنشأ فيها إلا منذ نشوب الحرب الأخيرة، أي عندما فر تلاميذ المدرسة الحربية وتلاميذ المدرسة البحرية جموعًا متلاحقة من القسطنطينية على إثر إبرام الهدنة، ووصلوا بعد جهد جهيد، إما مشاة على الأقدام، وإما ركوبًا في المركبات؛ كل حسبما تيسر له إلى أنقرة حيث استقبلوا فيها بسواعد ممدودة وصدور مرحبة، فعندئذ أنشئت مدرسة أنقرة الحربية، وأخذ يتولى التدريس فيها ضباط من ذوي الكفاءة العليا والمعلومات الواسعة، مثقفين هذه الخلاصة الزاهرة من أبطال الوطن الصناديد.

وإن ارتحال هذه الشبيبة الناضرة المتلهبة إلى الملجأ الذي ترفرف فيه النفس الوطنية لذو مغزى سامٍ أجل من أن يمر به المرء ملتزمًا جانب الصمت والجمود.

[١] ملاحظة عجيبة: إن عمال الأندية عندما يقدمون الشيش يصحبونها بأوان ملأى بالماء المغلي لتطهير أنابيبها، وهذا دليل على مبلغ عنايتهم بالصحة.

ويلتقي النظر على الآكام المتاخمة للمدينة بمجموعات من المضارب الصغيرة البيضاء الناهضة بنظام بديع تأوي داخلها الجنود المحتشدين البواسل.

ووسائل الاحتياجات الصحية مراعاة بدقة عظيمة في كل مكان.

وتمتد على جانبي الوادي، يمنة ويسرة، بيوت خاوية، ومساكن صغيرة شائقة غائصة في لجة من الخضار النضير المكتسية به الحدائق الغناء الفسيحة الملتفة بها، وقد شملها الهدوء وطاب المقام بها فيذهب إليها المصطافون لاستنشاق زفرات النسائم العليلة والاضطجاع ساعة الهجير تحت أفياء أشجارها الفرعاء الوريقة الظليلة المزهرة المثمرة ...

وقد وضع تخطيط جديد لعدة مدن على امتداد السهل ورسمت بالفعل شوارعها الكبرى على نسق محكم، وأحياؤها الواسعة على أحدث طراز، والقائمون بهذه الأعمال الهندسية الجليلة هم مهندسو قسم الهندسة العسكري وضباطه، وكذلك يرجع الفضل في مد الخط الحديدي الممتد ما بين أنقرة وسيواس إلى علمهم الواسع المكين، وإلى مجهودات الجنود الذين واصلوا العمل في إنشائه مدة الحرب الكبرى، إلا أن هذا الخط لم ينته العمل فيه حتى الآن.

وجميع أهل أنقرة بل جميع الأناضوليين مزودون بعزائم ماضية لم يكن لهم عهد بمثلها من قبل، وبجلد عظيم على العمل وبميل شديد إلى الجهاد في سبيل الله والوطن، وبالثبات في مواطن القتال والصبر على المكاره، وبالجد للوصول إلى المقصد الأسمى، وهذه هي المزايا التي يتجملون بها جميعًا، والتي يرى المرء شواهدها في كل خطوة يخطوها ...

وعلى الرغم من كل ما يقال وما يكتب في أوربا فإنه لا يوجد أثر للأجانب في أنحاء آسيا الصغرى. ولم يتمش أي إيحاء غربي إلى هذه البقاع ليقوي الجبهة بوسائل عظيمة فائقة، بل لم تصل إلى الأناضول أية معونة مالية يراد بها سكب قليل من البلسم على الجراح الفاغرة المتوالي نزيف دمائها منذ أزمان طوال ... وهنا يجب التكرار بأن لا أثر البتة، مطلقًا، لأي تشجيع ولو كان وديًّا؛ فلم ترسل إلى أراضي الأناضول من وراء البحار سوى تلك المدافع، والطيارات، والسيارات، وعربات النقل، وسائر الأدوات الحربية التي تقوي معسكر العدو، بل ولا ذرة من العطف ولا خيال من العناية والاهتمام؛ فالعثمانيون محرومون من كل إشفاق حقيقي عليهم. وليس أمامهم سوى الصراع الساحق الذي لا رحمة فيه ولا ليان ولا إنصاف ... وفي غضون الفصول الزمهريرية والفصول الأخرى

المستعرة التي تكاد تزهق فيها الأرواح من الحر اللافح لم تمتد أية يد رحيمة إلى أولئك الذين ترتعد فرائصهم من شدة البرد، ويتحلّب عرقهم وتتفكك مفاصلهم من شدة الحر، وهم لا ينفكون لحظة عن قيامهم بالواجب بشجاعة نادرة المثال.

أجل لقد انصرفت الوجوه عن العثمانيين حتى لم يعد شخص محسن من أولئك الأبطال، الذين كانوا مولعين بمحبة الأمة العثمانية فيما مضى، يجرأ علي إنجاد أولئك الأبطال الذين لا يجد الفكر اسمًا جليلًا يطابق مجدهم العظيم ليطلقه عليهم. والذين سقطوا ببساطة ووداعة في ساحة الشرف من غير أن توجه إليهم جملة ثناء وإعجاب، ولو من قبيل تذكر العهد السالف، تلطف من آلام نفوسهم الحائمة فيما وراء القبور، وهكذا يذهبون بالآلاف من غير رحمة ولا عزاء ... بل من غير تذمر ولا شكوى! فمن ذا الذي إذن يعرف تاريخهم المحزن المؤثر في النفوس؟

«هل الأمة في خطر؟ ألا إننا لمنطلقون للدفاع عنها. فلتحيا الأمة!» هذا ما يتساءل به الجندي الأناضولي وما يجيب به من تلقاء نفسه على سؤاله! آه من ذلك التمالؤ القاسي المنبعث من جانب الصمت العميق!

إن الجمعية الوطنية تلتئم أحيانًا أربع مرات في الأسبوع، وفي الفترات التي لا تلتئم فيها قد تعقد جلسات خاصة للنظر والبحث في المسائل الهامة التي تستدعي سرعة الفصل فيها.

إن آسيا الصغرى المقسومة إلى خمس وستين محافظة تتمتع بالرخاء والرغد أكثر مما كانت متمتعة به منهما فيما سلف. وذلك لأن طريقة قسمتها إلى ولايات واسعة النطاق كانت تجعل إدارة البقاع الداخلة في دائرة كل ولاية عسيرة جدًّا.

وكل محافظ تساعده الآن لجنة مؤلفة من رجال فنيين يشتغلون بهمة ونشاط ينبغي أن يرفعوا تقاريرهم بنتائج أعمالهم إلى الحكومة المركزية في أنقرة.

وأقبل كبار الموظفين سابقًا في السلطنة العثمانية من حكام إلى مفتشين يعرضون أنفسهم على الحكومة، ليقوموا بواجب الخدمة الوطنية في دائرة اختصاصهم، فأسندت إليهم الحكومة مراكز عديدة كل بحسب استعداده ومقدرته.

وبينما كانت الجمعية العمومية ملتئمة في أحد الأيام إذا بأزيز محلقة يتعالى في الجو وهي حائمة فوق المدينة، ثم رؤيت وهي مشرفة من علٍ على دار الندوة، ثم أخذت تلقي أوراقًا موجه ما فيها من القول إلى الأمة، وإذا به يتضمن السلام على الأمة من

صاحب هذه المحلقة الذي يقدم اليوم محلقته الثانية هدية للوطن المقدس المحبوب مع تمني الفوز له. وعلم فيما بعد أنها هدية من أحد تجار صامسون. ولقد قوبل الضابط والميكانيكي اللذين يديران المحطة بالهتاف والتهليل لهما.

وفي كل يوم تشاهد وسائل الاهداء والحمية المبتكرة فتؤثر في النفوس تأثيرًا لا حدود له.

ولكن كل هذه الأدلة المحسوسة على الحمية والإخلاص وإن كثرت وتعددت ليست مع الأسف سوى رذاذ طفيف من الماء لا يطفئ غلة شعب كبير مضه أوار الظمأ ...

آه ما أعظم ما يفكر الإنسان ويتأمل أثناء اقامته هنا في أنانية الناس التي تجعلهم يقتصرون على محبة الخير لأنفسهم!

عندما تأزف ساعات الليل القصيرة الهادئة وتغرق المدينة في لجة السبات الوقتي، إذ ذاك تتمثل أمام الذاكرة حقيقة يجب ترديدها بسكينة تامة وبمنتهى الخفوت وهي: لو أن كل مسلم ذي نفوذ ومقدرة يعمل من الخير والإحسان في هذه الأوقات المضطربة العصيبة بقدر ما يفعله أخوه المتواضع المستور اسمه لوجد بالتأكيد من الأدوية ووسائل العلاج أكثر مما يلزم لإسعاف أولئك الجرحى المساكين، ولو وُجدت مآوٍ أكثر مما يقتضيه إيواء الأرامل والأيامى التي لا يحصى لها عدد، ولكانت غصص يتامى الحرب وآلامهم أقل بكثير جدًّا مما يعانونه الآن من اشتداد وطأة الضيق المستحكمة حلقاته على الوطن الرازح تحت كلاكل الأرزاء ...

وهذه هي المرة الأولى في تاريخ العالم الإسلامي، التي شوهد فيها أحداث سائر البلاد يلقون على كبار سائر الأمم دروسًا قيمة في الغيرة الوطنية وفي الحمية الدينية.

ولكن: «ليعلم الجهال أن أولئك الذين يعلمون يحبون أن يتذكر بعضهم بعضًا في كل حين.»[٢]

وفي الواقع يظهر أن كل أولئك الذين تجرعوا مرارة الألم البالغ لن يتناسوا طول حياتهم المصائب والأبؤس التي تقضي عهدها، لأن كأس الغصة فاض دهاقها على الثرى.

وفي ساعة الغروب حينما يكتسي الأفق ثوب الشفق يصعد سكان عاصمة البطولة والحمية سراعًا الربى المجاورة ويلبثون فوقها مدة وجيزة. وإنما يريدون بهذا المرتقى أن يصرفوا

---

[٢] كلمة قالها الرئيس هاينولت.

عن أفكارهم في سكينة المساء المسدل سجوفه تأثير الضجيج والحراك الدائمين في أنقرة المقدسة!

على أن هؤلاء القوم ليس لديهم من الفراغ ما يقضونه في التنزه هنالك تحت أشجار الحور الزاهية التي تحف جانبي الغدير الرائقة المتألقة مياهه الذي ينساب في جوف السهل الخضل حيث تنتشر الجماهير الجمة من السلاحف المشهورة، وهي تسير الهوينا متبطنة ضفة الغدير الرافلة في ثوبها الأخضر النضير.

إن الوقت ثمين وهو يمر مسرعًا، فمن الواجب العمل والاشتغال بدون انقطاع، لأن هذا المكان هو الذي يجب أن ينشئ فيه القائمون بمشروع مستقبل السلام الشرق الإسلامي بأجمعه.

الرسالة السابعة

أنقرة في ٤ مايو

لقد شخص الزعيم الأكبر منذ ثلاثة أيام إلى جبهة القتال حيث ينبغي أن يتلاقى هنالك مع عصمت باشا ورأفت باشا للفصل في مسألة توحيد القيادة.

وغادر قطاره الخاص البهي أنقرة في منتصف الليل، وصحبته ثلة من ضباط أركان الحرب، لأنه كان لا بد له من انتهاز هذه الفرصة للتفتيش في الخطوط المعرضة لنيران العدو. والسكينة التي كانت قد أعقبت الهزيمة اليونانية انتهت على ما يظهر. وبدأت الألسنة تتداول الروايات المختصة بالمناوشات الحديثة التي وقعت بين الطرفين، فكان هذا داعيًا لإنهاء القرار المتخذ من قبل، بعد تدبر وبحث طويلين في الحالة العامة، القاضي بوجوب الرجوع إلى قيادة وحيدة عليا. وهذه مسألة دقيقة وأمر عسير الحل لأن ذينك الرئيسين العسكريين قائدان عظيمان من ذوي الكفاءة السامية.

وكان وقود القطار الذي يقل مصطفى كمال باشا إلى اسكي شهر من الخشب. والقاطرة الألمانية الضخمة كانت تلتهم مقدارًا جسيمًا من هذه المادة الثمينة.

ولقد استغلت مناجم الفحم الحجري القليلة التي اكتشفت حتى الآن داخل البلاد أحسن استغلال، إلا أن محصولاتها لم تكد تكفي لإدارة المصانع التي تخرج الذخائر على اختلاف أنواعها[١] والمعامل الأخرى والآلات الميكانيكية المتنوعة، وكذلك سائر القطارات.

[١] لا يزال الجمهور يجهل الأماكن القائمة فيها هذه المصانع ومن المستحسن بقاؤها في الخفاء.

وعلى هذا شرعوا يستأصلون أشجار الغابات، ويحتطبون من تلك الأشجار الباسقات العقيقة المتخلفة من عهود بعيدة والتي لها منزلة عزيزة في القلوب، كما أنهم نسفوا جزوع الأرومات المكينة في جوف الغبراء بالديناميت.

وهذا هو السبب في رؤية الجنود على مقربة من الأجمات ومن المحطات منهمكين في نشر الأحطاب المخصصة للمدن.

وفي بعض الجهات لا ترى البتة آثار تلك الغابات العظيمة التي كان يؤمها ذوو الأفكار السامية والدراويش والشعراء من رجال العهد الغابر ليستكينوا إلى أفيائها، وكذلك أشجار السنديان الضخمة التي يلجأ إلى ظلالها الملطفة الداعية إلى الهدوء والراحة الموسيقاريون المطربة أصواتهم وآلات عزيفهم، مستافين عبق الربيع المنعش السليم من شوائب الأدران، ومسترسلين في نظم أشعارهم المرقصة المطربة الخالدة على مر الدهور.

كل ذلك من شأن الماضي ...

أما الآن فمن الواجب المجاهدة في سبيل الحياة، ولا بد من الرضا بتقديم الضحايا القيمة لأجل التوفيق في هذه المجاهدة! آه من تلك الكلمة الهائلة: الحياة ...

وهل يجوز للمرء بعد كل ما تقدم أن يستمطر تلك الإجماعات فيوض العبرات؟ إذن لا تبقى في المآقي مدامع كافية لإزرافها على حالة أولئك الذين كان يحبهم.

ما أكثر الأشياء الواجب تحقيقها منذ عهد المطاردة واقتفاء الأثر! إن الكنوز المختزنة في جوف آسيا الصغرى لكافية جد الكفاية بمفردها لإيفاء كل المطالب وسد كل أماكن الفراغ، ولكن ألا يقضي استخراجها من مكامنها أن تتوفر الأيدي العاملة وتتفرغ لها، ويظل العاملون هادئين آمنين متمتعين بقسط من الراحة ومن الرغد ليتمكنوا من المثابرة على القيام بأشغالهم النافعة؟

على أن الواقع المشاهد خلاف ذلك؛ فمنذ أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها وأبرمت الهدنة أصبحت هذه البلاد التعسة هدفًا لكل ضروب الشقاء والمحن التي ظلت تتابع بعضها أثر بعض منذ انزال الجنود الإغريقية في الثغور الأناضولية، إلى زحف القوى الإنجليزية حتى مرزيفون، وإلى احتلال الفرنسويين بالمثل عدة بقاع من سواحل البحر الأسود.

لقد تذوق الروملي فيما سلف طعم مرارات الحرب وفظائعها، وقد آن للأناضول أن يأخذ بنصيبه من هذه الأهوال الجسام. وبما أن هذه الإغارات التي قامت بها الجيوش

المتعددة لم تكن كافية للاقتصاص من هذا الشعب فلم يك بد من خلق المشاكل والقلاقل بين العناصر المتوطنة في البلاد العثمانية.

فنتأت فتنة الأروام الذين على الرغم من قلتهم التي لا تكاد تذكر أرادوا إلا أن يكونوا من أنفسهم دولة مستقلة منفصلة عن سواها في كل أمر.

بل لقد أدت الدسائس المبثوثة داخل البلاد إلى تشييع الطائفة العلوية أي الشيعة بروح العداء والانتقاض على دولتها.

وأدى الذهب المنثور جزافًا بين أيدي سكان قونية المساكين المأثور عنهم شدة الولاء للسلطان، والذين بحكم العادة المتبعة في مدينتهم ينضمون بأسرهم تقريبًا إلى الطريقة المولوية الموجودة تكيتها المشهورة هنالك، إلى ذلك العصيان المحزن.

ولم تغب عن البال قصة الجنود الأرامنة الذين احتشدوا في قليقيا وما نجم عن تجيشهم وتراميهم على مواطنيهم المسلمين ...

بيد أن كل هذه المشاغبات المتفرقة لم ترض أهواء أولئك الكائدين المحرضين، فصار من المحتم إثارة الاستياء العام وتعميمه في سائر بقاع آسيا الصغرى وإيصاله إلى أبعد أعماق القلوب، فأخذوا يبحثون عن أمر يزعزع الشعور العام بصورة جدية تكون مؤدية إلى انتزاع تلك الثقة العمياء التي يتجه بها الشعور العام إلى تلك المسألة المقدسة التي يدافع بعزم لا يغالب عنها.

وانتشرت حينئذ الدعوة المحرضة علنًا ضد الحكومة الوطنية لأجل مصلحة حكومة الأستانة العاجزة، التي شرعت تدافع بطريقة رسمية عن حقوق الخلافة، التي صارت مسلوبة منذ ابتداء الاحتلال الأجنبي. إن عاصمة الإسلام يجب قبل كل شيء أن تكون مستقلة. وبعيدة عن كل تأثير أجنبي.

فكان عمل الخصم في هذه المرة محكمًا باهرًا! وكانت طعنته نجلاء سديدة أصاب بها سويداء القلب، وإذا كان السهم المطلق مسمومًا فقد أحدث جرحًا مؤلمًا، إلا أنه لم يلبث أن اندمل وبرأ على توالي الزمن بعد أن برحت آلامه بفؤاد الأمة وقتًا قصيرًا.

وذلك أن بعض القبائل الشركسية المقيمة في دوزجة وفي خندق وفي أضه بازر صدقوا ما وسوس به الدساسون الأجانب في صدورهم من ألفاظ المكر والتغرير، فهاج عدد عديد من هؤلاء الصناديد المشهورين بقوة البأس في الملتحم مستجرين خلفهم جحافل من الفرسان المغاوير سلالة ذلك العنصر، الذي لا تلوى شكيمته، ولا يسلس قياده إذا ما ثارت حفيظته، والذي تعرفه أوربا حق المعرفة بفضل ما اختص به من

الذكاء النادر والسجايا الغراء والنفس الأبية العيوف، وبسبب المذابح الهائلة الخالد ذكرها التي اقترف فيها جنود القائد أفديكيموف الروسي سنة ١٨٦٤ «من أنواع المظالم والفظائع ما لم تجرأ الجيوش الوثنية التابعة للإمبراطوريين الرومانيين على إتيان ما يداينها أثناء مطاردتهم الشعب الإسرائيلي في فلسطين منذ ألفي عام.»

إن هذه القبائل ذات شعور ديني بالغ من القوة أقصاها وهم يدينون بالشكر العظيم للسلطان عبد المجيد الذي أقطعهم ولاية سيواس أثناء هجرتهم الرهيبة المفزعة، فاتخذوا منها وطنًا جديدًا لهم، وصار من ذلك العهد ارتباطهم بالسلطان الخليفة الذي يخلف منقذهم الجليل شديدًا إلى حد لا يمكن تصوره.

ومن هنا يتضح جليًّا أن ما يزجى إلى أفكارهم من الرغبة في انتقاص نفوذ السلطان الخليفة وانتزاع سلطته منه يبعث بلا شك على هياجهم ونفورهم. بل لقد ذهب الماكرون إلى أبعد من هذه الدسيسة موهمين هؤلاء السذج الأوفياء أن الجيش الوطني لا يحارب للحصول على استقلال البلاد التي يعتبر الخليفة ولي أمرها الشرعي، بل لما هو بعيد عن ذلك بالمرة، أي لإسقاط الخليفة نفسه، في حين أنه الرئيس الاسمي لسائر جيوش الدولة، وفي حين أن اسمه لم يزل إلى هذه الآونة مذكورًا بالتجلة والإكرام في جميع المساجد …

إن مسـألة هياج الشراكسة مؤلمة جدًّا لأنهم هم الذين في مفتتح الحركة الوطنية قاتلوا الأغارقة تحت رئاسة أدهم بك وتغلبوا عليهم في عدة وقائع.

وهذا المحارب الشجاع قام بأعمال خارقة للعادة مستعينًا بامرأة مقدامة اسمها عائشة شاووش، كانت قد فقدت زوجها في الحرب، فأشعلا نيران الحماسة في نفوس القرويين الذين تحمسوا فحملوا السلاح وانطلقوا إلى منازلة العدو المغير على أرض الوطن.

وعلى إثر ذلك أصبح أدهم من كبار الأبطال وصارت شجاعته المثال المحتذى وأحرزت إعجاب الناس جميعًا.[٢]

وظلت عائشة شاووش تجاهد إلى أن تم احتشاد الجنود النظاميين.[٣]

[٢] من سوء الحظ أنه غير مبدأه، وتقلبه الذي لم يكن منتظرًا محا مفاخره الأولى. فهو الآن رجل وضيع آبق، وكل ما أردناه من الثناء العاطر عليه إنما يرجع إلى ما قام به قبل عهد تلونه وانحطاطه من جلائل الأعمال.

[٣] هي امرأة قصيرة القامة ذات وجه بشوش جذاب إلا أن دلائل التألم تلوح عليه، وقد آلت على نفسها أن تنتقم لوطنها ولزوجها الذي كانت تحبه إلى درجة العبادة. وبما أنها بلغت من خفة الحركة والجرأة

وهي الآن ممرضة في أحد مستشفيات أنقرة ...

توجد شئون سامية مرتكزة على الروية والحكمة لم يدرك حقائقها الملحدون إلى الآن، فمن هذه الشئون مسألة الخلافة المتناهية في الدقة وفي الاعتياص. وذلك لأنها ترجع إلى حكم ثلاث مئة مليون مسلم منتشرين في كافة أنحاء الكرة الأرضية لا إلى إرادات الحماة الأجانب الذين يحتلون القسطنطينية.

إن السلطان الخليفة الذي يعتبر من الوجهة الشرعية الرئيس الأعلى للجيوش، التي تجاهد في سبيل الاستقلال، لا يعدو كونه جزءًا غير منفصل من الدولة العثمانية السليمة من كل اعتداء عليها المتمتعة بحريتها واستقلالها.

فإذا ما شجر خلاف بين ولي الأمر ورعيته، أو وجد سوء فهم بينهما فللشرق وحده حق السعي في إزالة الجفاء أو تسوية الخلاف.

وإذا لم يعرف فرد من سلالة الغازي عثمان الأول في أحرج الأوقات التي عهدت في تاريخ بلاده أن يكون على أتم وفاق مع نخبة أمته الذي يعتبر قلبها الخافق، أو إذا لم يجرأ على مساندتهم في الوقت الذي يقتضي المعونة.

فهل يجوز أن نتناسى أن الخلافة غصن لا ينفصل من شجرة أنساب العثمانيين الذين بمجازفاتهم وتعرضهم للأخطار عرفوا كيف يدافعون دفاعًا مجيدًا مدة سبعة قرون عن علم الرسول المقدس؟

فلا يجب إذن إدخال أصبع أجنبية بين لباب الشجرة ولحاها.

وبعد انتهاء الهياج الشركسي أقبل جاسوس سري هندي إلى آسيا الصغرى بقصد إحداث اضطرابات أخرى فيها، إلا أنه لم يجسر على إتيان ما أوفد لأجله، سواء أكان ذلك من جراء الوسائل الشديدة المتخذة في هذه البلاد وخوفًا من العقاب الصارم، أم من دهشة من عظم الرقي والنظام اللذين تمشت بهما الحركة الوطنية في شرايين البلاد بسرعة مدهشة، على الرغم من المحن المتوالية عليها. وعلى كل حال فإن مرسلي هذا الرجل

وإصابة المرمى مبلغًا ليس وراءه مطمع، فقد صار اسمها علمًا مشهورًا على الشجاعة في كل مكان من آسيا الصغرى. وأخذ الناس يقولون عنها: «إن كل رصاصة تخرج من بندقية عائشة شاووش تذهب بروح رجل من الأعداء.» وقد كونت لها عصبة صغيرة من الأبطال المتطوعين وأخذت تغير بهم على العدو بدون تراخ. وفي كل إغارة تحرز إكليلًا جديدًا من الانتصار، من كل حملة تحملها إلا وهي مستولية على مقادير من الأسلحة والذخائر والأدوات الحربية الأخرى التي تنتزعها من الأروام المهزومين.

قد أخفقوا في اعتمادهم عليه، فهل كان توقفه ناجمًا عما ألم به من وخذ الضمير، أو كان خشية من العاقبة؟ ذلك ما لا علم لأحد به، ومن ذا الذي يستطيع إيضاحه؟

ولقد كانت نهاية كل دسيسة على هذه الشاكلة، وهي الإخفاق قبل إحداث الأذى المرغوب.

وعلى إثر ذلك أوحى الماكرون إلى ذلك الرجل الخسيس المعتبر عارًا على العالم الإسلامي مصطفي الصغير المجرم الكبير بأن يضطلع بأفدح تبعة يتحملها عاتق إنسان، وهي طعن الوطنية العثمانية في لبتها طعنة قاتلة.

وأن دسائس هذا الصغير الساقط في مصر، وفارس، والأفغانستان والسلطنة العثمانية، واعترافاته الهائلة أثناء قضيته التي اشتهر ذكرها في سائر الأقطار ... وخطة الاستعمار الإنجليزي الذي هتك ستارها هذا الجاسوس نفسه الذي باع ضميره وحياته بأبخس ثمن لتنفيذها، كل هذه الأمور أصبحت معلومة للجميع وقد خاضت فيها الصحف طويلًا حتى صار ترديد صداها في هذه الأوراق عديم الجدوى ...

«إن النفس لتضطرب هلعًا عند تحريك هذه الذكريات.»

أعداء في الداخل، وأعداء في الخارج، فما هي القوة المحركة الكامنة في هذه الأمة[٤] التي تستطيع المثابرة على الجهاد مع تلك الأهوال كلها!

وآب الزعيم الأكبر من سفرته.

ويقصون من أنباء رحلته إلى الجبهة أنه حينما أوضح للقائدين الغيورين عصمت باشا ورأفت باشا الضرورة القصوى التي تقتضي توحيد الرئاسة في ميدان القتال أظهر كلاهما في وقت واحد، بدافع وجداني وبحمية باهرة، رغبته في التخلي عن مركز القيادة، وأظهر إعجابه بقرار المجلس الأعلى المشتمل في آن واحد على الحكمة والبراعة في الفن العسكري. وأمام هذه الصفة الجليلة، صفة التخلي عن الأنانية، ارتبك الزعيم الأكبر وحار في الأمر وطفق يكرر الرجاء على كل واحد منهما بتولي الرئاسة العليا على جيش الجبهة،

[٤] كل هذه الشئون المسرودة بإيجاز نتخلص منها خلاصة الجهاد الوطني في سبيل الاستقلال منذ التوقيع على شروط الهدنة.

في حين أن الآخر سيذهب معه إلى أنقرة ليشترك معه في إدارة كل ما يهم من شئون البلاد، وهو عمل يوازي في خطارة شأنه مهمة رئاسة الجيش المقاتل.

وأخيرًا قبل عصمت باشا أن يستقر مع الجيش في الجبهة كما استقر رأي رأفت باشا أن يذهب إلى أنقرة، بعد تسليم كل ما كان في دائرة إشرافه إلى خلفه.

وحينئذ تقدم إليهما الزعيم الأكبر وأهوى عليهما معانقًا ومقبلًا وهنأهما على ما أوتيا من سعة العقل وعظم النفس. وبهذه الطريقة البسيطة انحلت هذه المسألة التي كان المظنون فيها أنها ستصير في غاية الصعوبة والتعقد.

والفضل في تسهيل هذه المهمة على الزعيم الأكبر يرجع إلى سمو نفسي هذين القائدين الجليلين.

الرسالة الثامنة

أنقرة في ٧ مايو

لقد تم الاحتفال العظيم المقام للألعاب الرياضة في الساعة الثالثة بعد ظهر الأمس، وكانت قد أرسلت لأجل مشاهدته أوراق الدعوة منذ عدة أيام مضت إلى عدد جم من المدعووين.

ولكن أفكان هذا احتفالًا رياضيًّا أم اجتماعيًّا وطنيًّا؟

يلوح أنه جمع بين الأمرين معًا، لأن الجمهور أظهر اهتمامه واشتراكه وتحمسه للألعاب وللتمرينات وللملاهي وللأغاني التي تفننت فيها زهرة الشبيبة المجتمعة بأسرها تمت في ذاك اليوم المشهور.

لقد بدت أنقرة في أبهى حلل الاحتفال، واختفت من وجوه الحاضرين دلائل الهموم والأوصاب المتراكمة كل يوم على سكان هذه المدينة اختفاء وقتيًّا.

وبدت على الجمهور الذي يسلك الطريق العسكرية المعارضة للطريق المؤدية إلى دار الندوة سيما الفتوة والنشاط.

وأخذت المركبات والفرسان والمشاة بعضها إثر بعض بغير انقطاع، وكان من أبهج ما يسر النظر من هذه المرائي الجمة تعدد الثياب المدنية، والملابس الرسمية المختلفة أزياؤها وألوانها زاهية على أجساد الآلاف المحتشدة من سائر العناصر، وقد تمازجت وتألفت منها مجموعة بديعة تتألق تحت أشعة الشمس المتلألئة.

وقبل الوصول إلى الساحة الكبرى المحدقة بمدرسة الزراعة يعبر الذاهب جسرًا، ثم يمر أمام أجمة صغيرة منبسطة على أبدع نسق وممتدة على إحدى ضفتي رافد من فروع سقارية، التي يشرف عليها المعسكر العام للفرقة القائمة بحراسة ضواحي المدينة.

ورئيس هذه الفرقة ضابط نادر المثال في الكفاءة الفنية وسعة العقل، وقد حارب في سائر الجبهات، كان واقفًا أمام معسكره يرى هذه الأفواج المتقاطرة، ويحيي أصدقاءه الذين يمرون أمامه ببسمته الممزوجة بالطيبة الوديعة، وهو رجل مشتهر بالعزم والصرامة، ومع أنه عطوف على جنده إلى الدرجة القصوى، إلا أنه لا يسمح لأي فرد من الجنود الداخلين تحت إمرته أن تبدر منه بادرة من الإهمال، ولأجل هذا فإن معسكره أصبح نموذجًا بين سائر المعسكرات، إذ تسود فيه الطاعة والنظام والنظافة التامة.

وعندما يشرف المرء على معسكره يجد ارتياحًا في رؤيته مضاربه البيضاء الصغيرة منتظمة على نسق هندسي وناهضة باستقامة بديعة.

ولقد يسمع الإنسان من يقول له: لا يدري الطبيب العسكري إذا كان له عمل يؤديه في معسكر القائمقام ك ...» لأنه على ما يؤكدون هو الذي يُعْنَى بتمريض جنوده في حالة المرض، وهذه الحالة على ما يظهر نادرة الحدوث بالنظر لتشديده في مراعاة القواعد الصحية التي يفرض على جنوده اتباعها.

وهو لا يغادر مسكنه العام طرفة عين، فكأنه ديدبان في مخفره أو ربان في سفينته، وهذا هو السبب في مشاهدته واقفًا أمام معسكره في هذا اليوم السائد فيه روح الابتهاج الوطني، والشمس تلفحه والعرق يتصبب من جبينه على إثر الجهد الذي بذله في عمله الموصول، وحوله ضباط يحتذون مثاله، فهو رمز القيام بالواجب على أتم ما يكون.

وظلت الطريق في امتدادها محفوفة بربوات مكسوة بمضارب بيضاء صغيرة، فالجنود متتابعة في كل مكان كأنها أمواج متلاحقة ...

ثم بدت على الجانبين الحقول التي يقوم بالأعمال التمرينية فيها طلبة المدرسة الزراعية، وأخيرًا لاحت الساحة التي تشبه نصف الدائرة، والتي عنيت حكومة أنقرة بتغيير معالمها وترتيب شكلها مستفيدة من موقعها الطبعي المحفوف بالذروات، فجعلتها على شكل مجمع مدرج قد أحكم نظامه جد الإحكام.

وقد وضعت مقاعد خشبية مستطيلة على يمين المكان المودعة فيه أدوات ومخزونات المدرسة، وعلى هذه المقاعد جلست المتفرجات من ذوات المنازل السامية، وأما ذوات المآذر

من سائر الطبقات المختلفة وبينهن أمهات الموظفين ونساؤهم وبناتهم، فمنتشرات خلف تلك المقاعد الخشبية في المدرجات الطبيعية المستديرة في سفوح الربوات بشكل بهيج يجعل هذه الساحة أشبه بتياترو من ملاعب الأعصر الخوالي.

وتنهض قبالة المقاعد المخصصة للسيدات الراقيات مدرسة الزراعة على بقاع من الأرض، وهي مشرفة على سائر المتفرجين، وكذلك على المضارب الكبيرة المنصوبة لإيواء المدعووين ولذوي المقامات الرفيعة. ومضرب الحكومة قائم في آخر المضارب وهو مجاور للموسيقى العسكرية.

وما أزفت الساعة الثانية والنصف حتى كانت الأماكن بحذافيرها مشغولة بزمر المتفرجين، والبوليس منتشر في هذا المجال الرحب يحافظ على النظام والسكون التام.

وظل الجميع ينتظرون مجيء الزعيم الأكبر.

ولكن قبل تمام الساعة الثالثة أقبل ضابط من حجابه موفدًا من قبله لإهداء تحياته إلى جميع المشرفين، والاعتذار عن عدم حضوره بما ألم بصحته من الانحراف القليل الذي حال دون تمتعه بمشاهدة الألعاب والتمرينات المنتظرة.

حينئذ عزفت الموسيقى لحنًا حربيًّا، ثم ابتدأ عرض تلميذات مدارس البنات. وتتابعت مدارسهن من ابتدائية إلى ثانوية فعالية بمراعاة الترتيب، والتلميذات يسرن رباعًا مشية معصومة من الخلل، وصغرياتهن يرتدين ثيابًا بيضاء متشحات بأوشحة حمر، وأما الكبيرات منهن وهن اللواتي يسترن شعورهن تبعًا للعادة بشفوف بيضاء، فيلبسن أثوابا ناصعة بالمثل ثم تجيء طالبات المدارس العالية، وهن اللواتي سيصرن معلمات في المستقبل. ومشيتهن اللدنة الخفيفة. وبهاء الهندام الممتازة به ملابسهن الوطنية ذات اللون الأسود وخمرهن الرقيقة المسدلة على وجوههن الصباح، المرتسمة عليها ملامح العزم، اجتذبت إليهن أبصار الحاضرين جميعًا، وسرن حتى انتظمن صفوفًا مواجهة إلى الطريق، تحدق بهن تلميذات أخريات والباقيات انشطرن إلى قسمين، فتألف منهن جمعاء، وهن قبالة المتفرجات الجالسات فوق المقاعد الخشبية، الهدف الذي تتجه إليه الأنظار.

ثم مر تلاميذ مدارس الذكور الابتدائية، وكانوا كذلك مرتدين ملابس بيضاء وحاملين في أكفهم رايات عليها شعار مدرستهم، وأمامهم علم مكتوب عليه اسم المدرسة بأحرف كبار، وعلى إثر هؤلاء أقبل طلبة المدارس الثانوية، فالمدارس العالية، وهم مشتملون بألبسة من الخاكي وقلانس (قلابق) من الخاكي بالمثل.

وبعد هذا الاستعراض مر طلبة المدرسة الحربية مرتدين الملابس الرياضية، وفي الحال أخذوا يترنمون بنشيد وطني، وهذا معناه:

«المجد للوطن المحبوب، ولتحيا الأمة التي تفتخر بأننا أبناؤها، والتي أقسمت أن تحيا محتفظة بشرفها. وماذا يهمنا من أمر الضحايا والمحن التي تصيبنا نحن الذين ازدرينا بالموت؟ إلى آخره.»

وقد قوبل هذا النشيد بالتصفيق الحاد. واشتد تأثر مندوبي الأفغان وفي مقدمتهم سلطان أحمد خان من سماعه.

وكان هؤلاء المندوبون جلوسًا بجانب هــ. زاده في فسطاط الحكومة مكونين المجموعة الوحيدة من وجهاء المدعوين القادمين من مختلف الأمصار الإسلامية. وقد بدت أدلة الارتباط المتين الذي يصل بين قلوبهم وقلوب إخوانهم العثمانيين مرة أخرى من خلال التأثر الذي ظهرت عليهم آثاره في الحال عند سماعهم هؤلاء الحماة الفتيان وهم يترنمون بمجد الوطن وحياة الأمة!

وفي أثناء الاحتفال أقبلت مدام جوليس فخف في الحال وزير الخارجية بكر سامي بك لملاقاتها، وكذلك نهض الوزراء والنواب ومندوبو الأفغان وهــ. زاده لاستقبال هذه السيدة الجليلة زهرة فرنسا العاطرة، التي وافت من بلادها، والابتسام بين شفتيها والحنو يملأ جوانحها، حاملة إلى الأمة العثمانية مسحة من الرجاء ومن التهلل والانتعاش.

وكانت هذه السيدة الأديبة الشهيرة رافلة في حلة بديعة الرواء سوداء اللون، جالبة معها ما لا يمكن التعبير عنه من الرقة والكياسة والشمائل اللطيفة التي تنشر في هذا المكان نفحات باريس نفسها.

وبعد أن تحادثت قليلًا مع سلطان أحمد خان، تعرف بها هــ. زاده وأعرب لها عن ابتهاجه برؤيتها في أنقرة.

وكان يحيط بها كل أولئك الذين سحرت ألبابهم بذكائها الباهر وأدبها الغض، وقد ساد الوئام التام على كل أولئك الأشخاص، الذين بما أظهروه من الاحتفاء البالغ بهذه السيدة الفاضلة إنما يريدون أن يظهروا وهم في أقصى الأناضول مقدار ارتباطهم بفرنسا وميلهم إليها، بمناجاتهم ممثلتها لديهم بآرائهم وآمالهم في جمل مصقولة من تلك اللغة البديعة المحبوبة لدى الشرقيين حبًّا جمًّا.

وما كان أعظم تحاشيهم الخوض في سوء التفاهم الناجم عن مسألة قليقيا وحملتها المقرونة بالإخفاق والمؤدية إلى نكبة فظيعة! وقد تمثلت لعيني هذه الزائرة الظريفة

الحاذقة المقرونة نظراتها بالرفق والعطف في هذا اليوم الممتاز بالاحتفال الوطني الباهر حقيقة الأمة العثمانية في أمجد مظاهرها ...

وانتهت حفلة عصر هذا اليوم بتوزيع الجوائز على مستحقيها بمعرفة المحكمين.

وقد عرضت أشغال التلميذات المقدمة من مدارس البنات وكانت مستوجبة للإعجاب بها والثناء على صواحباتها البارعات، وعلى عناية هذه المدارس بالتثقيف والتدريب.

ثم توالت المسابقات في سائر أنواع التمرينات؛ من حركات عضلية سويدية، إلى ضروب من الوثب، فأجناس من الركض وهلم جرًّا.

وكان البرنامج طويلًا ولذا ظل الاحتفال إلى منتهى الساعة السادسة. وكان الهتاف عند الانتهاء فوق العادة. وكان الحبور واضحًا على كل وجه، وكل الذين رأوا هذه الشبيبة الناضرة وهي تقوم بهذه الأعمال المدهشة اطمأنت قلوبهم على سلامة الأرض المقدسة بهمم هؤلاء الناشئين البارعين أبطال المستقبل!

وكان الإياب إلى أنقرة شيقًا بديعًا في وسط المركبات والفرسان والمشاة التي لا يحصى عددها ... وصح النسيم المروح عن النفوس بزفراته الرطبة الخفيفة، والابتهاج الوقتي السائد على هذا الجمهور الحزين المتدثر بأثواب الحداد ارتسم على الشفاه المفترة في شكل ابتسام لطيف.

الرسالة التاسعة

أنقرة في ٩ مايو الساعة ٦ مساء

لقد وافت في مساء الأمس ليلة التقى والعبادة، تلك الليلة المنتظرة بنافد الصبر، فإذا بالمدينة الحربية تحولت إلى حال آخر، إذ أمست أنقرة فجأة عاصمة الصمت الشامل.

فالجمهور الذي يسير في الطريق ملتزم جانب السكون ومستغرق في تأملاته العميقة، والأشخاص الواقفون على سكفات أبوابهم والمطلون من النوافذ المفتحة لا يكادون ينبسون ببنت شفة.

فالهدوء التام شامل سائر أرجاء المدينة، وكل امرئ يشعر في نفسه بأنه مغمور بعاطفة تقوى وورع.

وبينما المدينة وسكانها على هذه الحالة إذا بدوي مدفع يتماوج في الجو صادرًا من الوادي، فأخذ الشعب القلق الذي كان ينتظر هذا الإعلان المؤذن بهلول شهر رمضان يصغي، وهو متأثر بعاطفة الابتهاج، إلى طلقات المدفع حتى اكتملت إحدى وعشرين طلقة قاصفة كالرعد من بعيد.

وعلى إثر ذلك حدث تطور مفاجئ، إذ تعالى من كل الأنحاء تكبير عام، واشتدت حركة الناس في الشوارع ذهابًا وإيابًا مهنئًا بعضهم بعضًا، وانسابوا إلى المخازن والحوانيت التي أعيد فتحها على عجل.

لقد أقبل رمضان! شهر الزهد والصيام وإراحة الجوف والإحسان.

وأخذت المدينة التي اعتادت منذ زمن طويل على الانغماس في بهمة الظلام عند حلول الليل تنقشع عنها غياهب الدجى شيئًا فشيئًا، وتتجمل بالأنوار التي أخذت تتابع

في الظهور بالتدريج، إذ بدأ الضوء ينبعث من النوافذ، وكلما زادت البيوت تألقًا بالأنوار اشتدت حركة الناس. وأخذ لفظ الجلالة المتردد في كل فم بصوت جهوري يرتفع في فسيح الجو حتى تعالى من أعالي المآذن المشرقة بالأنوار فوق مساجد أنقرة المقدسة.

فالقوم الآن ليسوا في حالة حرب، بل في حالة ورع وعبادة.

وبعد منتصف الليل أطلق مدفع حسب العادة إيذانًا للناس بالتأهب لأكلة السحر، وعلى إثر دوي المدفع أخذت نقرات الطبول تسمع مدة وجيزة في سائر أحياء المدينة في آن واحد.

فأدى هذا إلى إشراف الناس من نوافذ البيوت الصغيرة المضاءة، والسائرون في الشوارع والأزقة وقفوا بالمثل ليستمعوا، وذلك لأن حملة الطبول أخذوا يوجهون إلى جميع الأهالي ألفاظًا مثيرة للنفوس وداعية إلى التقوى.

وهذا ما كانوا يقولونه:

أيها المسلمون المؤمنون بما جاء به محمد والأمناء على شريعته والذابون عن بيضة الإسلام، تيقظوا فإن غدًا رمضان! وتذكروا أننا لا نزال في حالة جهاد، وهذا هو السبب في أن الطبول تقرع الآن لتدعوكم إلى طعام السحر. ولا تغفلوا عن ذكر الله لكي يتذكركم هو بالمثل في أشد أوقات آلامكم، وتمسكوا بعروة الدين الوثقى لأن مجد الإسلام الباهر متوقف على شدة تمسك المسلمين بتعاليم هذا الدين الحنيف، وأعدوا أنفسكم لصيام الغد، وعندما تستشعرون وطأة الطوى والظمأ تذكروا آباءكم وأولادكم وإخوتكم وبعولتكن، الذين يجاهدون دفاعًا عنكم وإنقاذًا للأرض المقدسة، وهم معرضون أنفسهم لنيران العدو وغير متمتعين بالمأكل والمشرب. إنهم يجاهدون هنالك ليمكنوكم من القيام بفروض العبادة المقدسة، فلتبتهلوا في صلواتكم لحماة الوطن المحفوف بالخطر. ولا يغفل المعافى منكم من الصوم احترام شعور سواه. فليقدر الله النجاة لهذا الوطن المتأصل حبه في أعماق قلوبنا، وليمدد أبطالنا الغزاة بالقوة التي تتيح لهم النصر المبين.

إن الله عظيم قدير فلنثق برحمته العظمى، إنه سيؤيدنا في هذه الأوقات الحرجة التي نجاهد فيها بأنفسنا وأموالنا لأجل سلامة الإسلام.

فطفقت النساء تنتحب، ورفع العابرون في غلس الليل أكفهم إلى قبلة الدعاء يبتهلون إلى الله بصوت جهوري.

ولا بد لمن يريد العلم بحقيقة الشعور المستولي على نفوس الأهالي في آسيا الصغرى أن يرى بعينيه منظر هذا الدعاء الحار الصادر من قرارات النفوس.

وبعد انتهاء الساعة الثانية من الفجر دوت طلقة أخرى من المدفع مؤذنة بحلول ساعة الصيام، فأخذ المسحرون يطوفون ثانية بطبولهم قارعيها ومرددين الجملة الآتية: «ناموا أيها المؤمنون الأتقياء وثقوا بالله فإنه يحفظكم من كل مكروه.»

وبعد مضي بضع دقائق أخذت المصابيح تخبو بعضها إثر بعض، واختفت الدوائر المضيئة التي كانت ملتفة حول المآذن، وساد الهدوء كل مكان، فانغمست أنقرة المقدسة في لجة السكون العميق.

وفي الساعة الثانية من بعد ظهر هذا اليوم ذهب هــ. زاده إلى دار الندوة قاصدًا أن يهنئ الزعيم الأكبر بشهر الصوم لأنه كان هنالك.

دار ندوة أنقرة ... هو المكان الذي استنفد مقدارًا عظيمًا من المداد منذ تأسسه، وما هو إلا عمارة في غاية البساطة، ومع ذلك فلا يلجه المرء إلا وهو مستشعر عاطفة الاحترام والتكريم بقدر ما يتراءى مهيبًا جليلًا إزاء أبصار أولئك الذين يعرفون تاريخ إنشائه المؤلم.

لقد نهضت نفس الأمة الثابتة الجريئة هنالك في ذلك المأوى الوقتي[1] الذي تحيط به حديقة وديعة — لا يزال العمل متواليًا في إعدادها — ويشرف على الشارع الكبير وعلى متنزه البلدية.

إن برلمانات سائر الدول الكبرى ذات المظاهر الفخمة لا يمكن مضاهاتها بالتأكيد بهذا المأوى الذي ليس له أدنى رواء، وليس له في الداخل مظهر لائق.

نعم لا يمكن أن تقاس بهذا المكان الصغير الذي لا يكاد يسع أسرة صغيرة إلا بعناء، لأنه مصدر أعظم القرارات والأوامر، ولأن ثلاث مئة مليون مسلم وضعوا آمالهم

[1] مأوى وقتي ... أجل وقتي لأن مسألة اختيار عاصمة أخرى للسلطنة العثمانية عرضت بعد الحرب. فأية مدينة تصلح لأن تكون عقل هذه الأمة؟ أنقرة: أم قيصرية؟ أم سيواس؟ من ذا الذي يعلم ذلك ...

وعلى كل حال فإن المدينة التي ترجح كفتها في ميزان الاختيار هي التي ستصير العاصمة، وبالنظر لما يتوفر لتفضيلها من الميزات الفنية العسكرية ستؤثرها الجمعية الوطنية والمجلس الأعلى على سواها.

ومن الواجب أن تكون دوائر الحكومة في اطمئنان وفي مأمن من كل عدوان ومن إغارات المغيرين ومن كل احتلال ومن تسلط مدافع العدو عليها من غير إنذار.

وقد وضع المشرع بالفعل، وهو الآن في معرض البحث والاستقراء، ولا بد لهذه العاصمة الجديدة أن تكون مرضية تمام الإرضاء من الوجهات الاقتصادية والحربية والصناعية وسواها، فالعاصمة الجديدة للدولة العثمانية المفكرة العاملة ستكون مدينة حديثة الطراز، مشيدة على ترتيب محكم جامع موافق للعمل والعلم والرقي بكل ما يشتمل عليه. أما الأستانة فستظل العاصمة الخالدة التي يستضيء بها الإسلام، وستحافظ على ماضيها المجيد مطهرة بالدم وبمدامع المسلمين الذين يكرمونها. إن الأستانة ذات المساجد القيمة، والينابيع العذبة المتصلة بالأنابيب البديعة المدهشة ذات القباب النادر وجود مثلها، والقصور التاريخية والآثار المتخلفة من عصر العظمة التي لا تنسى، والتذكارات الباهرة المنوهة بجلائل أعمال الأبطال ذووي الهمم الشماء، والأضرحة الفخمة وأماكن التصورات والأحلام وصبابات الهيام، وجمال الطبيعة الأبدي، أجل إن الأستانة التي أبدع في وصفها توفيق فكرت لا يمكن أن لا تظل جزءا غير قابل الانفصال من الدولة العثمانية التي لا تزال تجاهد لتحرير نفسها من كل نير، وذلك لأن هذه العاصمة تخص العالم الإسلامي بأسره وتعتبر شارته، بمقتضى الأحكام الشرعية والأدلة المعقولة الجوهرية.

إلا أن هذه المدينة الخلابة الناهضة بين بحرين، والتي تشبه حجرًا كريمًا في خاتم أثري بديع الصنع كما نعتها الغازي عثمان الأول، لا يمكنها أن تدافع عن الغرض الأسمى للعالم الإسلامي لأنها دائمًا مطمح الأبصار ... وألا يكفي حرج مركزها هذا من ألا يظل نواب الأمة تحت طائلة القبض عليهم في أثناء التئام البرلمان، وكذلك لكي لا تصاب البلاد مرة أخرى بالشلل.

في جميع أعمالها الاقتصادية، أفلا يجب لأجل كل هذه الأسباب اتخاذ الوسائل الواقية من كل مباغتة فاجعة كتلك التي حدثت من قبل؟

في حمى هذه العمارة العثمانية البسيطة، وعلى بساطته هذه فإن المرء لا يتمالك نفسه عندما يجتاز أسكفة الرتاج، حيث يلقاه رجال الشرطة فاحصين مستنده الخاص ثم يتمشون به إلى الرواق الوحيد المفضي إلى صفين من الغرف.

والغرفة الأولى من الصف اليسار مخصصة للزعيم الأكبر وأثاثها بسيط لا يتعدى مكتبًا متسعًا حافلًا بالأوراق الرسمية ومقاعد وثيرة وكراسي مكسوة بالجلد الأسود. وأرض الغرفة مغطاة ببساط شرقي. وهذه هي البساطة الإسلامية.

وعندما أعلن قدوم هـ. زاده نهض الزعيم الأكبر وهو يتحادث مع الوزراء ورجا منهم على الأثر أن ينتظروا في غرفة أخرى. وببشاشته المعتادة استقبل هـ. زاده الذي هنأه بحلول شهر الصيام المبارك. وكانت في يده سبحة من الكهرباء (الكهرمان) ولم تكن بادية على وجهه في هذا اليوم سيما البطولة الحربية، بل تبدو عليه مظاهر الخشوع والعبادة.

وقال: «لنرج من فضل الله أن يجعلنا في مثل هذا اليوم من العام المقبل متمتعين بالحرية والاستقلال، وأن ينسى العالم الإسلامي أجمع هذه الأوقات العصيبة، وأن يمن عليه بحياة سعيدة في عهد سلام ورفاه.»

ففي هذه الغرفة التي طالما تراكمت فيها الهموم والكروب منذ أن بدأ قلب الأمة يتحرك شرع الآن الزعيم الأكبر يتكلم عن الرجاء متطلعًا إلى المستقبل بعين ذات نظرة جديدة.

وبعد قضاء ساعتين ونصف ساعة في محادثة دائرة على انفراد وبأصوات خافتة نهض هـ. زاده محاولا الاستئذان من الزعيم الأكبر في الأوبة إلى أوربا لأن مهمته التي جاء لأجلها قد انتهت.

فقال مصطفى كمال باشا:

> حسن سأرسل إشارة برقية إلى ممثل حكومتنا في روما لإعلامه بعزمك على الإياب. ولكنك قبل ارتحالك ستجيء إليّ، وثمت نتكلم معًا بتوسع وحرية تامة بضع ساعات في تلك الدار الخلوية الصغيرة، أما زيارتك إياي هنا فليست سوى مقابلة رسمية. وأما في تشان قايا فستكون زيارتك ودية بحتة. وفي الساعة الحادية عشرة من صباح الغد ستكون سيارتي متأهبة لحملك إلى الباغ.

وأمام مكتبة على يمين الطرقة المستطيلة يوجد كتبة أسرار صغار وصف ضباط مراسلات يتحادثون، وهم في انتظار ما يصدر إليهم من الأوامر في غرفة فتح بجانبها الكاتب الأديب الشاب روشان أشرف بك بابًا مؤديًا إلى بهو. وهو الذي يجتمع فيه النواب أي بالإيجاز دار الندوة، ففي هذا البهو يوجد المنبر الشهير الذي تلقى منه الخطب الحماسية الملتهبة على الأمة، ثم تتراءى حوله خمس مجموعات من المقاعد الخشبية المتدرج بعضها فوق بعض، وفي هذا المكان تلتئم الجلسات، وفيه يتباحث النواب ويتناقشون.

ولقد صار الإصغاء إليهم عدة دقائق بإنعام تام، وكان يوجد بين الحاضرين أناس من كل العناصر وكل المذاهب ومن مختلف الأعمار، والملابس متنوعة الأزياء والألوان، والألبسة الرسمية مراعاة فيها الدقة، وثياب رجال الدين فضفاضة ضافية وعلى رءوسهم عمائمهم الخضراء والبيضاء والقلانس والقولاهات، فهذا الخليط الممتزج يمثل الأمة العثمانية التي تريد الحياة.

وفي هذا المكان يحتشد بالمثل أفراد من جميع طبقات الهيأة الاجتماعية وذوي المهن، فمن كبار الموظفين والوجهاء، إلى ماليين إلى ضباط، إلى مهندسين، فصحفيين، فمؤلفين، وقد ربطت قلوب الجميع رابطة واحدة محكمة.

ومن سوء الحظ أن النهار أوشك أن يولي ولا بد من مغادرة هذا الملاذ الذي يلتف حوله عدد عظيم من العقول الكبيرة.

ويكاد يكون عدد النواب ثلاث مئة وخمسة وثلاثون وهم الذين يؤلفون دار الندوة التي لها حق وضع القوانين وتنفيذها.

وللمجلس الكبير نائبا رئيس ينتخبان بالاقتراع من بين أعضائه، ولا بد لأحدهما من أن يكون حاضرًا في كل جلسة ليرأسها.

وأما ابتداء الحركة الوطنية فقد كان بنشر مصطفى كمال باشا دعوة إلى النواب الباقين في البلاد العثمانية من أعضاء مجلس نواب الأستانة يندبهم بها إلى تولي مهام أعمالهم في أنقرة، وحدد لهم مدة لا تتعدى شهرين معلنهم بأن المتأخرين منهم بعد هذه المدة سيعتبرون مستقيلين.

فكان عدد الذين استطاعوا الحضور قبل انقضاء الأجل المضرب ثلاثين نائبًا اجتمعوا في أنقرة، وعلى إثر اجتماعهم تجددت الانتخابات وتألف المجلس الكبير.

وهذا المجمع الوطني المؤلف من ممثلي البلاد العثمانية بأسرها له الحق التام في قبول أو رفض الأسماء التي يعرضها رئيس المجلس الكبير عند تشكيل أية وزارة، وللوزراء الحق هم بالمثل بعد قبولهم أن ينتخبوا رئيس مجلسهم.

ويرأس مصطفى كمال باشا الجلسات الكبرى.

ومجلس الوزراء هو الذي يعين حكام الجهات وسائر الموظفين ثم يصادق على تعيينهم الزعيم الأكبر.

على أننا لن ننتهي من تفاصيل شئون هذه الحركة الوطنية الهامة لو أننا أردنا شرحها بالتدقيق، فيجب إذن العودة إلى البيت لمقابلة الأصدقاء الآخرين المنتظرين.

وصار الخروج من الممشي المستطيل المعهود الذي ينساب أمام الغرف المخصصة للوزراء وللمداولات وللشئون الأخرى إلى باب صغير مفض إلى الحديقة المؤدية إلى الشارع الكبير.

وكانت المنتديات العامة والمطاعم خالية من الناس في هذه الآونة، وذلك لأن القوم هنا يحترمون رمضان جد الاحترام، فمظاهر هذا الشهر الفضيل تبدو بجلال وعظمة في أنقرة المقدسة، ولقد اختصت هذه المدينة بأن تجودها السماء كل يوم في ساعة محدودة برذاذ لطيف يرطب الجو قليلًا، ويجعل النسيم بليلًا.

وأن القلب الذي يلج البرلمان منقبض كئيب يغادره وهو منتعش جذلان سابح في تيار الرجاء، وذلك لوجود نفحة قوية هنالك في الداخل تكتسح من القلوب كل عوامل اليأس والاكتئاب وتحل بديلًا منها بواعث الأمل والابتهاج.

الرسالة العاشرة

أنقرة في ١٢ مايو

قبيل الساعة الحادية عشرة من صباح أمس الأول أقبلت سيارة الزعيم الأكبر إلى البيت الذي يقيم فيه هــ. زاده ووقفت أمامه، وانحدر منها شاب اسمه أسعد نديم بك وسأل هــ. زاده إذا كان على استعداد للذهاب معه في السيارة قائلًا له: «سنصل بعد عشر دقائق إلى الباغ.»[١]

فتبوآ مقعديهما من السيارة، وانطلقت سيارة مصطفى كمال باشا تطوي بساط الأرض بسرعة عجيبة في الطريق المصاقبة للوادي، ثم أخذت تسير صعدًا مرتقية إحدى الأكمات التي تواجه المدينة، حتى إذا ما أشرفت من علٍ على أنقرة ضاقت الطريق بعد اتساعها حتى صارت كلها إحدى مماشي متنزه. وظللتها أشجار ضخمة فرعاء ناهضة على جانبيها.

وهنا ابتدأت منطقة الرياحين والأزهار الضواحك، إذ تراءت دور خلويات صغيرات محوطات بحدائق غلب فسيحات الأرجاء يقطنها الوزراء، والنواب، وأعيان المدينة.

وقضى أسعد نديم بك مسافة الطريق في الحديث، فأخذ يشرح الطريقة التي اتبعها في النزوع من الأستانة على إثر ظهور الحركة الوطنية في مبتدأ أمرها ضاربًا صفحًا عن كل ما يمكن أن يستبقيه هنالك جادًّا في سبيل الالتحاق بالزعيم الأكبر. وهذا الفتى متناه

[١] الباغ لفظ تركي معناه الروض على العموم ومغرس الكروم بالأخص.

في إخلاصه وفي نشاطه وفي كفاءته، فهو من الضاربين بسهم في الفنون وله خبرة في أمور جمة؛ فمن إلمام بالتلغراف الأثيري، إلى علم بالكهرباء فبراعة في التصوير الفوتوغرافي، فإتقان في أشياء أخرى. وهو ابن اخ الفريق رمزي طاهر باشا زميل هـ. زاده قديمًا في الوظائف العسكرية، وربما كان ميل ه. زادة إلى عم هذا الضابط الفتى — أن رمزي طاهر باشا من كبار الضباط الأكفاء المدونة أسماؤهم في التواريخ العسكرية في مصر والسودان — هو السبب إلي إظهاره عاطفة الحب الصادق إليه، وفي تمنيه له أن يبلغ من المجد ما بلغه عمه، ذلك الرجل الشريف ذو السيرة الحميدة.

وكان العمال يشتغلون في توسيع هذا المسلك الضيق الذي تمهل الأوتومبيل في آخر استقامته أمام المخفر الصغير الموجود به جنود لازيون من ذوي القامات البديعة.

وبعد بضعة أمتار من هذا المخفر ينعطف المسلك الضيق يمنة وهنا تبدو للعيان دار الزعيم الأكبر الخلوية، وإذا به واقف في الانتظار في الحديقة الصغيرة المرتفعة المسورة بسياج بسيط.

وكان مرتديًا لباسًا شديد الزرقة، فتقدم وعلى شفتيه ابتسامة ملغزة من ابتساماته التي حيرت أفكار أناس كثيرين، ثم قال: «لقد وافيت أخيرًا إلى مسكني الحديث، ألست تراه بهيًّا نضيرًا؟»

ثم بادر بمصافحة يصحبها الود الأكيد تدل على ابتهاج صادق لا أثر للتصنع فيه.

فأجاب هـ. زاده: «إنه في الحقيقة بديع وله ميزة الراحة والسكون.»

ثم اجتازا بهو الدار المزدانة أركانه بأرائك وثيرة من الطراز العثماني البديع، ودخلا غرفة على اليمين أعدت لأن تكون مكتب عمل مصطفى كمال باشا.

وكل ما في هذه الغرفة ذو صبغة خاصة حتى ليكاد يقال إنها متضمنة ركنًا من الأرض العثمانية. إذ كل ما فيها خلاصة الإتقان ومن الأشياء النادر وجودها، وكذلك النسيم النافذ إلى هذه الغرفة فيه عناصر الحياة والقوة.

ويوجد في هذه الغرفة مكتب من الخشب المصقول القاتم حافل بالأوراق، كما توجد فيها أرائك ومتكآت مكسوة بالجلد الأحمر مصنوعة أبدع صنع وكذلك الستائر القطيفية ذات لون قانئ تتدلى في أعلاها سجف قد ارتسم فيها الهلال والنجمة، وتخف من النوافذ إلى داخل الغرفة نفحات الربيع المعطار.

وتسود سكينة مدهشة في جهة تشان قايا لا تشوبها سوى تغاريد الأطيار المتوطنة في أشجار الحديقة الباسقة.

إن الأحلام والتصورات البديعة لتتابع على المخيلات السابحة في لجة هذا السكون العميق اللذيذ، ولا تلبث النفس أن تستسلم إلى سحر هذا المصطاف المتغلب على أقوى العواطف والأفكار.

وجلس الزعيم الأكبر في متكأ وثير إزاء الأريكة ثم قال: «نبئني إذن، أفأنت عازم حقًّا على الارتحال بمثل هذه السرعة المدهشة؟»

فأجاب هــ. زاده: «إن عملي يقتضي الإسراع في الأوبة، إلا أنني عندما يجب عليّ المجيء مرة أخرى إلى هنا سأبحر على ظهر أولى البواخر التي تقصد شاطئ الأناضول على إثر استلامي تلغراف الاستدعاء.»

وقد دار البحث في سائر المسائل المختصة بالأحوال الحاضرة، فألم الكلام بالشرق وبالغرب، وأن سعة معلومات الزعيم الأكبر لتدهش في كل مرة محادثه، إذ يجده مطلعًا على تفاصيل عجيبة لم يكن من المظنون وصولها علمه، فهو خبير بكل شيء وبكل إنسان له يد في الشئون العامة. وهو لا يستخف بأي شيء كيفما بلغ من صغر الشأن، كما أنه يعرف لكل امرئ قيمته الحقة. هو محيط بأسماء الذين يعملون عملًا صحيحًا وأولئك الذين يعملون لمجرد الظهور.

وفي الحقيقة أن ذكاء هذا الرجل لإحدى الأعاجيب، فإنه جمع في شخصه بين خصائص متعددة لا تجتمع لدى إنسان واحد، فبينما هو عسكري كبير إذا به إداري قدير وإذا به سياسي محنك بارع بصير.

ومن ذلك أنه يهتم جد الاهتمام بالخدم الجليلة التي يؤديها العالم الإسلامي لهذه البلاد التي تدافع عنه وبالتعضيد المتوالي من قبله (…) ويثني عليه لأجل غيرته وكرمه أجمل الثناء.

وإذ ما خاض غمار الشئون الآسيوية والأفريقية ظهر تخصصه فيها وعلمه الواسع بها حتى ليكاد يحسب المفرد العلم في هذا الباب.

وخرج من حديثه الضافي عن هاتين القارتين الشرقيتين بقوله الآتي:

> لسنا مهيجين ولا محرضين، ولا نحن بمستعبدين ولا بفاتحين، بل ما كادت أوربا توجه إلينا بأولى رسالاتها حتى كان جوابنا إرسالنا وفدًا من خيرة رجالاتنا إليها ولكن … قبل أن يزمع هذا الوفد على الإياب إلينا كان ما رأيت بعض آثاره بعينيك وما وصل إلى سمعك من بقية أبنائه! أما الصلح فنحن أشوق الناس إليه وهو أحب الأمور إلينا، ولكننا إنما نريد إبرام صلح عادل

شريف ... إلا أنهم معتزمون على استئصال شأفتنا، وإني لأعلم علم اليقين الباعث لهم على هذا الاعتزام.

ثم أخذ يفصل هذه الأسباب، فكانت أقواله في هذا الصدد آيات بينات مدعمة بأنصع الأدلة وأثبتها في العقل، وأن الحقائق التي يسردها هذا الزعيم العظيم لأبعد من أن يحيط بها علم المارقين الجاحدين ...

ثم قال هلم بنا نستاف عبق الربيع المنتشر بنوع خاص في أرجاء هذه البقعة النضيرة ثم نعود إلى وصل أحاديثنا تارة أخرى.»

حتى إذا ما خرجنا إلى الخميلة الصغيرة المرتفعة المغطاة بأنواع النباتات والآخذ سكونها العذب بمجامع الألباب، علق الزعيم الأكبر ويصف روضة الأنف الذي يحبه وظلال الأشجار الوارفة التي يتفيؤها أحيانًا منصتًا إلى تغريد البلابل.

أتراه في خلواته هذه مستروحًا نسمات الربيع ممتعًا بصره بنضرة الزهر البديع، يخطط في ساعة فراغه من العمل أساس مشروعه الجسيم الذي اختمرت فكرته في عقله لرفع أركان المستقبل العظيم؟

من ذا الذي يستطيع أن يدب إلى قرارة في نفسه ليستكنه حقيقة ما هو مخبوء فيها ثم يناجي بها العالم الإسلامي الحائر القلق؟ ما من أثر يلوح على قسمته للناظر إليه فيسترشده عن هواجسه وآماله، أجل لا يرى الناظر إلى ملامح وجهه سوى انعكاس العواطف التي تخالجه من الارتياح والابتهاج أثناء الهنيهات التي يقضيها في روضه المعطار.

وتحول فجأة إلى شاعر وجداني طروب فقال: «آه لو كنت تعلم ما للشمس ساعة إشراقها من المنظر البهيج البديع الذي تتمتع به الأبصار الشاخصة إليها في البكور من هذا المكان.»

وانطلق ينعت محاسن الطبيعة وتناسق مرائيها البديعة.

وما كان أعظم ما تتراءى له الحياة جميلة في هذه الهنيهة، مع أنه طالما احتك بالموت وكاد يقع في شركه المنصوب.

ولقد كان من المقدس لديه أن يطيل أمد هذه الهنيهة التي لا حد للطافتها وعذوبتها لولا ما يعترض هذه الأمنية من وجوب العودة إلى سياق الحديث الذي انفتح رتاجه على مصراعيه.

فأخذ يقص سيرة نهوضه بهذا الأمر ذاكرًا كيف اضطر إلى المجاهدة بعد إبرام الهدنة مع ثلة من الشجعان، عاطفًا على ما كان ملمًا بالأمة إذ ذاك من ضعف الثقة بالنفس أو انحطاط الحالة الأدبية العامة، وتجرد الجنود من الأدوات الحربية، والضيق الشامل المخيم على البلاد التي ألقيت في هوة البأساء والفاقة ومزقت شر ممزق بقساوة وفظاعة، شارحًا الدسائس المدبرة على أوجه شتى وفي أماكن متعددة، وظل ينتقل من شرح إلى وصف مستفيضًا في الكلام حتى ختمه بهذه الألفاظ:

> ومع كل الأهوال التي قد تؤدي إلى ثبوط الهمة لم يتغلب على قلبي اليأس ولم أفقد الأمل لحظة ما! فانظر الآن تيار العساكر القوي المندفع على التوالي تر أنه منبعث من كل مكان، حتى إذا ما أقبلت أفواج الجنود إلى هذه المدينة مركز الاحتشاد يلبثون فيها المدة الكافية لتقلدهم السلاح وإكمال تأهيبهم — بقدر ما نستطيع — وبعد تدريبهم على الشئون العسكرية ينطلقون إلى ساحة الوغى، ولسنا في حاجة إلى الضباط فإنهم بفضل الله عديدون، والتجارب التي استفادوها من الحرب الكبرى تفيدهم الآن أجل فائدة. وسترى بعد غد رأفت باشا الذي سيشخص إلى هنا، كما أنك ستلتقي في طريقك بعصمت باشا الذي ستتعرف به على الجبهة.

ثم نهض من مكانه ليتفقد بيته شأن كل مالك يهتم بإدارة شئونه الداخلية بنفسه، وأرى هـ. زاده مضيفته الصغيرة (سلاملك) وهي مصنوعة على النسق العربي، والذي شيدها له ورتبها مهندس أوربي قديم انتحل الصبغة العثمانية منذ زمن طويل.

ولقد يبتهج المرء برؤية هذا الرجل وهو جاد في عمله معتمد على آلات صنعها هو نفسه وأخذ يزخرف بها هذا المنزل الصغير.

ومنذ أن رأى هذا المهندس الزعيم الأكبر وضيفه يتأملان صنعة يديه وجه الخطاب إلى هـ. زاده قائلًا: «إننا نخلق هنا الحاجيات خلقًا تقضي به الضرورة.»

وأضحكت هذه الكلمة الزعيم الأكبر، الذي لا بد أن يكون قد ذهب به الفكر إلى حياته وإلى مشروعه الملخصتين في هذه الكلمة نفسها: خلق، وهذا المنزل الصغير مخلوقًا من أوله إلى آخره.

وبعد تلك الجلسة التي طال حديثها حتى أمضه بدت عليه علائم الارتياح وكأنما سري عنه بما رآه فأخذ يتأمل الزخارف العربية المزدان بها منزله الصغير.

وإذ كان لا بد له من الوجود في المجلس الوطني الساعة الثالثة فقد أشار بإعداد سيارته قبل الموعد المحدد بقليل، وارتدى بمعطفه السنجابي المشهور الذي يوائمه أتم موائمة ثم تبوأ السيارة مع هـ. زاده.

وأدى له التحية العسكرية على طول الطريق إلى الوادي جنود لازيون فرسانًا ومشاة. فهنأه هـ. زاده على نظامهم البالغ غاية الكمال.

فأجابه الزعيم الأكبر على تهنئته بقوله: «أليس هؤلاء الشبان ذوي منظر باهر؟ فتأمل فيما لو كانوا حاصلين على ما يتمتع به جنود الأعداء من الحاجيات والكماليات. وهل كان يعجزهم إتيان أي أمر كيفما كان عصيًّا مستحيلًا! فما أكثر ما يراد إنجازه في هذه البلاد التعسة التي لا تبتغي سوى السلم والاطمئنان! فليكلل الله مجهوداتنا بالنجاح لير العالم أجمع ماذا عسانا أن نصنع لإسعاد الوطن المقدس وسلامته ورغده.»

وحينما بلغت السيارة دار الندوة انحدر منها ثم قال: «ستحملك مركبتي إلى مأواك، وآمل أن أراك بعد غد، لأن المجلس الوطني الكبير سيعقد جلسة تاريخية عظيمة في ذلك اليوم.»

وفي الواقع أن الجلسة التي عقدها المجلس الوطني الكبير في ذلك اليوم كانت ذات شأن عظيم، وهي إحدى الجلسات التي سيدونها التاريخ في صفحاته الخالدة بالتأكيد.

وبعد انتهاء الجلسة التاريخية الهامة التي استغرقت وقتًا طويلًا، أُدخل روشان أشرف بك هـ. زاده إلى غرفة متصلة بغرفة الزعيم الأكبر. وكانت موجودة في هذه الغرفة الهدايا القيمة التي قدمها هذا الزعيم الكريم تذكار حب صادق إلى ضيفه، وهي مرتبة أدق ترتيب وتشتمل على الأشياء الآتي بيانها:

فرد بطلق واحد مرصع بالنضار، وهو ذخر لا يمكن تقويمه لأنه آت من الجيش، ومائدة مستديرة صغيرة من خشب الورد عليها نقوش من أبدع الكتابات، وعلبة سجائر نقش عليها اسمه بخط جميل على شكل بيضي، وعلبة كبريت ومنفضة سجائر تجملها بالمثل نقوش نفيسة، وهذه الأشياء من محاسن الصناعات الوطنية، ودواة كبيرة من المرمر الأخضر، وقد صنعت من هذا الحجر العزيز لدى الفئة البكطاشية التي لبثت أجيالًا طوالًا مهتمة بسائر جيوش السلطنة، ومدخن سيجارة (فم سجاير) من الحجر

الصلب، وعلبة كبيرة برعت فيها اليد الصانعة حتى كادت تجعلها في دقة الدانتلا، وصور فوتوغرافية ليس لها نظير، ومجموعة كبيرة من صور الحرب (ألبوم) وكتب شتى إلى غير ذلك ... وكل هذه التحف تكون كنزًا لا يمكن تقويمه.

وبعد أن أمتع هــ. زاده بصره بهذه النفائس المختارة وأثر إهداؤها في نفسه تأثيرًا عظيمًا ذهب ليشكر الزعيم الأكبر في مكتبه على هذا التفضل. فقال له مصطفى كمال باشا: «ما هذه إلا أشياء بسيطة تعد بها مكانًا صغيرًا من مأواك، وبما أن هذا المكان الصغير الذي سيؤثث به في أوربا فسيأخذ شكلًا من أشكال أنقرة وتتماوج فيه نفحة عاطرة منها، وإذ ذاك تتذكرني وتتكلم عني.»

الرسالة الحادية عشرة

أنقرة في ١٠ مايو أول يوم جمعة من رمضان

وهو المخصص لتلاوة المولد النبوي رحمة على أرواح الشهداء.

«يا محمد»

الآن أخذت تتماوج في الجو حتى تصل إلى قبر الرسول المكرم ﷺ أجمل الأصوات العثمانية وأشجاها وأرقها وأعذبها رنينًا.

بعد إلقاء خطبة الجمعة المعتاد إلقاؤها في جميع البلاد العثمانية من المنابر باللغة العربية الفصحى وأداء فريضة الجمعة بدئ بتلاوة مولد ذلك الذي أشرق على العالم الإسلامي هدى ورحمة.

واستمرت الأنغام المتمازجة المتناسقة المطربة تتراسل إلى الأسماع من أعلى الدكة الخشبية المحلاة بأبدع أشكال الحفر صادرة من أعماق القلوب تغشاها نفحة حارة من التأثر والإيمان.

وتوالت الألفاظ الحارة منبعثة بجلاء وتأثير في الحاضرين الركع الذين كانوا يصغون، وعليهم سيما الخشوع وهم صامتون، بلاغة ما يلقيه عليهم ذلك الخطيب الشهير الذي أخذ يتكلم آونة بالعربية وتارة بالتركية ...

وهبت نفحة قدسية شملت الجميع، فاستوى الكبير بالصغير في الخشوع والتأثر، وشرع جميع الموجودين في مصلى هذا المكان المقدس الرحب يبتهلون بقلوب متلهبة إلى الله أن يتقبل ثواب تلاوة المولد رحمة على أرواح الشهداء الأبرار.

وليس هذا الترحم مقصورًا على هذا المكان بل هو عام كل مسجد وكل مكان في آسيا الصغرى في هذا اليوم نفسه وفي هذه الساعة عينها، إذ يخرج الملايين من الناس إلى الخلاء أو يجتمعون في البيوت، وهم متحدو الشعور مترحمين بالإجماع التام على أولئك الذين سقطوا في ساحة الجهاد والشرف.

فالأناضول بأسره يبتهل اليوم لأجل هؤلاء الشهداء.

وقد انتهز الإمام الأكبر هذه الفرصة فأقبل من الأستانة متخليًا عن وظائفه الدينية الجليلة في القصر السلطاني، ليعظ الجنود الذائدين عن الوطن ويحمسهم بالألفاظ الباعثة على الثقة والرجاء، وليتلو سيرة المولد النبوي في جامع أنقرة المقدسة البديع بصوت رنان ولحن مطرب رحمة على أرواح الشهداء المكرمة.

ومن وراء الحاجز المخصص للسيدات المصليات القادمات في هذا اليوم المبارك على الأخص لاستماع السيرة النبوية، ولضم أصواتهن إلى أصوات الرجال في الابتهال إلى الله أن يرحم الشهداء الأبرار، كان يرتفع نشيجهن المختنق بالعبرات ويمتزج بأريج المباخر المنبثة في سائر أركان المسجد، والمرتفع دخانها المنعقد فوق سائر الرءوس المطرقة إجلالًا وتأثرًا معطرة مروحة عنها بعض شجنها.

وكانت الخطابة التي ألقيت بعد الفراغ من تلاوة السيرة النبوية العاطرة فعالة في العواطف ومثيرة للنفوس وبالغة منتهى السمو بما تضمنته من الآراء السديدة والوجدان الشريف. وهيهات أن يستطيع امرؤ أن يصور الصوت الرنان المترامي إلى أبعد أغوار القلوب المنبعث من فم ذلك المرشد الأكبر، وترديد النصوص المقدسة الواردة في مقاله الضافي الملم بشئون العالم الإسلامي من الوجهتين الدينية والسياسية.

وقد استشهد بنبينا ﷺ، فانتفض من شرحه المحزن أتباع الرسول الذين أخذوا يستمعون هذه الألفاظ المتقدة كالجمر الآخذ تحريكها للعواطف في الازدياد المطرد.

وهذا نموذج منها:

> أي محمد انظر إلى أبنائك وتأمل أتباعك الصادقين ترهم جميعًا كيف يقاتلون بغير فتور، مستمدين شجاعتهم من قوة عقيدتهم وشدة إيمانهم! وهم ليس لهم من ظهير سوى هذا المعتقد الذي أوصيتهم به، والذي يذودون عن حياضه بشهامة وإباء كل المستخفين به والمعتدين عليه. ولم يترك أعداء هذا الدين ضربًا من ضروب الاعتداء من غير أن يقترفوه؛ فمن مظالم إلى آثام فاغرات، حتى إن البلاد التي كانت عامرة زاهرة فيما سلف أصبحت اليوم تئن تحت

الإرهاق والتعذيب الأجنبيين. ولم يبق سالمًا سوى هذا الملاذ المقدس المتوالي الجهاد لأجله ليل نهار دفاعًا عن استقلاله، إذ من الواجب الاحتفاظ بأشعة شمس الإسلام من العواصف والأنواء ومن القلاقل المزعجة والغصص المؤلمة المتوالية!

فيا ربنا أعنا وقونا، ويا محمد بكرامتك عند الله نلتمس منه المدد والنصر! لقد هوجمنا من كل جانب وتوالى علينا عدوان الأجانب! أنت الذي أوليت أمتك فيما غبر، بإلهام من الله السؤدد والمجد والثبات والقوة، فانظر الآن إلى الضيق العام الذي حل بنا من جراء البغي والجشع الموجهين إلينا من قبل أولئك الذين يغتنمون فرصة السلطة الجائرة القاسية التي يتمتعون بها في الوقت الحاضر.

إنا نستمحيك العفو عن المخطئين وعن جميع المذنبين، ونضرع إليك بإخلاص يا رسول الله القدير، يا من أرسلت هدى ورحمة للعالمين، أن تكون شفيعنا وملتمس الخير من الله لنا، إكراما للمؤمنين الأبرياء الأطهار الذين يعانون المصائب والأهوال، والذين يجاهدون في الله حق جهاده ويستشهدون لأجل إعلاء هذا الدين الحق كل يوم.

إن المهمة التي لا نزال مضطلعين بأعبائها عظيمة وهائلة، فليحفظنا الله وليتول رعايتنا. وعلينا نحن أن نرى بعيون الثقة في سرائرنا ضوء الأمل الذي يهدي إلى الحياة الشريفة! ولينزل الخالق القدير آية نصره المبين على ظبي المواضي الإسلامية التي تدافع عن بقاعنا المكتسحة، وتجاهد بما أوتيت من حول وقوة معتمدة على نفسها أفظع تآلب عرف من قبل، وهو الحرب الصليبية المتنكرة في أثواب المدنية الحديثة.

إن تاريخ الإنسانية لم يعهد على توالي العصور مثل هذه الأعمال المنكرة ...

إلى غير ذلك مما قاله الخطيب.

فالجنود حماة الدين والوطن المجد والفخار، ولتضطجع يوم النصر المبين نفوس أبنائنا الشهداء في سبيل هذه الأرض المقدسة في راحة وسلام ...

إلى آخر ما قاله ...

وانتهى هذا الدعاء المشوب بالذكريات المؤلمات باستدرار الرحمة الإلهية.

وهبطت من أعلى المناور الزجاجية المتعددة ألوانها أنوار خفيفة لطيفة.

وكان لا يزال عدد عظيم من الناس جاثين بجانب الأعمدة وهم لا يزالون يهمسون بالأدعية أو بتلاوة الآيات، وقد أخذت أيديهم تكفكف برفق المدامع المنحدرة من مآقيهم في طي الخفاء.

ونهض الزعيم الأكبر صامتًا، وتبعه كل الوزراء والضباط وكبار الموظفين والأعيان وبقية المحتشدين في المسجد من كبار وصغار وهم يراعون السكينة التامة المدهشة.

وكأنما قد هبطت من علٍ على حين فجأة نفحة سرية لبثت هنيهة ما يصحبها اطمئنان وسلام مهدئ.

ولم يشأ هذا الجمهور نفسه وهو يتماوج في فناء المسجد ولا يزال في تأثره أن يقضي على بهجة هذا التجلي الديني المحركة للعواطف، والتي جعلت كل امرئ في أشد ما يكون من التأثر.

وكان مصطفى كمال باشا مشتملًا بملبس أسود حدادًا على أبطال الأمة.

وكانت دلائل شجنه بادية على وجهه. وخاطب هـ. زاده بصوت لا يزال متهدجًا تخالجه مسحة من الأسى وهو آخذ بيده ليدنيه إلى جانبه فقال: «إن الله عظيم رحيم وسينقذنا من حرجنا هذا، وإني لواثق برحمته وكرمه.»

وأخذا يسيران جنبًا إلى جنب خطوة فأخرى بتباطؤ شديد، وهما يجتازان شارع المسجد الغاص بجموع الناس المزدحمة والشارع الكبير الموصل إلى المجلس الوطني.

واحتشد الجمهور على جانبي الطريق وأخذ يحيي الزعيم الأكبر باحترام، وهو مار في وسط هذا الحشد الحافل كأنه رمز مجسم لتأدية الواجب.

وتبعه الوزراء والضباط وصحبه وحرسه الخاص عن بعد.

وقبيل الوصول إلى دار الندوة شق الصفوف رجل بدين مكتهل واندفع منتحيًا وجهة الزعيم الأكبر وهو يصيح: «إني ملتجئ إليك أيها الرئيس الأكبر المحبوب وملتمس منك الإنصاف والرحمة المقدسين.»

وأتم الرجل حركاته وقوله من غير أن يعترضه أحد ويحول دون وصوله إلى مصطفى كمال باشا، بل ظل رجال الشرطة وآلاف الناس المتجمهرة وقوفًا في أماكنهم.

وذلك لأنه لا يخطر ببال أحد في أي وقت إمكان الاعتداء على حياة هذا الرجل الجليل المخلص الذي وهب حياته لوطنه وأمته، وهل يجرؤ إنسان على أن يمس بأذى من يعتبر أمل الغد؟ ألم ينقذ الأمة بأسرها ويظل محافظًا عليها من كل عدوان؟

ووقف هذا الرجل المشتمل بثياب أناضولية أمام الزعيم الأكبر الذي أجابه بقوله: «ما خطبك يا بنيّ؟»

حينئذ شرع هذا الفلاح المحروب يسرد مظلمته مبينًا ما حل به من الحيف.

فلما أتم شكاته قال له الزعيم الأكبر: «إن بابي مفتوح لكل امرئ، فأقبل إليّ غداة الغد لأنظر في شكواك وأجعل العدل يتخذ مجراه.»

ثم تناول رأس هذا الكهل وقبله، وبعد أن انتهى من أمر هذا الشيخ التفت إلى هـ. زاده وقال له: «أليس هذا الشيخ تعسًا مجدودًا؟»

فأجاب هـ. زاده قائلًا: «أجل، وإن الفضل الأكبر في انتشار الإسلام بسرعة وإشراق شمس مجده ليرجع إلى ما امتاز به من العدل المتناهي.»

وتأمل هـ. زاده قليلًا ثم قال: «وإنني لأصبحت أعتقد الآن جد الاعتقاد أنك بأمثال هذه الأعمال ستصل بالفعل إلى الفوز الحقيقي.»

وإذ كانا يتكلمان وهما سائران فما انتهى هـ. زاده من مقاله حتى صار أمام دار الندوة.

وهنا وقفا ونظر مصطفى كمال باشا إلى ضيفه قائلًا له: «أتمنى لك السفر السعيد، لقد أعد كل ما يلزم لنقلك إلى آخر مرحلة في دائرة نفوذنا.»

وصافح الزعيم الأكبر هـ. زاده هازًّا يده هزة الحب الصادق والإخلاص الأكيد.

فودع هـ. زاده الزعيم الأكبر وهو غير متمالك نفسه من تأثير الفراق في نفسه، واتجه إلى الحضور فسلم عليهم وحيا الجمهور بهدوء.

ثم شمل أنقرة المقدسة العاصمة الخالدة بنظرة رفق وهيام وولاء اكتنف جميع أرجائها.

وفارقه مصطفى كمال باشا وهو يقول له بصوت جهوري رنان: «ليحفظنا الله من كل مكروه وليشملنا جميعًا بعنايته ووقايته.»

ملاحظات ومشاهدات

وهي جمل مستخلصة من دفتر الطريق الذي دون فيه هــ. زاده تأملاته وآراءه.

أنقرة المقدسة في ١٣ مايو الساعة ١١ مساء

أقبل اليوم من جبهة القتال القائد رأفت باشا واصلًا إلى أنقرة الساعة الخامسة بعد الظهر، فجاء إلى بيت بكر سامي بك زائرًا وهنالك تعرف بي.

وإذ كان وزير الخارجية متغيبًا عن بيته فقد حللت محله في استقبال هذا الضيف الجليل.

ورأفت باشا متوسط القامة ذو مشية يتمشى في خطواتها الشمم.

وهذا القائد الشاب جميل الشمائل والهندام في ثوبه العسكري الرسمي البهي حتى لقد أدهشني مرآه.

ولشاربيه الصغيرين الناهضين منظر بديع يجعل لسمته الحربية الصريحة جاذبية خاصة.

وأما عيناه القاتمتان الدالتان على الذكاء فتلألأن تحت قلنسوته السوداء.

وما هو إلا امرؤ حر الإرادة مستقل في العمل شجاع. يخيل إلى رائيه وهو ينظر إليه ويستمع مقاله أن لا يوجد شيء يفسد عليه خططه ومشروعاته ولا يمنعه أيًّا كان من تنفيذ الأمر الذي يكون قد صحت عزيمته من قبل إتيانه. وهو ضابط فني ذو قيمة عظمى وقد اشترك في سائر الحملات الكبرى في الحرب العالمية، وكان موفقًا ظافرًا في معركة غزة الأولى.

وفضلا عن ذلك فإن رأفت باشا من أوائل الأبطال الذين أيدوا الحركة الوطنية، وقد بذل مجهودًا خاصًّا في نشرها وتقويتها.

وإن عمله الحربي الذي قاوم به الإنجليز في مرزيفون، وكذلك الطريقة الباهرة التي أخمد بها الثورات التي تتابعت على إثر إبرام الهدنة، ولم يكن تحت إمرته إذ ذاك سوى خمسة عشر فارسًا، ليعتبران من الأعاجيب، ولا سيما إذا علم أنه عاد من حركاته القامعة على رأس ست مئة فارس كمي مدججين جميعًا بالأسلحة الكاملة من عقاصهم إلى أخامصهم، فكان نجاحه هذا المدهش في هذه الآونة هو النواة التي تجسمت حولها القوة النظامية الوطنية.

وله الشرف والفخار في مقاسمة عصمت باشا مجد الانتصار الذي تكللت به معركة اين اوني.

وفضلًا عن مقدرته العظيمة في الفن العسكري، فهو خطيب بليغ يحرك العواطف ويهز القلوب وأديب رشيق القلم رقيق الشعور.

وهذا الرجل الذي يلتهم الكتب التهامًا يعتبر في هذه الآونة من أنبغ العقول الشرقية وأوسعها علمًا واطلاعًا.

وإخلاصه العظيم ووده الصادق الأكيد هما أهم الشمائل التي تلوح على محياه الذي ترتسم عليه مخائل الشهامة والعزم والإقدام، وهي الصفات الجوهرية للقائد المغوار الذي لا يقهر ولا يعرف سوى الهجوم على العدو وكسر حدته وتقويض معالم دفاعه وإفناء قوته.

ولقد أفهمني بأنه لا يحب التقهقر ولا التراجع الذي تقتضيه في بعض الأحوال الخطط العسكرية.

وعلى إثر ذلك تبادلت جوانحنا عواطف الميل والود التي قربت بين قلبينا ثم وصلتهما برابطة الحب الصادق!

واستقل سيارته البديعة حوالي السادسة مساء وعلم القيادة العليا يخفق في مقدمها.

وكان يقود هذه السيارة سواق عسكري ويصحب هذا القائد العظيم فيها ضباطه الخاصين به المكلفين بتنفيذ أوامره وتعليماته العسكرية.

١٤ مايو في القطار الذاهب إلى اسكي شهر

كان اليوم موعد السفر، فأنا أفارق أنقرة المقدسة والأسف مستول على فؤادي. وفي الحقيقة أنني ما كنت لأفارقها لو كان لي نصيب من الاختيار، إلا أن مقتضيات قاهرة تبعدني عن هذه المدينة التي أحببتها وقاسيت فيها آلامًا شديدة هي القسط الذي أصبته من مجموع القصص والتباريح الوطنية!

وستظل الحفاوة التي قوبلت بها في هذه الديار ماثلة أبد الدهر في ضميري لا تقوى على محو ذكراها من ذاكرتي وقلبي تصاريف الزمان.

فمتى أءوب إليها؟ وكيف أرى مرة أخرى هذه العاصمة المشرقة الضحوك المتلألئة المحصنة القوية؟

لقد غادرت بها أصدقاء أوفياء عديدين ذوي نفوس شريفة وقلوب صادقة وإقدام وتغلب على هوى النفس باهرين. ولقد عسر عليَّ أن أفارقهم وهم في مثل حالتهم هذه الحرجة المؤلمة على الرغم من اعتقادي الجازم بأن الخاتمة ستكون بإذن الله على أحسن ما نرجوه من فضله وكرمه، لأن مسألتنا التي ندافع عنها عادلة.

فسلامًا عليكم جميعًا أيها الأصدقاء، بل أيها الرفاق الذين كانت صحبتي معهم وا أسفاه أيامًا معدودات، إلا أنها انتهت بإحكام صلات الود بيننا.

وإني لأدون أسماءكم في دفتر سفري خفية ...

إني أدون هنا الآن أسماء أولئك الذين بلغت صلات الود بينهم وبيني إلى درجة عظيمة من الإحكام، وها هي ذي:

القائد يوسف عزت باشا: رئيس جيش القوقاز سابقًا ونائب الآن في المجلس الوطني الكبير. وهو عالم قدير ومؤرخ محقق، وضابط بارع، ووطني غيور، ومؤمن شديد التشبث بأحكام الدين وهو من أمثلة شرف الأمة وشهامتها.

أمير باشا: نائب سيواس، ولست أنسى ما حييت تلطفه المتناهي معي أثناء الأيام التي قضيناها في مسكن واحد.

موفق بك: أحد نواب الأستانة سابقًا وابن رئيس مجلس الأعيان، وحفيد الشاعر الوطني الكبير المترامية شهرته في الآفاق كمال بك وهو مالي قدير.

رءوف أحمد بك: أحد نواب الأستانة سابقًا، وهو كاتب بليغ، وامرؤ ذو ولاء صادق وشديد.

خسرو بك: نائب ومن كبار الضباط له صفحات غراء في سجل الحرب العالمية وفي تاريخ الحركة الوطنية.

أمير الألاي أديب بك: إن هذا الصديق الحميم لروما ولأنقرة كانت مودته العزيزة عليَّ ذات قيمة لا يمكن تقديرها لدي.

علي خان: وهو صاحبي العزيز، سليل أسرة من أمجد وأشهر أسرات القوقاز، وأحد ضباط الفرسان الروسيين سابقًا، وهو مسلم غيور على الدين ومن أكفاء الرجال.

ضيا بك: المدير العام لقسم كتبة الأسرار في وزارة الخارجية، وهو عالم مقتدر يجيد معرفة لغات أجنبية متعددة.

شوكت بك: هذا الشركسي العيوف الوجيه هو ابن بكر سامي بك المعروف جد المعرفة وسيكون له بالتأكيد مستقبل باهر.

على أن يراعي لن يقف عن حد معين لو شئت القيام بالواجب واسترسلت في سرد جميع الأسماء الأخر التي تتمثل أمام ذاكرتي، في حين أني مضطر إلى التمهل عند هذا المدى لأن مركبات عديدة أخذت تتقاطر. ما أشد تدفقها وما أعظم تزاحمها فما هي إلا مركبات المشيعين الذين طفقوا يهرعون لتوديعي!

آه من غصة السفر ومن مرارة الفراق، ما أشدهما على النفس وأنكاهما بالقلوب!

بعد مدة قليلة

لبثت أستقبل المودعين إلى الساعة الثانية بعد الظهر. ولقد كان الأسى مستوليًا على قلوبنا جميعًا.

وانطلقت الساعة الثالثة صحبة أديب بك إلى القائد رأفت باشا لزيارته. وهو يقطن مع ضباطه في قطار قد اتخذ من مركبته الكبرى مكتبًا له.

وقد أتيح لي التأكد مرة أخرى من كفاءة هذا القائد الكبير في الشئون العسكرية وطهارة قلبه وشرف وجدانه أثناء الساعتين اللتين قضيناهما في الأحاديث الممتعة المفيدة.

فليبقه الله وليبق أمثاله من العاملين لإنهاض الإسلام وإسعاده.

وقد لازمني مع أمير الألاي أديب بك إلى مركبتي في القطار ولقد عانقته وافترقنا، والقلب الذي شغله وده الصادق يتلظى على حرق والتياع.

وغصت المحطة بعالم لجب من المشيعين. وإذا بمندوب الزعيم الأكبر الذي أحمل ذكراه العبقة الجليلة إلى أوربا قد تقدم إليَّ، فأعدت على سمع هذا المندوب وهو روشان أشرف بك أجمل وأخلص عواطف اعترافي بالجميل العظيم، ورجوت منه أن يبلغ سائر الوزراء وجميع كبار الموظفين والأعيان مرة أخرى صدق ولائي وشكري المتناهي.

فانطلق إلى الزعيم الأكبر ثم آب من عنده مزودًا برسالة أفضى بها إليَّ سرًّا في أذني، وإنها لرسالة ذات شأن جليل.

فما زدت على أن قلت: «حسن، لقد وعيت ما أملي عليَّ.»

وعلى إثر هذا الجواب الموجز انحنى بكر سامي بك ليقبلني ثم قال لي: «إلى الملتقى القريب جدًّا.»

وآذن القطار بالمسير، وكانت الساعة إذ ذاك الخامسة بعد الظهر.

لقد انتأيت وشط المزار … فإلى الملتقى وليكلأك الله بعين رعايته وحراسته يا أنقرة المقدسة!

في القطار

لقد كانت الحجرتان المصاقبتان لحجرتي مشغولتين بالركاب. ولمحت من بينهم جلال الدين عارف بك رئيس المجلس النيابي الذي كان منعقدًا في الأستانة سابقًا، وأحد وزراء العدلية السالفين وهو الآن رئيس لجنة الشئون الخارجية ونائب. وإنه لمحام بارع قدير عرفته مصر والسلطنة العثمانية حق المعرفة ومن مشهوري الشراع.

ومن حسن طالعي في هذه السفرة أنه سيكون خير رفيق لي فيها حتى نبلغ أوربا.

ويوجد في الحجرة الأخرى منير بك وكاتب سره وهو مكلف بمهمة خاصة لدى القائد غورو، وهذه المهمة تدور حول الاتفاق الفرنسوي العثماني.

وهذا الموظف الكبير هو المستشار القضائي لحكومة أنقرة وبما أنه شديد التمكن من القانون الدولي فقد صادف تخيره خير كفء للاضطلاع بهذه المهمة العسيرة الدقيقة.

وهو مستقيم السير عاطر السيرة متناه في البشاشة واللطافة وذو عقيدة دينية قوية.

ولقد حادثته مدة طويلة في مسائل هامة متعددة فإذا بمعلوماته الجمة عظيمة الفائدة!

ولقد لاحظت كثرة انتشار الفرنسويين في البقاع الأناضولية وشدة الميل الذي تشعر به أنقرة لفرنسا. وتبينت أن الذين لا يجيدون الفرنسوية حق الإجادة يبذلون منتهى جهودهم لإتقانها.

والظاهر أن القوم يدركون في آسيا الصغرى أن فرنسا بمفردها هي الجديرة بأن تقدر — على الرغم من كل ما حدث — الصفات الحربية المتأصلة في الأمة العثمانية حق قدرها، وأن تعجب حقيقة بنزعة الاستقلال المتشبعة بها هذه الأمة الأبية، وأن تكبر من شأن دفاعها المجيد الحافل بصحائف البطولة الغراء، إذ من الميسور تذكر المجهودات التي بذلتها فرنسا لأجل تحقيق فكرة الحرية وما بذلته في سبيل تأييدها هذه العاطفة الشريفة وترويجها لدى الأقوام الذين يجاهدون لأجلها.

وإني لأتمنى من صميم قلبي لهذين الشعبين النبيلين أن لا يقتصرا على الاتفاق الذي سيبرم بينهما، بل يعملا لما هو أعظم من ذلك، أي لإبرام محالفة هجومية دفاعية.

ومن رأيي أن عقد مثل هذه المحالفة يعود بالفائدة العظيمة على هتين الدولتين، اللتين تجمع بينهما مودة متأصلة من عهود بعيدة، ولا يحرجها تبرم أولئك الذين لا يبتغون لهما تحقيق مثل هذا التحالف.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد حاربت دول الاتفاق فإنما أقدمت على منازلتهن جهارًا وبصراحة لأسباب معقولة يعرفها الناس، وما عهد فيها من قبل أن هاجمت إحدى خصيماتها على غرة منها خيانة ولؤمًا، على مثال الطريقة التي يتبعونها ضدها في هذه الآونة.

ولكن العالم الإسلامي على علم تام بكل ما يحدث، ولا سيما بتلك اليد الخفية التي تظاهر وتمد الإغريقيين ... ولا يحسبن الظالمون أن اليوم الذي تأزف فيه ساعة الحكم العادل الرهيب لا تزال قصية جدًّا.

إني لأتمنى — ونحن جميعًا نريد تحقق هذه الأمنية — أن ترتبط فرنسا مع الدولة العثمانية برابطة الود الصادق.

فالذي يجب المبادرة بتنفيذه الآن هو حل كل المسائل المعقدة بدون إضاعة الوقت سدى، والتفرغ بعد ذلك لمواجهة المستقبل في يوم جديد.

وينبغي أن نتعاون فيما بيننا إزاء ذلك الغد الذي ترى تباشيره منذ الآن حائرة مضطربة مبهمة سواء أفي الشرق أم في الغرب.

إن ثلاث مئة مليون مسلم متحدون بعروة وثقى، فماذا تريد فرنسا أن يكون شأن هذا العالم الهائل معها؟!

أخذ القطار ينهب الطريق عدوا، فاستسلمت إلى الاندفاع في تيار تأملاتي ... فليعنا الله على تحقيق مشروعاتنا الكبرى!

اسكي شهر في ١٩ مايو

وصلنا إلى هنا الساعة السادسة صباحًا، فما أبهى هذه المدينة الكبيرة الزاهرة في وسط آسيا الصغرى!

وإنها لفريدة في نوعها بفضل ما امتازت به على سواحلها من شأنها التاريخي الجليل، وآثارها العتيقة القيمة!

وهي عدا ما تقدم وسط تجاري هام بالمثل ونقطة ملتقى الخطوط الحديدية التي تصل ما بين بغداد وأنقرة.

وكنت أريد أن أزورها متفقدًا بدقة وإنعام نظر، إلا أن الوقت الذي أمامنا لا يتسع لمثل هذا المرام، والأشياء التي يحسن بالزائر المدقق أن يراها عديدة.

واسكي شهر معتبرة في الوقت الحاضر معقلًا منيعًا يستند عليه الدفاع الوطني.

والجنود تروح وتغدو في كل مكان منها، والضباط الذين يرون فيها، وهم كثيرون، تلوح عليهم دلائل الانهماك في الأعمال إلا أنهم هادئون مطمئنون.

فماذا الذي يخبئه المستقبل؟

إن المصنع الكبير تدور رحى العمل فيه ليل نهار، والمدافع وعربات الذخائر تعد وتوثق وتسير على عجل إلى مواطن القتال.

وسوقها الشهيرة ملأى بسائر أنواع المتاجر الوطنية، وعلى الأخص أواني كوتاهية الخزفية الجذابة بألوانها الزاهية النضيرة، وما سطر عليها من الآيات القرآنية بأبدع الخطوط.

وهنالك من الأضرحة الجليلة والمساجد الفخمة الكبيرة ما يستجر الأنظار ويحير الأفكار ... إلا أن الوقت ضيق ولا يتسع لمشاهدة هذه المناظر الفاتنة فلا بد من الإسراع في الذهاب إلى المحطة.

وتحرك القطار في منتصف الساعة الثانية عشرة، واستمر يطوي بساط الفضاء حتى بلغ بنا علا يوند في الساعة الثالثة بعد الظهر.

فيما بعد، في القطار وهو منطلق إلى افيون قره حصار

رأيت عصمت باشا في علا يوند. وكان ينتظرنا صحبة أمير الألاي رئيس أركان حرب المعسكر العام الأكبر عارف بك.

والقائد عصمت باشا أقرب ما يكون إلى قصر القامة، ومشيته هادئة جدًّا، ومع ذلك فله نظر حاد نافذ يناقض ما يتبادر عنه إلى الذهن عند التأمل في سائر ملامحه الأخرى. وهو مرتد بدثار بسيط من الخاكي.

وأمير الألاي عارف بك على شيء من بسطة الجسم وقامته في غاية الاعتدال. وقد استجر نظري جمال منطقته الشركسية المحلاة بالنقوش البديعة وأعجبت بروائها جد الإعجاب، وما هي إلا إحدى النفائس التي يجدر بها أن تعرض في أحد المتاحف.

واستغرق الحديث الذي دار بيننا وعصمت باشا حوالي الساعتين، ولم ينقطع الكلام حتى تحرك القطار.

وهذا الرجل الحربي الفني العظيم الذي ترامت شهرته في الآفاق حتى امتدت إلى أوربا وقدرها الجميع حق قدرها؛ كان يخاطبنا بلهجة يمازجها الهدوء والاطمئنان، مفيضًا في تفاصيل الوقائع موضحًا كل كبيرة وصغيرة بتدقيق تام. ولقد أفعم قلوبنا بالأمل العظيم في نجاح خطته، معتمدًا على تنفيذها وتحقيق نتائجها المرجوة على معونة الله وتأييده. وعلى شجاعة جنوده المدربين أحسن تدريب والآخذين بقسط وافر من الأهبة، وإنها لخطة هائلة يقوم بتطبيقها العملي رجل وحيد على جبهة في مثل هذا الاتساع الجسيم، وقد أعدها ورتب تفاصيلها بتؤدة وبطريقة متناهية في الإحكام!

ولقد أطرى شجاعة ضباطه ثم قال: «إن همي الأكبر هو القضاء الكامل على تلك الجيوش المأجورة. ونحن مستعدون للإقدام على كل ما يخطر بالبال، وكل ما ألتمسه من العالم الإسلامي أن يتذرع بالصبر الجميل حتى يرى ما يسره ويزيل غصته، إن الاستيلاء على المدن والمزارع ليس بالأمر الخطير، بل الواجب هو أن نستمر على إمطار عدونا السافل ضربات ساحقات على أم ناصيته بغير انقطاع، ولا بد له من أن يستشعر القوة الصاعقة الكامنة في هذه الهجمات المتوالية في بادئ الأمر، ثم يكون نصيبه من تلقي الضربة القاضية في نهاية الأمر.»

ولقد كان هذا الرجل الجليل وجيهًا في هيأته وفي منطقه وهو يتكلم بمثل هذه البساطة عن شئون جمة، وقد رسخ في العلم بمقاصد الأغارقة وخططهم وطرق قتالهم ومقادير قواهم، ولكنه لا يريد أن يتبجح ويستسلم إلى عوامل الغرور. ومن رأيه أن

لا سبيل إلى حدوث مفاجآت خارجة عن دائرة الحسبان. وذلك لأن الفن الحربي الذي يشرحه لنا بإسهاب لا يجيز توقع أمثال هذه المفاجآت.

وهذه خلاصة رأيه في هذا الصدد: إن العدو بموالاته زحفه من غير أن يحسب أقل حساب للعقبات التي قد تعرض له في الطريق، وهو جاهل جهلًا مطبقًا بطبيعة الأرض التي سينشب فيها القتال، ولا علم له البتة بالتأهب العظيم المستور في الخطوط الخلفية وفي معالم الدفاع، إلى غير ذلك عرض نفسه لما حاق به.

والرجل العسكري الفني القدير هو الذي يجتذب دائمًا عدوه إلى حيث يريد استقدامه.

وعلى ذلك فالنتيجة النهائية الحاسمة، لا يمكن أن تكون، بإذن الله تعالى، بعد كل ما رأيته وما سمعته سوى النصر المبين.

ثم قال عصمت باشا: «إن خطتنا واسعة النطاق وأخشى أن يطول أمد تطبيقها، ولكن كل فرد من الناهضين فوق هذه الأرض المقدسة التي هي وطننا المحبوب منا جميعًا أشد الحب لا بد له من تحمل نصيبه من تبعة هذا المشروع الجسيم.»

واليوم أدركت أن عصمت باشا هو القوة المحركة التي تدفع المطارق الغليظة الثقيلة إلى التهاوي بطريقة علمية على رءوس الأغارقة لسحقهم، وأن الرئيس الجليل وإلى جانبه ذلك القائد المغوار الصنديد رأفت باشا يعدان الخاتمة وهي: الضربة القاضية.

ولكن أفتكون هذه الضربة الأخيرة قبل أنقرة؟ أو في نفس هذه العاصمة؟ أو فيما يليها؟

هذا سر لا يعلم حقيقته إلا الله، والرؤساء العسكريون الملمون بدخيلة الأمر لا يبوحون بشيء من خفاياه.

وبعد ذلك قال عصمت باشا: «إنك سترى في افيون قره حصار «الصاعقة»: وهو أمير الألاي خالد ...»

ولبثنا نخوض أفانين شتى من الأحاديث والولاء الصادق يرفرف بأجنحته اللطيفة فوق نفوسنا.

وألسنا جميعًا رفاق سلاح؟

غير أن باعث الارتحال استوجب مفارقة هذه القريحة العسكرية المشتعلة غيرة وذكاء. وأزفت ساعة تحرك القطار.

فلعصمت باشا المجد والشرف، وليشمل الله برعايته هؤلاء الرجال الأكفاء القادرين.

اليوم نفسه، افيون قره حصار (فندق صفا)

لقد وصلنا الساعة الثامنة مساء. وقد أقلتنا المركبة التي كانت في انتظارنا إلى بناء على جانب من الاتساع، وذلك هو مسكن أمير الألاي خالد بك.

وهذا الضابط الباسل الجسور الذي أصيب عدة مرار بجراح من جراء جرأته المتناهية كان في هذا الوقت في شاغل من العناية بالجرح الذي أصيب به أخيرًا في ساعده الأيمن أثناء معركة اين أوني وقد أخذوا يعالجونه بالتدليك الكهربائي.

ولن تبرح مخيلتي صورة محياه الجميل الذي تتألق فيه أشعة الصبا والفتوة والعزم.

وتناولنا أكلة العشاء معًا، وبعد أن قضينا ليلة فياضة بالتفاصيل الوافية الهامة أوصلنا بسيارته إلى فندق صفا الذي كان قد أعد لنا منازل خاصة فيه.

فيا لها من ذكريات! إن هذا الشاب الذي يطوع الرجال ويدرب الأجناد يحبه عساكره إلى درجة العبادة ولهم به ثقة لا حد لها.

عندما خلا الجو في غرفتي بفندق الصفا انتقل بي فكري إلى عالم التصورات والتأملات، فما أعظم ما رأيت من مخائل العظمة والشجاعة، وما أكثر ما سمعت عن أمثالها! وقضيت ليلي مفكرًا مجهدًا عقلي حتى كاد يدركه السرسام والخبال.

أخذت أشبه أمير الألاي خالد بخالد بن الوليد القائد المسلم الشهير الذي ذاع صيته في معارك الأعصر الأولى من تاريخنا المجيد، ذلك القائد العظيم الذي كان من أعظم العاملين على انتشار الإسلام وسموه وازدهاره، الملقب «سيف الله القاطع».

ويكتب أمير الألاي خالد بك أوامره الآن بيده اليسرى، ولقد تذكرني جراحه هذه مع استمراره على الكفاح بذلك المماثل له الذي لا يختلف عنه في شيء، إذ جرح في معركة وبعد الانتهاء منها والرغبة في العناية بجرحه سأل أحد أصدقائه الذي تولى ضمد هذا الجرح قائلًا: «أمعن النظر وخبرني إذا كان في جسماني مكان ليس فيه أثر لجرح.»

فليؤيد الله هذه الأمة التي ليس لها مثيل بين سائر أمم العالم من كل وجه.

ولا بد لكل امرئ من أن يرى ما أبصرته بعيني من تلك العزلة الهائلة التي أطبقت على هذه الأمة الصابرة المتجملة حلقتها المستحكمة — بفضل الإنسانية الأوروبية — ليدرك كنه الروح القوي السامي المتغلغل في نفوس هؤلاء الأناس الذين يحسبون من عصر غير عصرنا الحالي، والذين يتحملون أعباء الضحايا التي لا تحصى ولا يمكن أن يطلق عليها اسم ما وهم مثابرون على الجهاد ببسالة لا تقهر.

وما أنا بمحرك عاطفة الإشفاق والرأفة بين جوانح أية دولة لأن كل محاولة من هذا القبيل بعد الذي رأيته عيانًا ليست سوى ضرب من العبث غير مجد سوى إضاعة الوقت سدى. فقد أصبح من الواضح أن أوربا راغبة في القضاء على الأمة العثمانية. وهل لو لم تكن هذه أمنيتها الأكيدة كانت تلبث ملتزمة جانب الصمت التام إزاء ما هو جار في الأناضول، ولا سيما بعد أن حاربت أربع سنوات لأجل «سلامة الشعوب وحريتها؟»

وما أنا بمدافع هنا عن مسألة ما، وإنما أنا مثبت فقط أمورًا تحدث في أوائل القرن العشرين.

من يعش ير: ليجرين العدل الإلهي المقدس في مجراه.

فندقلى في ١٦ مايو

غادرنا افيون قره حصار الساعة الثامنة صباحًا. وكنا نؤلف ركبًا مكونًا من خمس مركبات.

فجلال الدين عارف بك استقل معي مركبة لطيفة، وفخر الدين بك محافظ أضاليا الجديد الذي ظل من رفاقنا في هذه السفرة احتل المركبة الثانية وتبوأ الثالثة القائمقان عزيز بك ومعه أحد أعيان أضاليا، والعربتان الأخريان تحملان أثقالنا.

وبعد ساعة من تحرك ركبنا التقينا بفصائل من المدفعية الجبلية منطلقة إلى افيون قره حصار، ثم مررنا بعد مسافة قليلة بقوة كبيرة من المشاة منسابة في عدة مسالك لأنها قادمة من جهات مختلفة، وقد أخذت تنتشر في السهل مؤلفة مربعات منتحية وجهة تلك المدينة نفسها. ثم أقبلت مدفعية الميدان وتبعها بعض المدافع الثقيلة تجره عجول، وأخيرًا وافت عربات الذخائر يحرسها الفرسان ولا يرى لامتدادها آخر.

وما هذا المرأى العظيم إلا احتشاد الجنود المتفرقة على أجزاء صغيرة في أماكن متعددة لكي تصير على استعداد لمواجهة الهجوم المقبل. وإني لأثني أجل الثناء على هذه الخطة، لأن الجبهة التي يكون امتدادها أكثر من خمسمائة كيلومتر ذاهبة من أزميت إلى ما يقارب بوردور مجتازة بإسكي شهر فكوتاهية فافيون قره حصار ينبغي أن تكون متينة متساندة الأجزاء.

وأكلنا أكلة الغذاء الساعة الثانية بعد الظهر في خان ألفينا فيه آلافًا من الرجال من سائر الأعمار مدعوين للخدمة العسكرية، وهم راحلون إلى أنقرة لتزويدهم بالملابس والأسلحة، وبعد ذلك يذهبون من هنالك إلى جبهة القتال.

وهؤلاء الرجال من الجنود السالفين من الطبقات القديمة التي حضرت وقائع الحرب العالمية الكبرى.

فقوبلوا بتحية الاحترام وأنهم لأهل لكل تجلة، فقد قضوا أيامًا عديدة مشاة على الأقدام، وسيقضون سواها حتى يصلوا إلى أنقرة بجَلَد عظيم ومن غير أدنى تذمر.

وبعد مسافة أخرى اجتزنا بقافلة عظيمة من الغلمان الذين لا يزالون لدان الأعواد صغار الأعمار، فسألت: «إلى أين يذهب هؤلاء الأحداث؟»

فأجابوني: «إلى الحرب.»

قلت: «وهم على هذه الحداثة من العمر؟ وماذا عساهم يعملون هنالك؟»

فقيل لي: «سيجتهدون في إنجاز بعض الأعمال وفي مساعدة عساكرنا الحماة بقدر ما في وسعهم القيام به من الأعمال الجسام، وسيدربون على سوق المركبات وعربات النقل، وعلى كل حال فإن أعمالهم ستخفف أعباء جمة عن عواتق العساكر المحاربين.»

فيا لها من أمة عجيبة مجيدة تؤدي على بكرة أبيها وبمحض اختيارها واجبها المقدس، لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة بل بين الكهل والطفل بالمثل!

وبعد أن والينا التسيار عشر ساعات متتابعات وصلنا إلى هنا.

والفندق الذي أوينا إليه لا يصح للسكنى مطلقًا. ولكن هذه العلة لم تكن السبب في امتناع أجفاننا عن الإغماض، إذ كان في مشقة هذا السفر الطويل ما يكفي لتغلب النوم على حواسنا، إلا أن الكرى لم يغش عيوننا لأن قلوبنا باتت خافقة من شدة تأثرها بذكريات المناظر التي عرضت لأبصارنا طول هذا اليوم.

بوردور في ١٧ مايو

انتزحنا من فندقلي الساعة السابعة صباحًا. وفي أثناء الأربع عشرة ساعة التي قطعنا فيها الطريق لبثنا نجتاز سهولًا مزروعة زرعًا متناهيًا في الإتقان والنمو، ونحن لا نرى في طريقنا سوى جنود ذاهبين آلافًا عديدة للانضمام إلى زملائهم في خطوط النار.

وكان بين فئة من الاحتياطيين الذين أقبلوا سراعًا ملبين دعوة الأمة للاندماج في الصفوف تحت علم الوطن المقدس، عملاق من الجبابرة يسير في مقدمتهم مترنمًا بأناشيد حربية يرددها خلفه رفاقه بتوازن ليس فيه نشاذ.

فما كاد يصل إلينا حتى وقف بغتة أمامنا ووجه إلينا السؤال الآتي بتلهف وتحمس غريبين، قال: «أفأنتم قادمون من الجبهة؟»

فأجبنا: «نعم.»
قال: «إذن خبرونا، أفحقًا ما يقال من أن العدو لاذ بأذيال الفرار؟»
فكان جوابنا: «إن شاء الله.»
فلم يتمهل ريثما ينعم النظر في الجواب، بل التفت فورًا إلى رفاقه وخاطبهم بما يلي:

هلم بنا على عجل أيها الرفاق ولنركض بل لنطر لكي نصل نحن أيضًا في الوقت المناسب، فنتمكن من مشاطرة إخواننا الغزاة أجر الجهاد وشرف الانتصار.

ولم يكد يتم لفظه الأخير حتى أسلم ساقيه للريح ناهبًا الأرض عدوًا مخترقًا الحقول غير مبال بالتعب، فكان عمله هذا مدعاة لاقتفاء رفاقه آثاره.

وإن من ير هذا السباق المدهش العجيب يتبادر إلى ذهنه في الحال أن ساحة الوغى على قيد خطوتين منا ...

لقد كنا جميعًا رجال حرب مدربين معتادين على أن نبصر كثيرًا من المناظر الغريبة، إلا أن المرأى الجليل الذي مر قبالة أبصارنا في هذا الموقف تخطى كل وصف وإطراء.

وما أكثر أمثال هذه المناظر الناطقة بعظمة هذه الأمة وهي مراء لا تبدو للأبصار إلا في الشرق.

وقبل بلوغنا بورود سرنا مدة ساعتين بجوار بحيرة ملحية الماء واسعة الأرجاء لها شهرة بما احتوته مياهها من الأملاح السامة.

على أن مدخل مدينة الورود الباسمة كان بهجًا باهرًا، إذ علقنا نسير في وسط حقول مغطاة بأشجار الورد مترامية الأطراف إلى حد لا يمكن تصوره.

وتوجد هنا عدة مقاطر شهيرة مستمرة على تقطير الورد لاستخلاص مياهه وعطوره. واستغلال أرواح الورد منتشر في هذه الجهة جد الانتشار.

وكان رئيس البلدية في انتظارنا وهو رجل شديد الذكاء واسع الحيلة حلّال للمعضلات، فذهب بنا إلى بيت صغير، وعلى الرغم مما توفر فيه من أسباب الراحة الضرورية لم نستطع أن نغمض عيوننا.

أفكان ذلك من التعب؟ أو من انفعال النفس الناجم عن اهتياج العواطف؟ أو من انشغال الفكر؟ ربما كانت هذه كلها أسبابًا لاستعصاء النوم على عيوننا.

على أنه ماذا يهمنا من توالي ليالي السهاد ونحن نتصفح بأبصارنا صحفًا غراء من أعجب التواريخ!

وفي صبيحة الغد زرنا المقاطر ومعمل الطنافس والأبسطة، فابتعت منها أشياء، وما أبهج الألوان وأنضرها، وما أبدع الرسوم وأبهرها!

على أن كل بيت، من جهة أخرى، حافل بالمواد الأولية التي ينسج منها النساء تلك الطنافس الصغيرة المربعة التي تعتبر من أبدع لوحات الرسوم.

ودعينا عشية من قبل جمعية الهلال الأحمر لتناول أكلة «الإفطار».

وإن مكان هذه الجمعية هنا لمأوى بديع يلتئم فيه شمل الأطباء الناسلين من كل أنحاء البلاد العثمانية، إذ ينطلقون بعد بلوغهم هذا المكان إلى ميدان القتال.

وكان المحور الذي دارت حوله الأحاديث بوجه خاص تلك الخدم الوطنية الإنسانية الإسلامية الجليلة التي أدتها مصر للدولة العثمانية أثناء الحرب البلقانية، والكفاءة والمقدرة والنشاط والإقدام التي أبداها الحكماء المصريون الغيورون أثناء تلك الأيام العصيبة.

فانبرى أحد الحضور إلى مخاطبة الجميع قائلًا: «لقد أزفت الساعة التي أصبحنا فيها شديدي العوز إلى مساعدة العالم الإسلامي وتعضيده، إذ كيف يمكن بغير هذه المعونة المرجوة تلافي المطالب الضرورية التي يقتضيها موقف هذه البلاد التعسة المحروبة التي تجاهد بشجاعة عديمة المثال لأجل الإسلام الذي يعتبرها رمزه المقدس؟ فما أكثر جرحى الحرب وأراملها وأياماها ويتاماها!»

وإني أنا الذي خبرت حقائق هذه البلاد ورأيت مصائبها بالعين، أعرف مقدار استحكام حلقات الضيق عليها! ولكن كيف أحاول أن أشرح لعظماء الكرة الأرضية — الذين يكونون طائفة قائمة بنفسها — ما لا يريدون أن يسمعوه أو يفقهوه؟

ومن الواضح أنهم لا يريدون أن يشغلوا آذانهم بالشقاء الحائق بأناس لا علم لهم بهم! وما آسيا الصغرى إزاء أبصارهم سوى أرض غريبة عنهم نائية، لا تكاد تصل أصداء استغاثة سكانها المطاردين وزفراتهم ونحيبهم إلى آذان هؤلاء العظماء، لتقطع عليهم صفوهم وتنعمهم ولذاتهم الاجتماعية والرياضية!

ولكن ... لنمض في سبيلنا.

سنرحل غداة الغد بالسيارة إلى أضاليا.

أضاليا في ١٩ مايو

يا لها من طريق فتانة تنبسط على جانبيها الحقول الزاهية البهية؛ فما هي إلا بقعة من جنات عدن تزدهي بخضرتها النضيرة وتروح عن النفوس نسماتها العليلة!

ولبثنا نجتاز على امتداد عشرين كيلو مترًا أراضي واسعة النطاق كانت من جملة أملاك السلطان عبد الحميد، فزرنا هذه المزارع كما زرنا مزارع حافظ باشا.

ولقد يقال إن حدائق القبة في مصر ليست سوى نمط مصغر من هذه الرياض الكبرى المنسوقة على نظام شيق جذاب جعل البويتات الخلوية والضياع المشيدة على أحدث طراز، المنتشرة في ثنايا ذلك الروض المشجر المزدهر المثمر المعطار موضع إعجابنا وفتنة أبصارنا وألبابنا.

وقد بلغ من خصب هذه البقاع أن لا سبيل إلى إيجاد وجه شبه ومقارنة بينها وأية جهة أخرى فوق سطح الغبراء.

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر أخذنا نجتاز جسرًا بالغًا أشد الخطر غير مسيج الجانبين، ويزيد امتداده على خمسمائة متر.

وبينما تحاول سياراتنا أن تتقدم إلى الأمام بمنتهى ما في وسعها من التدقيق والحذر، أي بغاية التمهل، إذا بألبابنا قد اجتذبها تغريد ليس له مثيل منبعث من الطيور المغردة المختلفة أشكالًا وألوانًا، المتخذة لها أوكارًا بين أفنان النباتات المائية المشعثة وأجمات الغاب (البوص) الأثيثة المنتشرة على ضفتي النهير. فما أشجى هذا الهزيج الرخيم الذي لا تزول آثار رنينه من البال، والذي أطرب آذاننا وسرى عنا ما نوجسه من الخوف في هذا الموقف الحرج العسير!

واستغرق منا تسنم الجبل المشهور بصعوبة مرتقاه وتجدب ذروته ساعة ونصف ساعة. وكيف يمكنني أن أزيل ما ارتسم في مخيلتي من هول التهاوي من هامة هذا الجبل إلي بطن السهل! ولم أعهد فيما غبر من سوالف أيامي على كثرة ما طفت وتجولت في مختلف البلدان مثل هذا المجاز المتناهي في الخطر وفي الهول.

بيد أننا لاقينا الجزاء الأوفى بما انبسط على إثر ذلك أمام أبصارنا من المنظر البديع الباهر ... فيا لها من نظرة بدرت منا إلى ذلك الجمال الطبعي الجذاب المتلاعب بالألباب! لقد تراءت هنالك في جوف السهل مدينة أضاليا زاهية ناضرة تحت غلس المساء المستضيء بحمرة الشفق، وتراءت المآذن اللطيفة كأنها منفصلة من أماكنها وطافية فوق وجه البحر الساكن الأزرق الفيروزي، وعلى بعد يسير تنهض تلك الأكمة الزمردية كإطار مستدير حول ذلك المشهد العبقري النضير. فيا لها من بلاد بلغت غاية البهجة والبهاء!

وقبل وصولنا إلى أضاليا بمسافة وجيزة أقبل حاكم أضاليا العسكري وكبار الموظفين وسروات الرجال يهنئوننا بسلامة الوصول.

وكانت الساعة السادسة والنصف عندما مضى بنا قائد هذا الموقع إلى فندق متناه في النظافة، وهنالك كلف رئيس الشرطة بأن يكون رهن إشارتنا.

ولقد كنت أعاني أشد التعب لأني لم أكد أتذوق الكرى منذ مبارحتنا أنقرة، ولكني بادرت قبل إخلادي إلى الراحة والنوم بإرسال برقية أودعتها آيات الشكر والثناء إلى مصطفى كمال باشا، وأنبأته فيها ببلوغي أضاليا مدينة الحدائق المثمرة.

أضاليا في ٢٠ مايو

قضيت النهار أجمع في تفقد المدينة صحبة رفيقي الظريف المحبوب في رحلتي هذه جلال الدين عارف بك.

إن مدينة أضاليا مشيدة في نفس دائرة المعقل الذي لم يكد يتغير شيء من مظهره الحربي القديم، فمن جسر متحرك إلى خندق إلى أسوار في منتهى الكثافة لا تزال محتفظة في أماكن منها بلوحات أثرية من المرمر معلنة ذكرى المعارك التي حدثت هنا، وقد نقش في بعضها تواريخ تلك المعارك، ونقشت في البعض الآخر آيات قرآنية. ولا يحتاج المرء لإمعان النظر في خط هذه اللوحات المرمرية حتى يحزر من شكل الخط العصر الذي حدثت فيه الوقعة أو القرن الذي سيرت فيه الحملة.

ولقد كان المتفرج يرى منظرًا غريبًا من الحارات والأزقة الضيقة الداخل بعضها في بعض والبويتات المتلاصقة المتعاشقة.

أما المدينة الحديثة التي يمكن أن يطلق عليها بحق اسم مدينة العصور الوسطى، فمفصولة عن القديمة بشارع واسع. والسوق الكبرى توجد في القسم الحديث، وفيها يرى المرء نماذج من كل ما تنتجه البلاد الأناضولية.

وأما قصر الحكومة ومساكن رجال السلطنة الإيطالية فخارجة عن دائرة الحصن، وكذلك مركز التلغراف الأثيري، وهي منتشرة بأجمعها في العراء.

وقد أقيمت على امتداد الشاطئ مستظلات خشبية بديعة ومقاعد مستطيلة من الخشب أيضًا على نسق بديع.

ويوجد على ضفة الغدير المنتدى الخلوي الرحب (كافيه كازينو) المتناهي في الملاحة والاستعداد، وهو ملتقى الناس من مختلف الطبقات والأجناس. وقد التقيت فيه من قبيل

المصادفة بوالد الكاتبة الأديبة الشهيرة خالدة أديب هانم التي قامت بنصيب وافر مهم من الحركة الوطنية منذ ابتدائها في أنقرة.

وتعتبر أضاليا مشتى بديعًا نادر المثال، أما في الصيف فحرها لا يطاق.

وهي مدينة معتنى بها جد العناية، والنظافة متناهية فيها، ولها ميزة وحيدة لا توجد في مدينة سواها وهي مرور عدة غدران ومجاريها منحدرة من الجبال المجاورة للمدينة، حتى إذا ما اخترقتها اندفعت مترامية في البحر — وهو منخفض عن المدينة جدًّا — محدثة هديرًا وجلبة شديدين إلى درجة تجعل المرء لا يسمع من كل الأرجاء سوى أصوات المياه المتدفعة بغير انقطاع.

وقد دُعينا إلى تناول أكلة الإفطار هذا المساء لدى أحمد بك. وأحمد بك هذا كان ضابطًا في الجيش سابقًا وهو الآن من تجار أضاليا. وينتمي إلى أسرة من أعرق أسرات الأستانة مجدًا، ووطنيته مشتعلة حماسة وشمائله سامية كريمة. ولقد استطاع بما أوتي من الذوق السليم والذكاء المتوقد أن يجمع في بيته الصغير الظريف بطريقة فنية فائقة كل بدائع الثروة الوطنية ونفائسها!

وردهة طنفه الصغير آية الإبداع في فن الزخرف الشرقي. وإذ جلست فيها أرتقب مقدم الحاكمين الجديد والسالف، فقد خف بي فكري في أفق الخيال محلقًا إلى الأستانة التي زين لي الوهم أنني أصبحت في قسمها الوطني وهو إسلامبول.

وسأظل ذاكرًا حفاوة أحمد بك وأخيه بي وسأحتفظ بذكرى ودهما الثابت وإخائهما الصادق.

وبعد الانتهاء من تناول الأطعمة الشهية الهنيئة العديدة المصنوعة بطريقة راقية بديعة، أقبل ولدا أحمد بك فسلما علينا بأدب ومعهما مؤدبتهما السويسرية، وهما ولد وبنت صغيران لطيفا المرأى خفيفا الروح. ويتكلمان باللغتين الفرنسوية والألمانية. وبعد الإفطار قضينا مدة طويلة في المحادثة. وحاكم أضاليا رجل مستنير مثقف الفكر، سياسي بارع ووطني غيور. فيا لها من ليلة غراء أفعمت قلبي بهجة وحبوًا!

إن من يسمع هؤلاء الرجال الأماثل، وهم يخوضون في شئون هامة ببساطة لا مثيل لها، لا يسعه إلا أن يضاعف إعجابه بهم وإكباره إياهم.

فليحفظهم الله جميعًا، إنهم لأبطال تضرب بعزائمهم الأمثال.

أضاليا في ٢١ مايو

أخذنا نتنزه على شاطئ البحر الهادئ اللطيف خارج المدينة تحت أظلال أشجار الدلب (البلاتنيه) العتيقة الظليلة، رفيقي في رحلتي هذه وأنا، ومررنا بين البساتين النضيرة والحدائق الغناء الحافلة بسائر أنواع الأشجار المثمرة.

وإن من لم ير أضاليا لا يمكنه أن يتصور مبلغ جمال هذه البقعة الحسناء الساحرة ذات المنظر الفردوسي.

وبعد تروض مديد بديع شيق وصلنا إلى باب حديقة شهيرة لرجل اسمه عثمان أفندي. فولجناها وسرنا في طرقاتها معجبين بأشجارها الباسقة الفرعاء المثقلة بمختلف الأثمار. وما رأينا أثرًا للحشائش والأعشاب البرية التي تزاحم الأشجار والزروع عادة في الرياض والحقول وتشاطرها غذاءها الذي تستمده من الثرى، وكذلك لم نر ورقة من أوراق الأشجار المتهاوية من فروعها. فالمماشي مكتنسة ونظيفة إلى أقصى ما يمكن تصوره.

وبينما نحن نسير في هذه السكينة الشاملة المعهودة فيما بعد الظهر، إذا بغلام صغير لمحنا. فأقبل إلينا مبتسمًا وهو مشتمل بالزي الأناضولي، وهو ذلك السربال الفضفاض (شروال) الذي يعلوه حزام أحمر عريض، إلا أنه لم يوجه إلينا كلمة واحدة، بل كل ما فعله أن قام بواجبه فتقدمنا مرشدًا إلى مستظل خشبي لطيف (قمرية) محفوف بالأشجار الوارفة. وبعد أن أجلسنا تسحب صامتًا، ولم يمض سوى قليل من الزمن حتى بصرنا بأبيه عثمان أفندي مقبلًا، فحيانا ورحب بنا.

وإذ علم بأننا سائحون وقد قدمنا حديثًا من أنقرة رفع يديه إلى السماء وقال مبتهلًا: «اللهم انصر الإسلام وأيده وأعزه.»

ثم شرع يسائلنا عن الحالة الحربية وموقف الجيش، وأخذ يصغي بتلهف وإنعام إلى كل ما نسرده عليه من الأنباء والتفاصيل.

ثم قال وقد بدت على وجهه دلائل الأسف والحسرة: «وا حر قلباه إني لشديد الأسف علي بلوغي سن الكبر وعلى صيرورتي كبير أسرة عديدة الأفراد، كما أني متحسر لأن أطفالي لا يزالون أحداثًا غير قادرين على خوض غمرات القتال. بيد أني لم اتأخر ولن اتأخر عن خدمة بلادي بكل ما أوتيت من حول وقوة.»

وعندما أزمعنا على مفارقته أهدانا سلة كبيرة ملأى بالبرتقال الكبير البديع، وإذا أردنا أن نسأله لدى الباب عما يتقاضانا من ثمن هذه الفاكهة الثمينة، رمقنا بنظرة

يتمشى فيها شبح العتب العذب اللطيف وقال: «إنكما لا تزالان في رباع الشرق الكريمة وتحت سمائه الصافية الرحيمة، فلتعلما هذا حق العلم أيها الصديقان العزيزان ... بل أنا الذي أحمدكما على ما أوليتماني من الجميل بتشريفكما حديقتي، وبما ملأتما قلبي به اليوم سرورًا وارتياحًا من النفحة الذكية التي حملتماها إلينا من أنقرتنا المحبوبة المقدسة.»

أضاليا في ٢٢ مايو

لقد قمنا بجولة كبيرة في السهول المجاورة هذه المدينة وهي سهول حافلة بصنوف المحاسن الطبعية.

وعلى مقربة من المدينة توجد مائتا ألف دونم[1] قطعة واحدة تعادل في خصبها مجموع أشهر الأراضي المصرية وأخصبها.

ويقدرون القوة المحركة الكامنة في شلالات أضاليا بخمسة عشر ألف حصان.

لقد لاحظت أن النساء المسلمات هنا يأتزرن بالخمر الزاهية ذات الهندام البديع كأخواتهن في الأستانة، وأن النساء الروميات يتزيين بالزي القديم المؤلف من صدار صغير وحزام عريض وطربوش على الرأس يعتممن عليه بشاش، وتسترسل على الظهر جديلتان طويلتان.

إن أهالي أضاليا يثنون على رجال السلطة الإيطالية الذين انتهجوا منذ احتلال أضاليا خطة المحاسنة والمصانعة. وعلى الرغم من وجود قوة احتلال عسكرية وسواها، فإن مظهر الحالة يدل على عدم حدوث أي تغيير، بل لقد سمعت إطراء المجاملة التي يظهرها الضباط الإيطاليون وحسن العشرة. ولا يستشعر أحد أقل تأثير من الضغط، ولذا يعيش العثمانيون في وئام تام مع الإيطاليين الذين أدركوا على الفور كيف يمكنهم أن يعاملوا هذا الشعب المشهور بالإباء والحماسة والقوة.

وإذا كان قد بدر حادث منذ مدة وجيزة مداره الاعتداء على باخرة تخفق فوقها الراية الإنجليزية، فما ذلك إلا أن رجال الشرطة العثمانيين البالغين من الدهاء مبلغًا

[1] الدونم فدان تركي مقداره ربع فدان مصري. م.

عظيمًا، علموا أن هذه الباخرة تقل عمال ثورة قونية فأرادوا أن يقبضوا على هؤلاء الأشخاص المجردين من الدين ومن الضمير ومن الشرف، فنجم عن عملهم هذا حادث مكدر بولغ فيه على الأثر.

ومحافظ أضاليا الجديد رجل لا غبار على استقامته، وقد سوي الخلاف وانتهى أثره تمامًا، ومن جهة أخرى فان محافظ أضاليا معروف بميله الحقيقي لإيطاليا. وفي الحقيقة ليس ثمت باعث جوهري يحول دون التفاهم بين الحكومتين العثمانية والإيطالية. إن المصالح المشتركة الجمة تربط ما بين هاتين الدولتين، ويجب في الوقت الحالي أن يسود الود والولاء بين هذين البلدين اللذين لا توجد أسباب عدائية حقيقة تفصل بينهما ليتآذرا على توطيد أركان السلام في الشرق.

وقد وقف جلال الدين عارف بك نفسه على السعي الحسن بين الطرفين ليكون صلة الاتفاق والوئام بين حكومته والحكومة الإيطالية، على الرغم من أن سفره إلى أوربا إنما هو لأجل عنايته بصحته ولالتماس الراحة وتبديل الهواء. وقد اشتهر بأنه لم يدع فرصة تمر بدون أن يستفيد منها خدمة يؤديها لوطنه قيامًا بواجب الوطنية الصادقة.

وبعد أن انتهينا من طعام الإفطار هذا المساء انطلقنا إلى شاطئ البحر. ولقد يممنا ذلك المنتدى (كافيه كازينو) البحري اللطيف متلألئًا تحت أشعة آلاف من الأنوار الكهربائية.

وكان عدد عظيم من الناس جلوسًا حول الموائد الصغيرة في حديقة هذا المنتدى الرحبة وبينهم أفواج متعددة من ذوي المراكز السامية في الهيأة الاجتماعية.

ولا تبرح من مخيلتي صورة ذلك المحيا النبيل المتجمل به الأمير الكردي الجذاب ... الأمير م ... الذي كان مرتديًا ثوبًا أسود يزهوه وهو يتكلم بحمية وغيرة وطنية.

أما صفاته فذو بسطة في الجسم، رقيق البشرة، بديع الهندام وهو يمثل الشباب الذكي النشط في عنصره الباهر المجيد. وبسمته الخفية والأشعة المتراسلة من مقلتيه تعبران عن أمور كثر.

ودار محور الكلام على المسألة الكردية، في جملة ما خضنا غماره من الأحاديث المختلفة فقال متحمسًا: المسألة الكردية؟ وهل هي سوى وهم مستحيل التحقق! وكيف يمكن وجود مثل هذه المسألة؟ لقد لبثنا طوال الأزمان عثمانيين من أشد العناصر العثمانية إخلاصًا لهذا الوطن المقدس! وإننا لعليمون بالدساسين الموسوسين في صدور الناس الذين لا هم لهم سوى إيجاد التفرقة والشقاق بين أبناء الوطن الواحد كما أننا نعرف بالمثل لماذا يقدمون على هذه الفعلة الشنعاء.

فصدقني واعتقد أن فعلتهم هذه لن تنيلهم مأربًا، وما يريدون إحداثه من الشر سيصيبهم وباله.

على أن الإسلام ليس سوى أسرة عظيمة لا جنسية فيها، بل أليس من مبادئ ديننا الحق ذلك القول المأثور ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، فدونت أقواله هذه بمنتهى الدقة.

فيا أيهذا الأمير الكردي النبيل ألا يمكن أن يتجمل بمثل حميتك هذه وشجاعتك التي لا مثيل لها سائر زعماء المسلمين!

إني أشعر يا أمير م ... بعاطفة الاحترام المشفوع بالإعجاب لشخصك الجليل ولكل من تجمل بمثل سجاياك الكريمة.

٢٦ مايو في البحر إلى رودس

زرنا المحافظ شاكرين مجاملته. ثم ودعنا تلك المدينة الكريمة الحفية بأضيافها. وكان كل أصدقائنا يلازموننا هذا المساء.

وعندما وصلنا إلى المرفأ لفت نظرنا منظر رئيس الحمالين، فقد كان عملاقًا هائلًا ذا وجه لطيف بشوش، وملبسه ثمينًا وذا رواء بديع، وقد وضع على رأسه القلبق، فأخذ المشيعون يتأملون هذه القامة الهائلة المدهشة. وهذا الرجل وطني، بل وطني عظيم يشتعل غيرة وحمية.

ومن أمثلة وطنيته السامية أنه لم يسمح بتاتًا بإفراغ ما في البواخر والسفن الإغريقية من البضائع أو شحنها من محصولات البلاد. ونهاية الأمر أننا فارقنا المرفأ في العشية.

ولقد صفا الجو وراق وهدأ البحر وعذب ركوبه حتى إن الباخرة الصغيرة التي تقلنا، وهي من بواخر شركة اللويد التريستية، أخذت تمخر العباب براحة وسرعة مرضيتين.

رودس في ٢٤ مايو

لقد وصلنا إلى هذه الجزيرة الجميلة التاريخية حوالي الساعة العاشرة صباحًا.

وكان الأفق صحوًا متلألئًا والجو بديعًا ساحرًا.

وقد كان يرتقب مقدمنا زورق أرسله صاحب فندق (بيلافيستا) لينقلنا إلى رصيف المرفأ حيث كانت تنتظرنا هنالك ثلاث مركبات حجزت لنا خاصة.

ولقد بذل حكام الجزيرة كل ما في وسعهم من حول وطول لتسهيل شئوننا ولتوفير راحتنا مجتهدين في استرضائنا بكل وسيلة ممكنة، حتى لقد تيسر لنا بعد مدة وجيزة جدًّا من وصول باخرتنا إلى مياه الجزيرة، أن نصل إلى فندقنا بمنتهى الارتياح. وفندق بيلافيستا هذا كائن فوق إحدى الربى.

٢٩ مايو في البحر

غادرنا رودس اليوم على الرغم مما علمناه من قرب وصول بكر سامي بك.

على أننا كنا قد أضعنا من الوقت في زيارة الأماكن التي مررنا بها أثناء الطريق ما جعلنا نضن بإضاعة وقت آخر في الانتظار.

ولقد كان جميع الأهالي الذين خالطناهم في رودس لطافًا بشوشين حسني المعاملة.

وإني لأهدي ثنائي الجم إلى حكام رودس الإيطاليين، وإلى أخي قنصل فرنسا، وإلى سائر أولئك الذين كانوا من جملة العاملين على ترفيه عيشنا أثناء المدة القصيرة التي أقمناها في رودس.

وذكرى الدكتور مصطفي بك تشغل مكانًا خاصًّا في ذاكرتي لا تزول منه.

فما أجل المكرمات التي قام بها لنا هذا الصديق الوفي خلال هذه الإقامة القصيرة التي لا تكاد تذكر. إني سأظل حافظًا جميله وإخلاصه.

٣٠ مايو في عرض البحر

ليلة مضطربة عبوس، وبحر هائج وثاب.

٣١ مايو. سكالانوفا

لقد بلغنا هذا المرفأ المليح وسنقضي فيه بضعة أيام.

ولا يزال البحر يرغي ويزبد في الساعة المعينة من بعد ظهر كل يوم ويظل على اهتياجه وصخبه حتى منتصف الليل، وإذ ذاك تسكن ثائرته ويهدأ جأشه. وإنه لمكان شديد الخطر، وترى العين على مقربة منا مدمرة إيطالية مرتطمة.

وتتراءى المدينة قبالة البحر وقد دمر نصفها من أعمال الحرب، وعندما تنبعث الأنوار فيها مساء على مهل ينعكس شبحها البديع بشكل فتان في البحر.

وكان القائمقام فروخ بك يكثر من زيارتنا حتى أمضنا. ويا له من رجل قوي العزم مقدام.

ولا يسعني هنا إلا أن أجهر بثنائي على رقة شمائل رئيس السواحل وضباطه.

٦ يونيو في البحر

نحن نشق العباب. وعندما صرنا أمام قناة كورنتا أعلنونا بأنه مسدود منذ النوء الأخير، وأن لا بد من انتظار خمسة عشر يومًا للتمكن من عبوره. فلم يبق علينا حينئذ إلا أن نرتد إلى الخلف وأن نطوف حول الجزر ...

على أن البحر كان لا يزال صاخبًا وثابًا، والسفينة لا تزال راقصة مترجحة فوق أمواجه.

وإني كلما أمعنت في الابتعاد عن الشرق الغارق في لجج الدماء أجد ذكرى أولئك الذين غادرتهم فيه تزداد ملازمة لذاكرتي وتزيدني تفكيرًا بهم واهتمامًا بأمرهم.

٧ يونيو في وسيع الدأماء

أخذت أسير جيأة وذهابًا فوق ظهر الباخرة. وكان الجو باردًا جدًّا والليل شديد الحلكة. والريح تعصف بشدة والباخرة تترامى في أحضان الأمواج.

سيكون غدًا عيد الفطر الذي يحتفل به المسلمون كل عام وهو شهر مكرم لدى سائر مسلمي الأرض. وإن هو إلا يوم راحة وغفران وإحسان واجتماع عام وتزاور بين الجميع.

ولكن في هذا الوقت الذي تناهت فيه أحزان المسلمين سيكون الغد يوم حزن وحداد عامين! ولم يدون التاريخ مثل هذا الحادث المؤلم العصيب!

أخذ عصف الرياح يشتد، واختفت آثار النجوم من صحيفة السماء ... حينئذ ترامت بي الوحدة والوحشة إلى التفكير في الأبطال الذين فارقتهم! إنهم قوم لا يعرفون ولا يذوقون للراحة طعمًا ... فهم الآن يجاهدون وسيوالون هذا الجهاد بدون انقطاع إلى أن يستشهدوا في ساحة الشرف والمجد! وهيهات ثم هيهات أن ينتزع منهم أحد هذا الفخار! فأية أمة في العالم لها مثل هذا التاريخ الحربي الباهر المجيد؟

وما أجمل الاستشهاد عن طيب خاطر في سبيل الدفاع عن أرض الوطن المقدسة شبرًا فشبرًا كما يفعل هؤلاء الغزاة الأباة الصابرون!

إلا أن ثقتي عظيمة بالمستقبل! ولذا فأنا معتقد أنهم لن يفنوا عن بكرة أبيهم، بل سيظلون على قيد الحياة إلى أن يروا أيامًا جميلة سعيدة هنيئة تكون أجر ما صبروا وما ذاقوا من شظف وحرمان وانقطاع عن العالم وانحصار داخل نطاق ضيق من النار والفولاذ.

ولنرين بإذن الله وحوله النصر المبين مرفرفًا بجناحيه الظليلين فوق رءوس أولئكم الشجعان الصناديد على الرغم من الضنك والحرج المتناهيين في الوقت الحاضر، وعلى الرغم من ذكرى الغصص والأهوال التي توالت من قبل!

فيا أيها الزعماء النبلاء الذين يقودون الجيوش العثمانية الكاسرة الظافرة في ساحات الوغى، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، ولا تجعلوا لليأس مسربًا إلى قلوبكم الكبيرة التي عجزت عن إذلالها والتغلب على شممها وعزمها أعظم قوى العالم، وثابروا على الدفاع الباسل عن الوطن العثماني الخالد! إنكم ستصيرون الغالبين الفائزين! ولن يقدر الله لنا الفناء لأنكم يا حماتنا الشجعان إنما تدافعون عن الحرية والعدل.

أما من سبيل إلى وصول، أتمنى الفوز لكم وآمالي وتوسلاتي الحارة إليكم في العشية التي يتجلى صبحها بيوم عيد الفطر!

فسلام عليكم جميعًا أي هؤلاء الذين عرفتكم عن كثب، ويا أولئك الذين سمعت من أنبائهم ما أفادني علمًا بهم من بعيد.

فيا زملاء السلاح ويا أيها الرفاق والأصدقاء والأحباء من الزعيم الأكبر إلى عصمت باشا إلى رأفت باشا إلى يوسف عزت باشا، فسواهم من جميع الذين ترد أسماؤهم المحبوبة على لساني وشفتي، ككاظم قره بكر باشا وصلاح الدين وشكري وأكرم وفخر الدين وعز الدين وكمال بك، اعلموا أنكم ما دمتم على قيد الحياة تسلكون طريق الشرف والإباء، فإن الإسلام سيظل متمتعًا بحق الوجود في هذا الكون وسيتهيأ له الدفاع عن نفسه ورد عاديات الغرب وأهواله التي لا تحصى!

إن سائر القلوب تبجلكم وتكرمكم وتبتهل إلى الله من جميع أرجاء العالم الإسلامي أن يؤيدكم ويحرسكم ويكلل أعمالكم الجليلة بالنصر الحاسم المبين.

لقد رأيتكم في أيام بؤس وألم، فهل يقدر لي الله أن ألتقي بكم وأتملى بمشاهدتكم في أيام نعيم ورخاء وسرور وطرب وهناء؟ إني لآمل أن يتم هذا الرجاء قريبًا بإذن الله.

ولتكونوا على ثقة من أن الشرق هو الذي سيجود العالم بصيب الراحة والطمأنينة والسلام، الشرق القديم الأزلي المجيد مهد الأنبياء والحكماء والمدنيات ومحراب العقائد

والأديان ومنبت الآمال الحديثة الذي يجاهد في سبيل تحرير الأمم المضطهدة المستعبدة الراسفة في قيود الأسر والهوان.

على أن لمحة من الضوء قد انبثقت ولا تلبث أن تتحول إلى أشعة باهرة تنتشر في قبة السماء فتحدث تطورًا عظيمًا في الوجود.

ولن تقوى على مناهضة هذا الضوء أية شدة في العالم، وإنما الإحسان والرفق هما اللذان ييسران الامتزاج به والاستفادة منه. وأول ما سينير بأشعته المحسنة المرشدة اللطيفة الدولة العثمانية التي كانت أولى الدول التي أجلت في ميثاقها الوطني المبجل القيم استقلال سائر الشعوب.

فعليكم أيها الحماة المجاهدون بالصبر والمثابرة على جهادكم الشريف مدة أخرى لتروا بعد أمد وجيز هذه الأصقاع الآسيوية المشرقة المتلألئة رافلة في حلل البهجة والسعادة والسمو والمجد الذي ليس وراءه مطمح لطامع.

فليحفظكم الله ويؤيدكم بروح من عنده إلى أن تروا بأعينكم هذا اليوم الأغر المجيد.

٨ يونيو في ترانته

لقد وصلنا أخيرًا إلى القارة الأوربية.

وإني لأكل من الآن ما لا يزال واجبًا علي القيام به إلى تيسير الله وعطفه ورحمته وإحسانه، والله على كل شيء قدير.

نصر من الله وفتح قريب

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾

إن هذه الآية القرآنية، التي تم الاتفاق منذ أن ابتدأت المعارك الحالية، على أن تكون الشعار المقدس لدى سائر الأناضول، منقوشة في ضمير كل مسلم من أولئك الغزاة الذين يجاهدون في ساحة المجد والشرف بنفوس لا تعرف اليأس ولا يدنو منها الفزع.

إن المعنى المقدس المشتملة عليه هذه الآية المباركة قد امتزج بذرات أجساد الجنود، وقد ظهرت المعجزة الكبرى في معركة سقاريا التي لبثت ناشبة واحدًا وعشرين يومًا.

وإنه لعمل لم يسبق له مثيل في سائر الأعمال الحربية، ولذا يتحتم على كل منصف أن يحني رأسه أمام هذا العمل إكبارًا له وإعجابًا به.

«ستسطع مذ الآن وإلى الأبد شمس سقاريا على رأس بطل انافارتا الفتي الظافر.»[١]

إن الرجال الذين أنقذوا شرف العالم الإسلامي باستقتالهم في جهادهم الذي نازلوا مهاجميهم فيه صدرًا لصدر بشجاعة تبقى ذكراها المجيدة ما بقي العالم كان سلاحهم قليلا وذخائرهم طفيفة، ولم تكن لديهم سيارات مسلحة وفناطيس مدرعة وغازات خانقة ولا محلقات حربية، والخلاصة أن أهم المستحدثات الحربية ووسائل الاقتتال لم

[١] هذا نص التهنئة التي أرسلتها حكومة أنقرة بالتلغراف إلى مصطفى كمال باشا.

تكن متوفرة لديهم اللهم إلا شيئان كانا متوفرين لديهم أعظم مما كان موجودًا منهما لدى أعدائهم وهما: الشجاعة، والعقيدة الراسخة.

وأخذت الفصائل تترى من جبهات القوقاز والكرد والاز وقليقيا، وإذ تم اجتماعها واحتشادها في الساحة الكبرى وقف في وسطها مصطفي كمال باشا يخاطب أبطالها، وهو يهز قرضابه الساطع القاطع بيمينه قائلًا:

إن العدو مغمور بلجج الحبور لعدم توفر الذخائر بدرجة عظيمة لدينا! فليحكم الله بيننا وبينه والله خير الحاكمين! وعندي أن الذين يكاثرون ويفاخرون بما لديهم من عدد الحرب الكثيرة والذخائر المتنوعة الوفيرة هم المقضي عليهم بالهلاك، ويجب أن يموتوا أسوأ موت! وهل سمع من قبل بالسماح للمحكوم عليه بتخير آلة التنفيذ فيهم؟ فأي بون شاسع بينهم وبيننا! وماذا يهمنا من أمر الموت نحن الذين توطنت نفوسنا عليه حتى أصبحنا لا نخشاه بل صار من أهون الأمور علينا؟ إننا نحيا حياة الشرف والشهامة غير عابئين بنوع السلاح القاتل الذي يريدون إعدامنا به، ما دمنا قد وطنا نفوسنا على تحمل كل المكاره في سبيل الذود عن حريتنا واستقلال وطننا المقدس! فبينما يؤثر هؤلاء الأعداء الاغترار بالانتصارات الوهمية ويتبجحون بنشر أنبائها الملفقة في سائر أنحاء العالم ... أليس في وسعك أنت أيهذا الفيصل القاطع أن تغتنم فرصة ذلك الاغترار الكاذب، وتخفف من آلام هؤلاء المجاهدين الصابرين الذين جعلتهم المحن والأخطار المحدقة بهم من كل جانب ينتفضون حرقة ومضضًا؟ فتقضي بضربة فاصلة من حدك المرهف القاطع على ذلك الغرور؟ ومع ذلك فإن الحمام ليس بمقصور على متنك، بل إني أعلم أنه ينبعث على شكل ألسنة مندلعة من اللهب المحرق من قرارة حقدنا الذي لا حد له، كما أنه يتفجر بالمثل من الاحتقار الذي نستشعره لأولئك الذين لا يحجمون عن ارتكاب أفظع الجرائم وأخس الموبقات للتوصل إلى إفنائنا.

على أنه يجب التأكد من أننا لن نبقى على أولئك الذين أقبلوا إلينا يواثبوننا في ديارنا ظلمًا منهم وعدوانًا! وسيرون أنهم لن يفتحوا في زحفهم سوى أبواب الموت الذي سيستقبلهم بصدره الرحب، وذلك لأن المغلوب في هذه الأرض المشبعة بالدماء لن يمتلك منها سوى ما تستقر رمته فيه!

إنهم يستطيعون أن يترنموا الآن بأناشيد الظفر والانتصار، فأنا أدعهم يلهجون بأحاديث المجد والفخار. وبعد حين ستأزف الساعة التي تتعالى فيها أصواتهم المتحشرجة في صدورهم يأسًا وهلعًا وتألمًا، وتبلغ أصوات استغاثتهم واستنجادهم أعنان السماء.

ولقد كان حماة الوطن الذين اندفعوا خلف العدو المدحور يطاردونه ويضربون في قفاه بترامیهم في النهر واجتيازه سبحًا من ذراري أولئك الفرسان الذين في غروب يوم صافي السماء ساكن الريح عبروا البسفور سباحة إطاعة للأمر الموحى إليهم من زعيمهم، فطارت عقول المتنزهين الذين كان هدوء الجو وجمال الطبيعة قد حملاهم على البقاء لدى الشاطئ في هذه الساعة المتأخرة، وأذهلهم منظر هذه الشجاعة التي لا يتصورها العقل في ذلك العهد الذي كانت فيه إسلامبول لا تزال بيزانس التاريخية الشهيرة.

إن الكفاءة التي أبدتها القيادة العليا في هذه المعركة التاريخية العظيمة لا يمكن إنكارها ولن تختفي عن الأبصار آثارها. وقد توالت أدلة هذه الكفاءة بما تقوم به القيادة العليا كل يوم من الحركات العسكرية التي تشهد لها بالبراعة الباهرة.

وإذا عمدنا إلى المقارنة ما بين الخصمين المقتتلين لما وجدنا وجهًا واحدًا للمقارنة بينهما، فإن تفوق الأروام على الوطنيين العثمانيين بالغ مبلغًا لا حد له، سواء من جهة التفوق العددي الهائل أم من جهة توفر الأدوات الحربية، أم من قبيل الوسائل الفنية العسكرية التي يتولى شئونها لدى العدو ذلك المحرك المستور؛ فالعدو إذن حاصل على كل أسباب الفوز والنجاح.

ومع كل هذه الميزات التي يمتاز به العدو المهاجم، فما استطاعت جميع هذه الأشياء أن تعرقل أو تقف تنفيذ الخطة المحكمة التي أعدتها هيئة أركان الحرب العثمانية منذ ثلاثة شهور، وهي تقضي بامتناع الجيش العثماني من قبول الالتحام عند وثوب الجيش الإغريقي، والارتداد أمامه لاستجراره إلى النقطة المعينة لحدوث الملحمة، فتمت هزيمة العدو في المكان الذي كان مقدرًا له الإخفاق فيه.

ولقد صحت فروض الزعيم الأكبر ومساعديه النابغين وأمانيهم ونجحت مشروعاتهم الحربية نجاحا تخطى كل تقدير وحسبان.

لقد وصل الملك قسطنطين يوم ١٢ يونيو إلى ثغر أزمير، فاستقبل فيها بصيحات ملأت فراغ الجو متضمنة هذه الكلمات:

إلى الأمام! إلى بيزانسه! إلى أنقرة!

وكانت ملاقاته كملك أقل شأنًا من الترحيب به كرئيس حرب صليبية[٢] ولقد كان المرمى الذي يستهدفه أبطال المدنية الرومية الوصول إلى أنقرة بالتأكيد — وذلك على الرغم من التكذيبات العديدة التي صدرت منهم فيما بعد — وكان لا بد لعاصمة البطولة الخالدة أن تسقط في أيدي الأغارقة المهاجمين في يوم ٥ سبتمبر بالتدقيق ليلقوا بهذا الفتح العظيم درسًا على العثمانيين المتوحشين.

إلا أن أنقرة لم تسقط في قبضة الأغارقة، واضطر الملك قسطنطين إلى أن يؤب أتينا ... ولكن بعد أن نشر البلاغ الآتي على عساكره:

لقد أصبتم العدو بضربة في قلبه، وقد أرقتم دماءكم وهي أثمن دماء يونانية لتحرروا إخوانكم من نير الاستعباد، ولتعيدوا المدنية تارة إلى البلاد التي أتم فيها أسلافكم أعمالًا مجيدة.» إلى غير ذلك من الادعاء.

مدنية؟ أعمال مجيدة؟ ما هذه الألفاظ الخالية من المعاني؟

ولكي تتكون لدى المرء فكرة حقيقية عن «العهد الذي سيدون التاريخ ذكره بأحرف من النضار»[٣]ينبغي له أن يقارن ما بين الأناضول السخية الرافلة في حللها السندسية البهية كشأنها قبل الحرب، وهذه الصحراء الفسيحة القاحلة المضطرمة أرجاؤها بالنيران والمنحل ثراها الدامي بكفن من الأرجوان، وهي آسيا الصغرى في حالتها الحاضرة.

فحيثما مرت عساكر الجيش الرومي في هذه البقاع الخصبة الرخية تركت فيها ندبة لا تمحى منها أبد الدهر، «وهيهات أن تنبت الحشائش والأعشاب في تلك الأرجاء التي انتابها القحل إلا بعد عناء شديد» على إثر هذه الغارة الشعواء التي لا يمكن صدورها إلا من القبائل المتوحشة في العصور الوسطى.

[٢] عدد ٤٠٩١ من مجلة الاليستراسيون.

[٣] خطبة قسطنطين في بورصة.

وإن هذه إلا شئون أثبتها هنا نقلًا عن مصادرها الوثيقة، شئون لا سبيل إلى المجادلة فيها لأن الدول الكبرى تعرفها حق المعرفة.

ولم تكف الملحمة الأخيرة للموازنة ما بين القوتين المتطاحنتين ولكف المعتدي عن التمادي في عدوانه، بل لقد أعدت من الآن الوسائل لحرب الشتاء التي ستنشب في صبارة الزمهرير جالبة شظفها وأهوالها وآلامها.

ويظهر أن طريقة الانتصار العثماني اعتبرت بمنزلة «رجوع إلى نادرة حربية»، فالمخابرات السياسية الأوربية ستستغرق وقتًا طويلًا بالتأكيد، وبالطبع أن العدو لا يريد إنهاء هذه الحرب التي لا يصح أن يطلق عليها إلا اسم التخريب والتدمير بما اشتملت عليه من سائر وسائل القسوة والفظاعة المنظمة.

وستظل الحقيقة هاتكة أستار تلك المخازي التي يراد إخفاؤها حتى يعلم الناس أجمعين ما يرجو النافخون في ضرام هذه الحرب من إشعال نيرانها.

ومع ذلك فلماذا يا رباه كل هذا الحقد الغالي مرجله في صدور أولئك القوم المستعمرين على أمة اشتهرت من قديم الزمان بشدة جنوحها إلى المسالمة والمسامحة والإحسان؟ بل ما هذا الاشتطاط في العنف والطغيان الذي لا تكاد تنتهي فظائعه المشئومة؟

وما الذي ارتكبه هؤلاء العثمانيون أخلاف ذلك الظافر الغلاب فاتح القسطنطينية السلطان محمد الثاني الذي أعلن على رءوس الأشهاد: «إن شخص البطريرك الإغريقي لا يعتدى عليه.» والذي منحه كل الحقوق وسائر الميزات التي كان أسلافه يتمتعون بها من قبل.

إن الذي يحاول أن ينكر على الأمة العثمانية خلائقها الوديعة الهادئة اللطيفة فإنه يجهل تاريخ هذه الأمة الودودة المحاسنة المحسنة، ولا يدري شيئًا من حالتها النفسية المجبولة على الشرف والشهامة والإباء، فالعثمانيون لم يهاجموا البتة إلا في مقام الدفاع عن أنفسهم.

وأليس الإنجليز الذين كانوا يعجبون بالعثمانيين فيما مضى ويجلونهم لأجل كرامة نفوسهم وإخلاص سريرتهم وصدق ودهم، هم الذين أبدوا مرة أخرى — وربما تكون الأخيرة — إعجابهم بهؤلاء العثمانيين وميلهم إليهم بعد الانتهاء من حرب الدردنيل الهائلة، وذلك أنهم عندما حاولوا إخلاء شبه جزيرة غاليبولي، مدوا موائد حافلة

بكل صنوف الحلويات لخصومهم الأباة الغرانيق ذوي الشهامة والشمم «لا لأعدائهم الألمانيين»؟

وهل قصر هؤلاء العثمانيون يومًا في القيام بالواجب الأعلى، وهم الذين عندما رأوا باخرة حربية فرنسوية مصابة ومشرفة على الغرق إزاء كوم قعله سي — حينما أريد اقتحام الدردنيل — أبطلوا إطلاق مدافعهم وبدلًا من إتمام عمل التدمير والإهلاك الذي تجيزه شرائع الحروب، وأطلقوا مدافعهم في الهواء تحية وإكرامًا للفرنسويين الشجعان المقاتلين، وهتف الجنود العثمانيون من الشاطئ قائلين: «المجد والشرف للبحارة الفرنسويين الذين يموتون وهم مكالون بالفخار.»

ولقد ألقت سائر الدول سلاحها منذ إبرام الهدنة ما عدا الأمة العثمانية.

وإنما اضطرت إلى طلب الصلح وإبرام الهدنة في آخر أكتوبر سنة ١٩١٨ بباعث من الكارثة البلغارية التي أصبحت على إثر حدوثها تراقيا، بل الأستانة نفسها عرضة للخطر المباشر، لا بسبب هزيمة حقيقية قوضت دعائم قواها.

على أن الذي قوى عزمها على نشدان الصلح ما ارتاحت إليه من الوعود الخلابة الواردة في شروط الرئيس ويلسن، ولم يك ليخطر لها على بال أنها ستوائب من كل حدب وصوب، وبمثل هذه المباغتة المدهشة ولا سيما بعد تجريدها من السلاح ... «إن رأي الأقوى هو الأحكم والأصوب دائمًا» هذه هي الحكمة المأثورة التي تتبع عندما يراد حل إحدى المسائل الإسلامية!

ومع أن هذه البلاد لم تكن السبب في نشوب الحرب العالمية فإن جزاءها كان من أفظع ما سمع إذ كان نصيبها من الاصطلام والتمزيق ما لم تصب بمثله أية بقعة أخرى من بقاع العالم.

«ويل للمغلوبين!» من ذا الذي يستطيع أن ينكر وقوع الاختيار على هذه القاعدة القاسية الغاشمة في معاملة العثمانيين كلما خانهم الجد العاثر، ومن ذا الذي يجهل ما يلاقيه حتى اليوم هؤلاء المحروبين من جراء تطبيق هذه القاعة المشئومة!

وهل في وسع مثل الأمة العثمانية التعسة إذا ظلت محتفظة بمقصدها الأسمى، وهو العيش في ظلال الشرف والكرامة أن لا تقاتل بل أن لا توالي الجهاد إلى آخر نسمة من الحياة أو إلى أن تفوز بذلك المقصد الأسمى؟

أجل لتوالين الجهاد إلى النهاية القصوى ما دامت حاصلة على رجل واحد قادر على أن يقف في وجه المغير المعتدي ليرد عاديته وطغيانه.

وعندما تنفذ الحيلة ولا تبقى وسيلة لصد طغيان البحر الهائج المتوائبة أمواجه، فإن الأمة العثمانية لا تتأخر عن تنظيم خطوط الدفاع التي ستصير بمثابة سدود تمنع أمواج ذلك الطغيان من التمادي في الترامي إلى الداخل.

ومما يمكن حدوثه بالمثل على توالي الأزمان، إذا ما ظلت الحرب ناشبة أعوامًا طوالًا، ولبث نطاق الحصر مشدودًا على وسط هذه الأمة الصابرة وانقطعت كل صلاتها بالخارج، أن يعمد العثمانيون بحكم الضرورة القصوى إلى أن يتراجعوا إلى داخل آسيا، وثمت يستقبلهم الناس حيثما يمموا بأذرع ممتدة وصدور مرحبة، فيتكون حينئذ من هؤلاء الأبطال حماة الإسلام الوسط العامل ونواة التفكير اللذان يحركان، ويديران الدول والحكومات الإسلامية التي بدأت تتيقظ من ذلك السبات العميق الطويل، وهي الآن تشخص بأبصارها المتفتحة حديثًا إلى الوطنية العثمانية المستقلة في تلك البقعة المعتبرة آخر ملاذ مقدس للعالم الإسلامي لم يقبل حماته أن يطأطئوا رءوسهم صغارًا وذلًّا ليحملوا النير الأجنبي على عواتقهم.

إن مثل هذه الأمة لا يمكن إرغام أنفها وكسر شوكتها، بل لا يمكن محو القرون العشرة التي قضتها في المجد والسمو والدفاع عن الإسلام من سجل التاريخ العالمي.

إنني ما خامرني يومًا ما أقل شك في الخاتمة التي ستفضي إليها هذه الملحمة. وكلما فكرت في أن الحملة الإنجليزية التي ساقتها إنجلترا على العراق كلفتها ٩٠٠٠٠٠ رجل،[٤] في حين أن مجموع العثمانيين المحاربين كان أقل من هذا العدد، لم أتمالك نفسي من الطرب والإعجاب بقيمة هؤلاء الجنود المجاهدين الذين عرفوا كيف يدافعون دفاعًا باهرًا عجيبًا في سائر ميادين القتال متشبثين بخطة واحدة من الشجاعة والإقدام.

> ليس الذي يهمنا الآن هو الثبات في مراكزنا الحاضرة بل تثبيت العدو في مركزه الذي يحتله في هذا الوقت والاستعداد لمباشرة الهجوم الآتي القريب … وهو هجوم عام ستشترك فيه سائر القوى التي سيتم احتشادها ونظمها إلى ذلك الحين.

[٤] من تقرير المارشال ولسن الذي نشر في يوليو سنة ١٩٢٠.

هذه هي الحكمة الرشيدة التي فاه بها الزعيم الأكبر وهي توضح الخطة العظيمة التي يريد تنفيذها في المستقبل.

وما هي وسائل النجاح في تنفيذ هذا المشروع الجسيم «انتهاز الأحوال المناسبة للعمل المقرون بالنجاح والتحوط في التنفيذ».

الله أكبر! إن الأمة العثمانية متدينة جد التدين وثقتها بأولي الأمر منها وبقوادها فوق كل تصور.

إن الجندي الأناضولي لا يماثله في الشجاعة والقوة والصبر على المكاره جندي آخر على وجه الكرة الأرضية، وقد زاده عزمًا وبأسًا في هذه المرة أنه يجاهد أمام عدو اكتسح دياره وحاول استعباده.

فما الذي تقتضيه الحالة إذن لتمكينه من إحراز النصر بحد السلاح وهو النصر الوحيد الذي ينهي كل لدودة ونزاع؟

«خصب المخيلة أي توفر المشروعات الجليلة في قرائح القابضين على أزمة شئون البلاد».

إن الجنود التي تجاهد في ساحات الوغى ذات قيمة عظيمة ولا يعوزها شيء من صفات البطولة «فالوطن يمدهم بالقوة الأدبية التي تمكنهم من الثبات في مواطن الكفاح متحملين كل ما يمنون به من الشدائد والأهوال «إذا اقتضت الحال هذا التحمل».

وقبل الانتهاء من هذه السطور أعود إلى دعوة المسلمين كافة مرة أخرى، متوسلة إليهم القيام بالواجب المفروض عليهم. وبما أنهم أتباع النبي ﷺ، وقد كان صريحًا في أعماله وأقواله لا تأخذه في الحق لومة لائم، فليقتدوا بمنهاجه القويم وليكن لديهم من الجرأة ما يبيح لهم تحمل تبعة الأعمال والآراء التي يقتضيها المقام الحرج المحفوف بالأخطار.

لقد أزفت الساعة الخطيرة التي يجب فيها على المسلمين كافة أن يتضامنوا وأن يتساندوا بكل الطرق الميسورة.

وإننا لنرى الآن أن الإسلام لم يكن متحد الكلمة متفقًا في الشعور معتمدًا على نفسه يومًا ما كما هو شأنه الآن.

وما ذلك إلا لأن صلح فرساي الذي خيب آمال الجميع[5] قد أشعل حرائق فظيعة في كل مكان؛ فاللهب مندلع الألسنة والعاصفة ثائرة مكتسحة ما أمامها على التوالي في القارتين العظيمتين الأفريقية والآسيوية.

فصار من المفروض أمام هذه الحالة الشاذة على كل مسلم أن يفعل كل ما في استطاعته فعله، لإيصال هذه الحرب الناشبة ظلمًا وعدوانًا، والتي ستظل رحاها دائرة ما دامت البلاد العثمانية مكتسحة مغارًا عليها من سائر الأنحاء، إلى الخاتمة السعيدة التي ينشدها العالم الإسلامي بأسره.

لقد أصبح من المحتم علينا جميعا أن نساعد على إحراز النصر المبين. إن السلم لا يستقر في بطاح الشرق الفسيحة إلا بعد معاملة العثمانيين بالعدل والإنصاف، ولن يلوح عهد السكينة في الأقطار الإسلامية إلا بعد الاستيثاق من هذه الضمانة الكافلة حفظ تاج الإسلام حرًّا مستقلًّا.

وإذا لم نشرع مذ الآن في إتيان كل ما في استطاعتنا عمله لتدارك إخواننا المجاهدين في تلك الأرجاء النائية قبل أن يهلكوا على بكرة أبيهم، وهم مصممون على عدم التسليم والخنوع لإرادة أعدائهم، وهذا أمر نشترك جميعًا في تبعة مغبته، نصير نحن بالمثل جانين كأولئك الذين أخلوا بواجبهم الوطني من قبل.

فلنبذل أعظم جهودنا لنخفف بعض ما يكابده أولئك السابحون في لجج الغصص والآلام ولتصح عزائمنا على أن نتوج بإكليل الفوز المعجل مجهود إخواننا الأبطال إثابة لهم بالانتصار الذي آلوا على أنفسهم أن ينالوه لفائدتنا جميعًا.

وبعد استقرار السلم وانقشاع الغيوم المتلبدة في أفق المشرق يكون أمامنا مجال آخر لأعمال أخرى.

فقد اعدت مشروعات عظيمة ابتكرتها قرائح أفراد من ذوي المعلومات الواسعة لأجل احياء وترقية هذه الأصقاع المجدودة التي انتابتها صنوف الشقاء وإمدادها بعناصر الحياة اللازمة لتقوية كيانها وتمكينها من البقاء في عداد البلاد العامرة.

إن أعداء الأمة العثمانية قد أصابوا بلادها بأبلغ ضرر حتى كادوا من قسوتهم وغلظة أكبادهم يجتثون قوتها الطبيعية.

[5] خلاصة تاريخ الحرب من عام ١٩١٤ إلى سنة ١٩١٨.

إن أقوى بلاد العالم وأعظمها استعدادًا للرقي والسعادة في هذه الآونة هي البلاد التي يكون مستقبلها الاقتصادي لا حد له، وأن خصب أراضي آسيا الصغرى وما تبطنه من موارد الثروة المكنوزة لأشهر من أن أعيد على الأسماع ذكرها في هذا المقام.

فيا أيها المسلمون على اختلاف عناصركم تذكروا جميعًا أنكم إنما تنتمون إلى جنس واحد وأمة واحدة وملة وحيدة — وهذا مستمد من قول الرسول الكريم — فهلموا إلى شد أزر هذه الأمة المحروبة التي تمثل الإسلام بأسره والتي تعتبر رمز قوته وعظمته، وأعينوها على إنجاز مهمتها العسيرة الجليلة بكل الوسائل الممكنة.

وإن أوربا الحالية المتأنية المتنائية عن تلك الأصقاع ستحترمكم وستعجب بمروءتكم ونخوتكم حينما تراكم نفذتم مقاصدكم بغير تباطؤ وبلا جلبة وضوضاء، تلك المقاصد الكريمة الشريفة المثمرة، وذلك لأنها لا تلبث أن ترى هي بالمثل أفقها قد صفا وتقشعت منه الغمائم التي كانت متلبدة فيه ومؤذنة بالعواصف والأنواء.

ولنتأمل مليًّا بتدبر جراحنا العميقة الدامية، ولكن لا بأعين ملؤها الحقد والغل بل مهتدية بأشعة الحكمة متخذة من هذه الجروح عبرًا بالغة تفهمنا كنه الحياة وترينا أوهامنا وأغلاطنا، ولنجتهد في أن نقول كما قال نابليون بونابارت:

> إن المرء ليسمو فوق مستوى أولئك الذين يهاترون ويسبون إذا ما تجاوز عنهم وقابلهم بالسماح.

لقد صرح رئيس الوزارة الإنجليزية، ونحن نتذكر تصريحه هذا جد التذكر، بأن رحى الحرب ما دامت دائرة بين القوتين المتطاحنتين، فلا أمل في التوسط بينهما، وأن مفعول السلاح هو الحكم الوحيد الذي يفصل في المطالب العثمانية واليونانية ويضع حدًّا للقتال الناشب الآن بين الفريقين.

فأراد الله إلا أن نكون نحن الظافرين الغالبين في الوقت الحاضر على الرغم من سائر الوسائل الخارقة للعادة التي دبرت بمنتهى العناية والإحكام.

وها هو ذا مصطفى كمال باشا يسائل أوربا قائلًا:

> ماذا عسى أن يكون حكمها بعد هذا النصر المبين؟

وإننا لنأمل من أوربا أن لا تنتهج هذه المرة خطتها التي اعتادت على أن تتبعها إزاءنا فترهقنا بتحكمها الذي لم تعد تطيقه نفوسنا الأبية، وأن تنكب عن تلك السياسة

العتيقة الجائرة التي لم تعد تصلح لهذا الزمن، وهي سياسة «الكيل بكيلين مختلفين والوزن بثقلين متفاوتين».

وهل لم تخض أوربا غمار تلك الحرب الكبرى الزبون لأجل تحرير الشعوب المستضعفة وإنصافها؟

أَوليس لنا الحق في أن نصيح بملء أفواهنا مرددين القولة المأثورة التي رددتها فرنسا وهي:

إما أن نحيا في ظل السلام والإنصاف وأما أن نفنى!

وإني لمثبتة في هذا المقام بعض جمل من خطابة المسيو كليمانسو[٦] وهي جمل تلم بالإجمال بالمقصد الأسمى الذي يجاهد لأجله أبطال العثمانيين:

لقد حفل الماضي بحوادث الضعف وخور العزيمة كما حفل بحوادث العظمة وقوة الإرادة. ونحن لا نستبقي اليوم من تلك الأمور المنقضية سوى العظة البالغة — وهي أن نقوم بالواجبات العملية لا أن نقتصر على إلقاء الخطب الطنانة — التي يجب أن نناقشها في صحيفة ذلك العقل الفرنسوي المستنير بأشعة الشرف والإباء والشهامة الإنسانية، وهي العادات المقدسة التي اشتهر بها أسلافنا على اختلاف طبقاتهم والمصادر الحقيقية الأساسية لانتصارنا.

وماذا يفيدنا أن نتبجح بقولنا: «لقد كان آباؤنا عظماء» إذا كان أولئك الأجداد يحكمون علينا وهم رقود في بطون قبورهم بأننا صغار ضعاف النفوس؟

فلنصغ إلى أصواتهم المتعالية إلى ضمائرنا من تلك الأغوار المستورة مرددة الكلمة الآتية التي يجب أن تلبث مرسومنا المطاع المعمول به إلى الأبد، وليكن فخارنا أن تظل أبصارهم متطلعة إلينا ونحن نعمل بما رسموه لنا في نصيحتهم هذه:

«إن الوطن يجب أن يلبث فوق كل شيء سواءً في زمن السلم وأمام أشراكه الممدودة أم في وقت الحرب وتحت طائلة تشنجاته المتواترة.»

[٦] وهي مقتطفات من خطبة سانت هرمين التي ألقاها كليمانسو يوم الأحد ٢ أكتوبر.

«من المستطاع قتل العثمانيين ولكن ليس من الممكن التغلب عليهم.»[٧]

إن هذا لقول حق.

الآن وقد انتهيت من تدوين ما كان يخطر ببالي لم يبق لي ما أقوله سوى ترديد بعض بيوت شعرية من الابتهال الجليل الحار الذي صاغه في قالب النظم المحكم السلطان مراد في الليلة التي أسفرت عن صباح معركة قوصوه الشهيرة، وقد تلاها في صلاته بلسان صادق وقلب طاهر.

وقد تلا هذا الدعاء الشعري برمته في الأيام الأخيرة في جميع مساجد الأستانة. وهذه ترجمة الأبيات التي وقع عليها الاختيار منه:

بجاه النبي المحبوب جد الحب
وبذكرى كل الدماء التي سالت في كربلا.
وبتلك العيون المتنائية جدًّا الباكية أولئكم المغتربين.
وبكل الشهداء الذين ذهبوا ضحايا الدفاع عن دينك الحق المقدس خضد شوكة الإسلام وكلله بنتاج المجد والفخار.
وليرتد العدو المعتز بمنتهى القوة مغلوبًا مدحورًا.
ولتغفر لنا ذنوبنا أيها الإله الأعظم.
ولتجزنا خير جزاء عن السنوات التي قضيناها في الجهاد.
إنني أقدم نفسي فداء للجيش ضنًّا بدمائه العزيزة.
فلأكن الهدف الوحيد الذي يصيبه المرمى.
وماذا يهمني إذا ما مت في سبيل الدفاع عن الدين القويم.
جاعلًا نفسي القدوة المثلى للجيش الظافر.

ولقد فاز الجيش العثماني المغازي بالنصر المبين في تلك المعركة التاريخية الشهيرة التي اعتز بها الإسلام واكتسب مجدًا باهرًا، إلا أن السلطان مراد استشهد فيها.

[٧] كلمة قالها نابليون بونابارت.

﴿نَصْرٌ مِّنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾

إننا لشديدو التمسك بديننا وعظيمو الأمل في مستقبلنا. فالله يظاهرنا ويؤيدنا ويمدنا بالنصر المبين بإذنه تعالى.

روما في ٩ أكتوبر سنة ١٩٢١
قدرية حسين

الواجب

بقلم أحمد رفعت

١٩ يونيو سنة ١٩٢٢

الآن وقد انتهينا من نقل هذا الكتاب النفيس بل هذا الذخر الثمين إلى اللسان العربي، نرى من الفائدة أن نغتنم هذه الفرصة السانحة لنطرق أبوابًا شتى لا غنى عن طرقها إزاء الخطوب الجمة المتساقطة على الشرق والأخطار المحدقة به من كل جانب.

إن الشرق المتفككة أجزاؤه، بعد أن تداعت أركان دوله الكبرى على إثر الحروب الصليبية وحروب الاستعمار الغربي، أصبح مطمعًا لكل دولة بل دويلة غربية.

ولو شئنا أن نستقرئ أسباب هذا الضعف الهائل الذي ألمَّ بالشرق بعد تفكك أجزائه لما عسر علينا الاهتداء إليها وتدوينها.

إلا أن هذه الأسباب كثيرة وأغلبها لا صلة له مباشرة بهذا الكتاب، ولذا رأينا أن لا نتعرض لها جمعاء، وإنما نلم بأهمها مما له مساس قوي بالموضوع الذي تضمنته دفتا الكتاب، والذي إنما وضع ونشر لأجله خاصة.

وأهم هذا القسم من عوامل انحطاط الشرق وضعف دوله إذا صح وجود دول له في هذه الآونة سوى دولة الشمس المشرقة أي اليابان، إنما هو جمود أبنائه عن القيام بالواجب.

يعرف الشرقي كثيرًا عن علل سقوط الشرق في دركات الضعف والهوان والشقاء، ويدرك ما يجب عليه القيام به لتلافي هذه العلل ولكنه لا يقدم على إتيانه.

فلو وفق الله كلًّا منا، نحن الشرقيين جميعًا إلى تأدية الواجب، لكان لنا من اعتدال جونا وغنى أرضنا وكثرة أعدادنا وصحة أجسادنا وذكاء عقولنا ما ينهض الشرق من عثاره ويعيده إلى سابق مجده وفخاره.

على أننا إذا عممنا وصم الشرقيين بالتقصير في القيام بالواجب فإن لكل قاعدة شواذها، وهذه الشواذ لا حكم لها في القاعدة نفسها، ولهذا لم نشأ أن نجعل لهذه الشواذ موضوعًا خاصًّا، وماذا تفيد أعمال أفراد قلائل جدًّا في حالة بلغ من شدة حرجها أنها تكاد لا تثمر فيها مجهودات العاملين على تلافيها وإن عظمت وتعددت.

هذه الدولة العثمانية نكبت ببتر أعضائها وفناء أبنائها واحتلال الأجانب عاصمتها، فانضمرت ثلة من الثمالة الباقية من بنيتها في أقصى أركانها وفي أكفها القواضب تجاهد مجاهدة الجائد بالنفس الأخير، فهل قمنا لها بالواجب وأسعفناها ببعض المطالب؟

يعز علينا أن نقول إننا لم نفعل شيئًا! وهل يسعنا أن نذكر هنا بضعة آلاف الجنيهات التي جمعناها في أكثر من عامين وأرسلناها إلى جمعية الهلال الأحمر العثماني؟ وهل يروي رذاذ الندى روضة احتبس عنها الغيث وانقطع الغدير فأصابها اليبس والجفاف؟ وماذا تصنع قطرات قلائل في إعصار يكتسح القوافل في الصحاري القواحل؟

ولن ننسى ما جمعه الهنود والأفغانيون من المال وأرسلوه إلى المجاهدين المحصورين، وذلك المال وإن كثر عما جمعناه نحن للهلال الأحمر العثماني ليس سوى قطرة من قطرات مزنة وطفاء تتراءى في سماء الصيف الصافية!

وكيف نستطيع أن نشبه ما سخا به العالم الإسلامي حتى اليوم إعانة لأبطاله المحروبين مما جاد به في حربي طرابلس والبلقان؟

ولكن الجناح إذا تراخت قوادمه يرف على الآكام

فنحن اليوم إزاء حالة لا يفيد فيها العويل بل قد تنفعها النغبة والتعليل. وإذا كنا قد نعينا على أنفسنا تهاونها وتقصيرها، أو إذا كنا قد بسطنا حقيقة الحال على علاتها، فما ذلك من قبيل اليأس، بل من قبيل الحث على العمل النافع، على القيام بالواجب المفروض على كل فرد منا. وإلا فليس في وسعنا أن ننكر أو نتجاهل ما قام به البعض من أعمال الإعانة الجليلة.

مثل السيدة الفاضلة تأتي الخير خفية وتحث عليه جهرة، مثل الثمرة الشهية تخفي لذتها وفائدتها تحت غشائها الناضر وتغري النفوس بهما بما تنشره من الأريج الجذاب.

ذلك شأن السيدة الخيرة الأميرة النبيلة قدرية حسين التي منَّ الله عليها بنعمتي القلب الطاهر والعقل الكبير، فدفعها وجدانها الشريف إلى أن تؤدي الواجب المقدس بما يطلق ألسنة الواقفين على حقيقة عملها الجليل بجميل الثناء عليها، ثم حملتها غيرتها وحميتها على أن تنشر هذا الكتاب القيم داعية به العالم الإسلامي إلى مناصرة وتعضيد أبطال الأناضول الذين تدفقت عليهم سيول المطامع من كل جانب.

الإسراف المحمود

الإسراف مذموم إلا في موطن واحد وهو النفع العام.

وكل يوم نسمع بأنباء أولئك الذين ينفقون آلاف الدنانير في الملاهي والمتارف جزافًا غير عابئين بما قد ينتاب منابع ثرواتهم من النضوب، ولكننا قلما سمعنا بامرئ منا وهب عشرات الآلاف من الدنانير مثلًا في سبيل النهضة الشرقية، أو لأجل إنقاذ الأمة الإسلامية من الخطر المحدق بها، فمثل سراتنا مثل وزارة أوقافنا تنفق آلاف الدنانير على ترفيه نفر من كبار موظفيها وتقتر في الماء والزيت والبترول والكهرباء المخصصة لدور العبادة معتمدة على قوله تعالى ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾!

على أن الله قد قيض لهذه الأمة من أميراتها من تعرف كيف تبذر وتسرف في سبيل الفائدة العامة فجاء عملها هذا مستوجبًا الحمد داعيًا إلى إطرائها عليه.

تلك هي الأميرة قدرية حسين التي دفعتها عواطفها الكريمة إلى إيفاد وطنينا الفاضل هـ. زاده، الذي نحترم إرادة الأميرة الشابة ورغبة ذلك الرسول العزيز في بقاء هذا الرمز علمًا عليه، رسولًا من قبلها إلى بطل الأناضول بل بطل الإسلام بل بطل الشرق، إن شاء الله مسلمًا عليه ومشجعًا له وموصلًا هديتها الثمينة إليه بل إلى حماة الإسلام الذائدين عن حياضه.

ولقد نمت إليَّ من مصادر غير مصدر الأميرة الجليلة أنباء هذه الهدية التي لا يمكن تقديرها، والتي صادفت خير وقت موافق لها. وكنت أود لو استطعت أن أذكر تفاصيلها، ليعلم ذوو الأموال المكتنزة منا أن بين سيداتنا الفضليات من هي أكبر نفسًا وأطهر قلبًا وأذكى عقلًا وأعرف بالواجب من مئات منهم! إلا أنني أخشى لو أفضيت بمعلوماتي في

هذا الصدد أن يكون عملي هذا على غير رضاها، وما كنت لأسخط سيدة، ولا سيما إذا كانت متجملة بمثل هذا الشعور السامي.

جعلت عنوان كلمتي هذه «الإسراف المحمود» وأريد أن أعود إلى هذا العنوان فأقول: أجل إنه لإسراف محمود وتبذير من جيبها الخاص لتقديم تلك الهدية القيمة إلى معشر لو أتاح الله لهم الخلاص من الغمرة التي يكابدون الآن أهوالها لرأينا من أعمالهم المجيدة ما يجعلنا نطير في الجو فرحًا واستبشارًا. نعم نرى من أعمالهم العظيمة أمورًا تطير بقلوبنا ابتهاجًا، لأن تلك الأعمال لا تعود فوائدها عليهم وحدهم بل على العالم الإسلامي قاطبة ومن المؤكد على الشرق عامة.

ولقد يلاحظ القارئون أن بطل أنافارتا وسقاريا مصطفى كمال باشا كلف هـ. زاده بواسطة روشان أشرف بك بمهمة أخرى، ولا شك في أنها مهمة عظيمة، ومن المحقق أن أميرتنا المحبوبة قد أجابت سؤله، وحملت نفسها في سبيل القيام بالواجب إسرافًا آخر يستوجب الإطراء والإعجاب، وإن كانت أحاديثه لم تصل إلى هذا القطر حتى الآن.

أفيروف!

اسم أشهر من نار على علم ذاع صيته في حرب البلقان، ولا يزال ذائعًا حتى الآن، لأنه مطلق على أعظم مدرعة في أسطول اليونان.

فمن ذا الذي لقب هذه المدرعة الضخمة بهذا الاسم الشهير؟ وهل هو من أسماء الأبطال البحريين أو من أسماء كبار القواد البريين أو من أسماء رؤساء العصابات اليونانية الفدائيين؟ كلا إنه اسم رجل من التجار الأروام الذين نسلوا إلى ديارنا المصرية العزيزة وربحت تجارتهم فيها، فآثر وطنه بالشطر الأكبر من ثروته التي ضاع نفيس عمره في تحصينها إذ ابتاع به هذه الدارعة التي خلدت اسمه في سجل التاريخ الوطني. فسقيًا له من وطني غيور شهم كريم!

والآن لنتذاكر فيما بيننا، أسمعنا أن أحد أغنيائنا تبرع لمصر لا للدولة العثمانية بنصف مليون دينار كما فعل أفيروف؟

أذكر، والذكرى شجون، أن اثنين من سروات المصريين الذين كانوا في القسطنطينية أثناء الحرب البلقانية، وعدا رجال الحكومة العثمانية بأن يتبرعا بثمن قطعتين بحريتين حربيتين، ولعلهما مدمرة ونسافة وثمنهما معًا لا يبلغ مائة ألف دينار. ولكن ما أبعد الخلف بين القول والعمل.

والآن أستعرض في ذاكرتي اسمي هذين السريين بين أسماء المكتتبين لإعانة الأناضول، فلا أجد لهما أثرًا كأنهما لم يحملا شارات المجد من تلك الدولة المسكينة، أو كأن أحدهما لم يكن على وشك الاندماج في سلك الوزراء العثمانيين!

وإنما آثرت هذين الوجيهين بالذكر لأنهما من أقدر سراة القطر على القيام بالواجب المفروض عليهما لدينهما وللمدافعين عن حياض هذا الدين، ولم يحركا ساكنًا ويلفظا ببنت شفة في هذا الصدد.

وآه ثم آه لو انبرى عشرون سريًّا من سراة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها للتبرع بثمن قطع صغيرة للأسطول العثماني منذ بدئ في إعادة تنظيم الجيش البري والبحرية العثمانيين في عام ١٩١٠، إذن لما طمعت إيطاليا في اقتطاع طرابلس الغرب من جسمان الدولة العثمانية، ولكانت مصر متمتعة الآن باستقلالها وحريتها الحقيقيين، بل ربما كان الشرق كله رافلًا في أثواب النعيم!

ولكن قصر المسلمون في القيام بالواجب من قبل، ولا يزالون مقصرين حتى اليوم، في حين أن مصر تبرعت أثناء الحرب الكبرى إن كرهًا أو اختيارًا بمئات الألوف من الدنانير لتذكار كتشنر وللصليب الأحمر ولسواهما من الشئون الأخرى التي لا تهم مصر بتاتًا.

إن الإسلام في أشد الحاجة إلى رجال يجودون بأنفس ما لديهم من الأموال كما فعل أفيروف المحسن العظيم لوطنه، وكما فعل ساكنا الجنة رضوان الله عليهما محمود شوكت باشا الصدر الأعظم الأسبق، الذي عندما أراد التحرك بالجيش من سلافيك لتأييد الدستور في الأستانة، ولم يجد في خزانة الحكومة مالًا للإنفاق على الجيش الزاحف تبرع بكل ما يمتلكه من حطام الدنيا الفانية، وهو ثلاثة عشر ألف دينار، ومحمد سعيد حليم باشا الصدر الأعظم السابق الذي قضى نحبه شهيدًا في روما، فإنه لم يتأخر عن رهن أهم أملاكه العقارية في الأستانة على بضع مئات الألوف من الجنيهات لسداد الأقساط الباقية من ثمن القطع الحربية الكبرى التي كانت تصنع في إنجلترا، وعدت عليها عوادي الجشع والغدر والظلم عند نشوب الحرب العالمية الكبرى …

لو أتاح الله للإسلام أمثال هذين الشهمين الكريمين البارين بالأمة الإسلامية لما اندك صرح الإسلام المجيد، ولما تهاوت دعائمه المحكمة، ولما صارت بقاعه نهبًا مقسمًا، ولما أصبح بنوه أسارى الاستعباد يرسفون في قيود الذل والهوان!

حيا الله ذكراك يا أفيروف، وسقى قبرك الغيث الهتان، فإنك اقتفيت أثر الصحابي الكريم الذي جهز غزوة كاملة من ماله الخاص رضي الله عنه!

ولكن أي أفيروف! لا تحسبن أننا تجردنا من الشهامة والنخوة والمروءة والحمية، ولتعلمن أن دماء الإسلام لا تزال تجري في عروق سيداتنا النبيلات إذا لم تجر في أوشجة رجالنا الأغنياء، الذين أنعم الله عليهم بمئات الألوف من الأفدنة وبعشرات الملايين من الدنانير المكتنزة في المصارف المالية الأجنبية، خلا ما يعلم الله مقداره من الذهب المدفون في جوف الثرى!

فالإسلام والحمد لله يا أفيروف بخير ما دامت إحدى بناته تجعل فرض العين الذي قضته عن نفسها كفاية تؤديه عن سائر المسلمين …

هذه كلمة أسوقها عرضًا ولعلها تضرم نار الغيرة والحمية في قلوب أبناء الأمة الإسلامية التي رأت من عبر الزمان ما يزيل لوثة الوسن عن أجفانها وينبهها إلى حقيقة ما يجري أمامها.

ما الذي يهمنا من أمرهم؟

حينما شرعت في تعريب «الوطنية العثمانية» ابتدرني فتيان نابغان من خيرة الطلبة بهذا الاستفسار: «ما الذي يهمنا من أمر الأتراك؟ ولماذا تهتم بشئونهم، ولا تكتب شيئًا في المسألة المصرية، وقد كنت من جملة المهتمين بحلها، ولو أصبت في سبيلها بالهم الكبير؟»

فاشتد حبوري لسماع هذا السؤال الذي كنت أنتظر أن يلقيه على أحد أبناء وطني الأعزاء، بيد أني لم أجد الفرصة سانحة إذ ذاك للإفاضة في تفسير هذا الاستفسار بل اقتصرت على تلاوة التمهيد الذي افتتحت به كتاب الوطنية العثمانية، وفي مقدمته هذه الكلمة «حياة الشرق في اتحاد عناصره» ثم قلت لهما: ألا تريان أن المسألة المصرية قد تقدمت خطوة في سبيل الحل بفضل اندماج العنصرين المصريين الكبيرين، القبطي والمسلم، بعضهما في بعض واتحادهما في العمل لأجل تحرير الوطن واستقلاله؟ وألا تعلمان أن التضامن العجيب قد فت في عضد الخصم وحيره وأجبره على احترامنا واحترام أمنيتنا السامية العامة؟ وهل لم تلاحظا أن اختفاء المسألتين القديمتين، القبطية والإسلامية، من ميدان العمل وخلو هذا المجال للمسألة الكبرى، وهي الوطنية المصرية، قد وحد جهودنا وقوى عزائمنا وشل أيدي الدسائس التي كانت تفرق في الخفاء بيننا، فأصبحنا بفضل الله إخوانًا متصافين متضافرين على تحرير وطننا المقدس المحبوب؟ فإذا كانت كل هذه المزايا الجليلة قد تمت في مصر التي لا يزيد سكانها على أربعة عشر مليونًا من الأنفس بفضل الاتحاد، وليس لديها جيش وطني يذود عن حوضها ولا معامل

أسلحة وذخائر ولا قواد كبار مدربون لهم عزائم تزحزح شم الجبال من أماكنها، فكيف بعالم هائل مؤلف من أكثر من ثلاث مئة مليون نفس متوفرة في مجموعه سائر المطالب التي تعوز بعض أجزائه، إذا اتحدت عناصره وتكونت منها كتلة كبرى تخيف أعداءه وهي الجامعة الإسلامية؟

حينئذ أنعم الشابان الذكيان الغيوران في التفكير ثم تهللت أسارير وجهيهما المشرقين وقالا: إنك لعلى حق في كل ما قلته، وليس لنا ما نعترض به عليك بعد الآن.

حياهما الله وبارك فيهما! إن الشباب النابغ النافع يصل نور الحجة الناصعة إلى قلبه الطاهر بغير استئذان فيفعل فيه مفعول السحر الحلال.

ولكن ذلك الجواب لم يكن كافيًا ولا أزال غير قادر على بسط الإجابة الكافية إذ ليس كل ما يعلم يقال، وليس من الصواب أن يهاتر المرء بشقائق قد تضر أكثر مما تفيد. إلا أن ما لا يدرك كله لا يترك قله.

إني لا أعرف شيئًا اسمه المسألة التركية، لأن العنصر التركي البحت الذي تحرك من بلخ في القرن السابع الهجري تحت إمرة سليمان شاه وأرطوغرول يكاد يكون قد اختفى بتاتًا، أو إذا كانت لا تزال له بقية فهي من غير شك تمثل أصغر عنصر في كيان الأمة العثمانية، ولو تركت وشأنها لما أحس بها أحد ولما قامت لها قائمة، فكتابتي إذن تدور حول محور المسألة العثمانية، وحل هذه المسألة ينتج تحرير الأمة العثمانية وإنهاضها وتقويتها، وإذا ما تمت هذه الأمور الثلاثة فإن أكثر من ثلاث مئة مليون نفس تهدأ وترتاح وتنعم بالًا وتطمئن على مستقبل بلادها، وإن كانت ستمنى بشيء من القلق والإزعاج والألم في أوطانها قبل بلوغها أمانيها السامية.

إنني أهتم بالمسألة العثمانية جد الاهتمام لعدة أمور:

أولها: كانت توجد هيأة منظمة معترف بها تسمى الدولة العثمانية، ولا يزال لها حتى الآن أثر قوي محسوس في الوجود. وهذه الدولة هي التي صدت تيار الاستعمار الغربي عن الشرق عدة قرون، وهي التي احتفظت بتاج الخلافة الإسلامية والعلم النبوي.

ثانيها: أن حل المسألة العثمانية طبق رغائب المسلمين هي أوفق وأرجح حل للمسألة الشرقية التي أتعبت أوربا، وأتعبت العالم أجمع، وكانت من أهم أسباب الحرب الكبرى، وربما تكون من أهم البواعث على نشوب حروب عالمية أخرى ما دامت باقية بغير حل معقول منطبق على مصالح الشرقيين أنفسهم قبل كل شيء. والحل المعقول المقبول هو الذي أعلنه الهنود.

ثالثها: أن بلاد الدولة العثمانية الحرة المستقلة هي المعقل المنيع للإسلام، والملاذ الذي يلوذ به كل المطاردين المشردين من سياسي المسلمين خاصة والشرقيين عامة. فالطلبة الذي حرمتهم سياسة الاضطهاد ومصادرة الأفكار الحرة في إتمام دراستهم في مصر لجئوا إلى الأستانة، ففتحت لهم أبواب جامعتها ومدارسها العليا، وأتموا تلقي العلوم فيها ثم اندمج كثيرون منهم في وظائف حكومتها. والوطنيون المتطرفون الذين يراد إرهاقهم بالعقوبات المتتالية حتى تخرس ألسنتهم هرعوا إلى الأستانة، فقوبلوا بصدور رحبة ووجوه باشة بل توالت عليهم المساعدات المالية من مصادر عثمانية متعددة، وأصدروا الجرائد والمجلات وخطبوا وأنشئوا الأندية السياسية.

رابعها: أن البلاد العثمانية أوفق بقاع لمن ضاقت به سبل الارتزاق في البلاد الشرقية الأخرى، أو لمن أراد استثمار ماله في أضمن المشروعات الاقتصادية المتعددة. وبما أن مساحة الأناضول تبلغ ٤٩٠٠٠٠ كيلو متر مربع لا يشغلها أكثر من تسعة ملايين من الأنفس، فهذه الأراضي الواسعة في أشد الحاجة إلى الأيدي العاملة وإلى الأموال المستثمرة. لهذا فكر المصريون المقيمون في الأستانة قبل الحرب في إنشاء شركات استغلالية شرقية بحتة تستثمر وتعمر هذه الأرجاء الفسيحة، ووافق رجال الدولة العثمانية على تحقيق سائر المشروعات المصرية، بل لقد أقطعوا بعض المصريين قطعًا من الأراضي الزراعية الخصبة في ولاية أطنه وفي ضواحي الأستانة، كما أنهم كانوا مستعدين لإقطاع كل من يقدم إليهم من البلاد الإسلامية المختلفة ما يكفيه من الأراضي الزراعية ولإمداده بالبذور والحيوانات والأدوات الزراعية، وإعفاء هذه الأراضي من الضرائب والرسوم بضع سنوات، وتقسيط أثمان الحيوانات والبذور والآلات الزراعية على أعوام طوال. وهذه فوائد لا يجدها المسلم خاصة والشرقي على العموم في أية بلاد أخرى.

خامسها: أن التعليم بوجه عام وتعليم الفنون الحربية والبحرية بوجه خاص لم يكونا ميسورين بلا نفقة مطلقة، أو بنفقة زهيدة جدًّا، كتيسرهما في بلاد الدولة العثمانية، التي لم تكتف بفتح أبواب مدارسها لقصادها من سائر الأمصار الإسلامية، بل حملت أطفال الطرابلسيين من بلادهم إلى البلاد العثمانية بعد الاعتداء الإيطالي المشئوم على طرابلس وتولت تثقيفهم وتعليمهم.

فلهذه الأسباب ولأمور أخرى سواها لم أشأ أن أتبسط في سردها الآن أرى — ويشاركني في هذا الرأي كل شرقي حكيم مستنير يحب استقلال وطنه وسعادته — وجوب التضافر على إنقاذ الدولة العثمانية وإنهاضها وتقويتها.

وفيما أنا مشغول بكتابة هذه السطور وقفت على كتاب موجه من إخواننا السوريين إلى مصطفى كمال باشا يعاتبونه فيه على ما بدر من بعض رجال الحكومة الوطنية العثمانية في صدد المسألة السورية، ولعمري إنهم لمحقون في الاستنجاد بالنخوة الإسلامية المتأصلة في نفوس حماة الإسلام وأبطال الشرق، ولكنهم أحق بالمثل القائل «الصيف ضيعت اللبن» فإن إخواننا السوريين سامحهم الله كانوا من أقوى العناصر العاملة في أثناء الحرب الكبرى على طعن الجبهة العثمانية من خلف تسهيلًا لأعداء الشرق والإسلام على اكتساح البلاد السورية؛ أملًا في التخلص من الرابطة العثمانية والفوز بالاستقلال الموهوم، فكان نصيبهم أن انقطعت الصلة التي كانت تربطهم بإخوانهم وضاع عليهم حلم الاستقلال اللذيذ عندما تفتحت عيونهم على وضح الحقيقة الناصعة.

ولكنا الآن أحوج ما نكون إلى اطراح التعاتب وإلى تناسي الماضي لأن لكل منا حسناته وهناته، فإذا كان إخواننا السوريون قد طعنوا الجبهة العثمانية الغربية من الخلف، فقد اشتركنا نحن والهنود في طعنها في الصدر، وطعن الهنود الجبهة الجنوبية في قلبها، فكلنا في الهوى سوى، وإن اختلف موقف الهنود والمصريين عن موقف السوريين.

أقول ما لنا وللعودة إلى ادّكار الماضي ونحن أحوج ما نكون إلى التفكير في الحاضر. يقول إخواننا السوريون في كتابهم: «ولم يتركوا فرصة حتى انتهزوها لإظهار عطفهم على القضية الوطنية التركية العاملة ضمن قيود ذلك الميثاق.» ولست أدري معنى العطف الذي أظهره إخواننا السوريون على المسألة الوطنية العثمانية ومبلغه من التأثير في حالة حماة الإسلام وأبطال الشرق المحصورين من كل جانب المحرومين من سائر المطالب! فإن كان عطفهم مقصورًا على الشعور القلبي والوجدان النفسي، أو محصورًا ما بين طائفة من الأفواه أو رزمة من الصحف، فما كان أحرى إخواننا أن يبقوه في طي الكتمان، وأن لا يوردوه على شباة القلم أو عذبة اللسان، وأما إذا كانوا قد أعربوا عن هذا العطف بآيات باهرات من الإعانة والتعضيد والتشجيع، ولو من قبيل ما فعله إخوتنا الهنود، وما فعلناه نحن المصريين على ضآلاته، فليسحروا ألبابنا ببيان تلك الآيات الباهرات لنقول: «لله الحمد فإن الخير لا يزال باقيًا في الإسلام!»

وإنني بهذه المناسبة لا يسعني إلا أن أجبه إخواننا السوريين بمر العتاب على تقاعسهم عن العمل الناجع لمساعدة الوطنيين العثمانيين، وكما أني أمتعض للتصريحين

اللذين فاه بهما بكر سامي بك وفريد بك — إذا صحت رواية النقل عنهما — فإني أشمئز من الجمود الذي يبديه السوريون إزاء الاكتتاب العام للأناضول والمساعدات الفردية الجسيمة التي يؤديها ذوو النخوة والنجدة والحمية الإسلامية من هنود وأفغانيين وقوقاسيين ومصريين. بل لقد اكتتب التونسيون والجزائريون ببعض الأموال لتلك البقعة البائسة المحروبة، ولم يحرك السوريون ساكنًا، فهل لا يتذكر إخواننا السوريون قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ وأي بر وتقوى أفضل من إعانة إخوتنا الذين طردوا إلى ركن قصي من وطنهم وحرموا من سائر وسائل الدفاع عن النفس، ولماذا؟ لأنهم حماة الإسلام ومحررو الشعوب الشرقية!

عواقب الانقسام

حينما وقف الرسول ﷺ بين إخوته المسلمين يقول لهم: لا جنسية في الإسلام. والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، أو ما هو أقرب من الألفاظ إلى هذه المعاني، اتحد المسلمون وأدركوا في أقل من ثمانين حولًا ما لم يدركه الرومان في أكثر من ثمانية قرون. فلما أريد لهذه الأمة أن تأفل شمس عزها ويندك صرح مجدها وتندرس معالم مدنيتها وتزول حسنات إنسانيتها، تعدد ملوكها وسلاطينها وأمراؤها، بل لقد أصبح خلفاء الرسول ثلاثة أي صار للجمهورية الإسلامية ثلاثة رؤساء.

أقول الجمهورية الإسلامية لأن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى ولم يستخلف أحدًا، فترك الأمر شورى بين المسلمين لهم أن يختاروا من يجعلوه رئيس جمهورهم.

فلما أخل المسلمون بعهد الرسول وتحولت الخلافة إلى ملك عضد يتوارثه الأبناء عن الآباء، استبد الخدم والأتباع بالأمر وصار الملوك والسلاطين رجالًا ضعافًا لا يستطيعون أن ينظروا في شئون دولهم، وكان من جراء ذلك أن استقل الولاة وأغلبهم من الخدم والأتباع بالولايات التي يديرون شئونها. ثم حملتهم أطماعهم على أن يحارب بعضهم بعضًا أملًا في استيلاء كل منهم على ما في قبضة الآخر من الأمر والنهي. فسادت الفوضى وساءت الأحوال وتحكم في أعناق المسلمين الظلمة والجهال.

وبينما الانقسام يمزق كيان الأمة الإسلامية إذا ببطرس الناسك يهيب بأوربا المختفية في ظلمات الجهل والخمول والهمجية: انهضي أيتها القارة الغارقة في لجة الوسن، وأنقذي البيت المقدس من براثن أولئك الوحوش الكواسر، واكتسحي تلك الأراضي الخصبة الغنية التي لم يعرف أبناؤها كيف يستغلونها ويتمتعون بخيراتها الوفيرة! انهضي في هذا الوقت

المناسب الذي أخذ أولئك البرابرة المتفرقون يمزق فيه بعضهم أشلاء بعض! انهضي واحملي صليبك وجوبي به أنحاء الشرق الملوثة بدماء بنيه!

طاف ذلك الراهب التقي الغيور المبارك ممالك القارة الأوربية مستصرخًا ملوكها وأمراءها، فصادفت دعوته آذانًا مصغية وقلوبًا واعية وسواعدَ قوية، فكانت أولى الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر.

توالت الحروب الصليبية الكبرى ثلاثة قرون تقريبًا، استولى في غضونها الصليبيون على بيت المقدس وعلى مدن وبقاع كثيرة من آسيا وأفريقيا، والمسلمون لا ينفكون يتقاتلون فيما بينهم، حتى إذا ما انتهت الغارات الصليبية الثماني وارتد الغربيون من الشرق متخلين عن الأماكن المقدسة كانوا هم الفائزون في الواقع، لأنهم أخذوا علوم الشرق وفنونه وآدابه، فنشروها بلغاتهم وجعلوها أساس نهضتهم الحديثة.

وينبغي لنا أن نلاحظ في هذا المقام أن الذي كان يكافح جموع الصليبيين في كل إغارة ملك واحد من ملوك المسلمين، وما سمعنا أن سائر ملوك الإسلام وأمرائه اجتمعوا واتفقوا على دفع تلك الإغارات.

وإذا أيقن الغربيون أن الشرق لا يزال قوي المراس، وأن ملوك المسلمين لا يزالون ذوي منعة وصولة عظيمتين، تركوهم وشأنهم يأكل الحقد قلوبهم وتمزق يد التفريق وحدتهم، بينما يشتغلون هم بتهذيب وترقية وتوسيع ما نقلوه من أساليب الحضارة الإسلامية التي يطلقون عليها المدنية العربية.

وإذ صار أغلب ملوك الإسلام وأمرائه من خدم أمراء المؤمنين الذين لا يعرفون من العلوم والآداب شيئًا، فقد بدأت النهضة الإسلامية العلمية، التي وضع أساسها القرآن بما احتوى من الآيات العديدة الحاثة على التعلم والمشرفة قدر العلم كقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وكقوله جل وعلا: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى غيرهما من الآيات والأحاديث الجمة، تتداعى أركانها التي هي قواعد الدين الإسلامي، لأن هذا الدين قائم على أصول علمية مكينة كالوحدة التي تعتبر أساس العلوم الرياضية بأسرها، وكبلاغة القرآن التي أعجزت بلغاء العرب أجمعين، وكانت ينبوع العلوم والآداب والفنون الإسلامية التي نقلها الصليبيون إلى أوربا، فأصبح الشرق بؤرة الشر والجهل والظلم والفساد ولا سيما التفرق والتناحر.

وبعد أن تحسنت أحوال الغربيين وانتشرت في ربوعهم المدنية الإسلامية التي استفادوها من الشرق ومن الدولة الإسلامية الأندلسية، ورأوا ما آل إليه الشرق من

الانحطاط والتمزق، شرعوا يكتسحون بلاده، ولكن بطرق أخرى غير الطرق الحربية الأولى أهمها: بث الدسائس والفتن بين العناصر التي يتكون منها العالم الإسلامي ليدوم الانقسام فيها، ريثما يعملون هم بوسائل مختلفة على اقتطاع أضعف العناصر المنفصلة عن الكتلة الإسلامية الكبرى.

ولئلا يقع بينهم الشجار والقتال بسبب هذه الغنائم المستلبة أخذوا يعقدون المؤتمرات السياسية ويبرمون الاتفاقات السرية التي يتساومون بواسطتها فيما بينهم على ذلك النهب المقسم.

وإنني لأسطر في هذا المقام بمداد من عبراتي أو من دمي أو بأحرف من المنار المنبعثة من قلبي الآسف المتلهف الحزين نادرتين شهيرتين تدلان على مبلغ ما وصلنا إليه من التقاطع والتخاذل والانقسام:

أولاهما: تتضمن ضياع الأندلس من حوزة الإسلام بتاتًا، ففي هذه الآونة أي في أواخر القرن الخامس عشر كانت الدولة العثمانية في عنفوان شبابها وشدة قوتها وصولتها، فقام أهل الأندلس يستصرخون إخوانهم المسلمين في سائر أرجاء العالم الإسلامي لإنقاذهم من فرديناند الكاثوليكي وزوجه إيزابلا، اللذين حاصرا غرناطة وأوشكا أن يقضيا القضاء الأخير على دولة الإسلام التي كانت زاهية هنالك، فلم تحرك الدولة العثمانية على عهد بايزيد الثاني ساكنًا لإنقاذ تلك الدولة التي أصبحت في خبر كان. وكذلك لم تحرك الدولة المصرية جنديًّا واحدًا لهذا الغرض الشريف. وإن في قصيدة شاعرهم النونية الشهيرة ما يقطع الأكباد أسى وحسرة!

والنادرة الثانية: زحف محمد علي باشا والي مصر على الأستانة في الوقت الذي أباد فيه السلطان محمود جنود الينيشارية مستعيضًا عنها بالنظام الحربي الجديد الذي عم أوربا. فلم يمهل والي مصر خليفة المسلمين المدة الكافية لإتمام الصلح الجديد وتثبيته، بل قضى بانقسامه على دولته على كل أمل في إنهاضها وتقويتها، وكان هذا العمل مدعاة لموت السلطان محمود كمدا حزينا! ولم تقم للدولة العثمانية قائمة من ذلك الوقت إلى الآن، لأن أوربا انتهزت هذه الفرصة ولم تسمح لهذه الدولة الشرقية المحروبة بأن تجد الوقت الكافي لاستجماع قواها وتنظيم شئونها بما تخلقه لها من الدسائس الخفية، وبما تشهره عليها من الحروب المتوالية. ولقد كان جزاء مصر من هذا العمل أن سقطت في شبكة الاستعمار الغربي وعجزت الدولة العثمانية عن إنقاذها من جراء الضربة القوية التي أصابها بها محمد علي باشا وبقيت آثارها إلى هذا الحين.

الوطنيات الشرقية

أراد الغربيون أن يدسوا على الشرق دسيسة هائلة تقضي عليه بالسقوط الأبدي، فنشروا دور تعليمهم التي تدس السم في الدسم ملقنة أحداث الشرقيين مبادئ لا تنطبق على حالة الشرق ولا على مصلحته، فشب هؤلاء الأحداث ما بين مسيحيين وإسرائيليين ومسلمين على التشرب بروح البغضاء للدولة العثمانية راغبين في الانفصال عنها لتكوين وطنيات خاصة بها، فجاء هذا السلاح المسموم أضر على الدولة العثمانية خاصة، وعلى الشرق عامة، من الدسائس العنصرية ومن الحروب الاستعمارية المتفرقة. وذلك لأن هذه المبادئ التي أفادت في أوربا المتألفة من كتلة مسيحية كبرى — تكاد لغاتها تتجانس — سممت الأفكار الشرقية ونزعت منها كل أثر للاتحاد، فاندفع الشبان المستنيرون إلى المطالبة باستقلال بلادهم، وهم لا يدرون أن الاستقلال شرك ينصبه الغربيون لاصطياد بلادهم به.

على أن الدولة العثمانية لم تجهل خطر هذا السلاح الجديد، فأخذت تجاهد بكل ما في وسعها لحفظ كيانها، علمًا منها بأن هذه العناصر إذا تفرقت سقطت في قبضة أوربا ولم يفدها انفصالها من الرابطة العثمانية سوى الوبال.

وأبى شبان العناصر المختلفة أن يخضعوا للقوة، فارتموا في أحضان الدول الغربية التي أوهمتهم أنها نصيرة الأحرار، وشجعتهم بالأموال وفتحت لهم صدور صحفها.

وظلت الحالة قلقة مضطربة مؤذنة بتفاقم الشر حتى شبت نيران الحرب الكبرى. هنالك شرعت العناصر المختلفة تساعد الدول المعادية على قهر الدولة العثمانية وإذلالها آملة أن تساعدها تلك الدول بعد انتهاء الحرب على الفوز بالاستقلال.

وانتهت الحرب الكبرى بضياع أجزاء مهمة جدًّا من مجموع الدولة العثمانية، ولكن البلاد المنفصلة لم تتحرر وذهب حلم الوطنيات المستقلة مع ليالي الآمال اللذيذة التي كان الشبان العثمانيون المستنيرون يقضونها في نوم الغفلة والغرور.

على أن أحرار العثمانيين فطنوا للعواقب الوخيمة التي ستنتجها مكيدة النزعات الوطنية، وعلموا أن محاولة القضاء بالقوة على هذه النزعات التي تأصلت في النفوس — كما حاولت ذلك حكومة عبد الحميد المستبدة — ليس من ورائها سوى توسيع الهوة وإزادة النقرة وتمكين العدو من ثغرة يصل بها إلى داخل البلاد العثمانية، فشرعوا يتفاهمون مع سائر العناصر العثمانية بالحسنى، وبدأوا في إعداد طريقة مثلى لإنالة هذه العناصر أمنياتها أو ما يقرب منها، مع بقائها مرتبطة برابطة الجامعة الكبرى التي

تحفظ كيان هذه المجموعة الكبيرة من التمزق والسقوط تحت براثن وحوش الاستعمار، وكادوا يصلون بالفعل إلى تحقيق الغرض الأسمى لولا قيام الحرب الكبرى.

أما الآن وقد انحلت الروابط التي كانت تربط المجموعة العثمانية، وأدرك عقلاء العناصر التي سقطت تحت نير الاستعباد الأجنبي أنهم كانوا مخدوعين بالأماني التي زينها لهم الدساسون الأجانب، فمن الواجب على هؤلاء العقلاء أن يعملوا بقدر استطاعتهم على إيجاد صلة اختيارية قائمة على المصلحة المشتركة بين الجميع تصل بين كل الوطنيات الشرقية الرازحة تحت عبء الاستعمار. ولا يتسنى تحقيق هذا المقصد إلا بالالتفاف حول نواة هذه الوطنيات، وهي قوة الوطنية العثمانية التي تجاهد الآن حق الجهاد لأجل الشرق بأسره، والتي تعلم الدول الأوربية خطرها على الاستعمار الغربي، فتعمل في السر والعلن وبطرق شتى لمحوها من عالم الوجود حتى لا تظل الوطنيات الشرقية معلقة آمالها بها، وحاملة بالخلاص والاستقلال على يدي هذه الوطنية المسلحة القوية.

والالتفاف المنشود حول هذه الوطنية لا يكون بالقول أو بالتمني، بل يكون بتعضيدها تعضيدًا ناجعًا يضمن لها النجاة من الموقف الحرج الذي أوقفتها أوربا الناقمة عليها فيه.

الأقليات في الشرق

كانت الأقليات في الشرق من جملة العلل التي تتوسل بها الدول المستعمرة للتداخل في شئون الأمم الشرقية، أو بالأحرى لخلق الأسباب التي تجيز لها التحكم في هذه الأمم، ثم إخضاعها والاستيلاء على بلادها المستقلة بعد مماحكات تؤدي إلى امتشاق الحسام، ولقد فقهت هذه العناصر التي يطلقون عليها اسم الأقليات بعد تجارب عديدة أنها آلات مسخرة للدول الغربية المستعمرة، وأن الغرم كله عليها والغنم لتلك الدول التي تستخدمها، وأن البلاد إذا ما سقطت في قبضة الدولة المغرية لا تلبث هذه الأقلية أن تتساوى في المعاملة بالأكثرية، بل ربما عادت الدولة المستعمرة إلى مراضاة الأكثرية على حساب الأقلية، فأخذت العناصر الصغيرة تتجنب الائتمار بإغراء الدول المستعمرة.

وأهم الأقليات التي فطنت إلى هذه المسألة وحلتها بطريقة التفاهم مع أكثرية الأمة التي تتألف منها مباشرة الأقلية الإسلامية الهندية التي تبلغ ثلث مجموع الأمة الهندية تقريبًا، ثم الأقلية القبطية في مصر.

ولا يسعنا أمام ما فعله إخواننا الأقباط النبلاء العريقون في المجد والوطنية الصادقة أخلاف أولئك الأسلاف الكرام فراعنة وادي النيل العظماء، إلا أن نشدو بالثناء عليهم

ونبالغ في تكريمهم، فقد أبدوا من التضامن معنا نحن إخوانهم في الوطنية وفي الجامعة الشرقية ما قضى على الدسائس الاستعمارية شر قضاء. وأي لسان لا يتعطر بذكر هؤلاء الأعزاء المحبوبين الذين لم يعد بيننا وبينهم فارق بعد أن اعتنق الصليب الهلال وعانق القس الشيخ، وبعد أن قضت السياسة الاستعمارية بفصل بعض أبطال الوطنية من هؤلاء الإخوان من وظائفهم في الحكومة، لا لعلة سوى سعيهم في تحرير بلادهم! حياهم الله من إخوان أحرار مستقلين صادقين.

وبلغ من ذكاء هؤلاء الإخوان وتبصرهم وارتباطهم بمجموع الأمة أنهم لم يكتفوا بمجاملة المجموع في مسألة الاكتتاب لأجل الأناضول، بل لقد أصدروا في الإسكندرية أوراق نصيب خصصوا نصف دخلها لهذا الاكتتاب، فكانوا أسبق بهذه الفكرة الحميدة في إكساب الاكتتاب صبغة الاشتراك العام فيه، وهي فكرة جليلة جدًّا سنذكرها لهم بالشكر الجزيل متى حان أوان الجزاء الأوفى.

إلا أن ما جاد به إخواننا الأعزاء الكرام لا يكاد يذكر حتى الآن. ومن المعلوم أنهم أوفر منا ثروة وأقل دينًا، ففي استطاعتهم إذا شاءوا أن يتباروا في مضمار الاكتتاب بل في مضمار المساعدات الخاصة التي تفيد الفائدة الحقيقية المنشودة. فإذا ما ماثلت حميتهم في هذا المجال غيرتهم في ميدان الوطنية فإن عملهم المجيد سيكون باعثًا لإشعال نار النخوة في نفوسنا نحن المسلمين، فنساعد حينئذ إخواننا العثمانيين بما ينفعهم جد النفع.

وليتأكد إخواننا الأقباط أن ما يسدونه من الجميل سيكون دينًا لهم علينا وطوقًا ذهبيًّا يطوقون به أعناقنا، فلا يكون بينهم وبيننا في المستقبل أي فارق يفرقهم منا. وإذ ذاك يتأكد الطامعون فينا أننا أصبحنا بنعمة الله إخوانًا لا تفرق الأديان بيننا، وليس فينا عناصر مختلفة، ولا أقلية ولا أكثرية، بل كلنا أمة واحدة متحدة في جميع المناهج السياسية.

إلا أن الاستعمار الغربي الذي أخفق في مصر وفي الهند لم يخفق وا أسفاه في البلاد العثمانية، إذ لا يزال العنصران الرومي والأرمني يخلقان المشاكل ليجيزا للدول الأوربية أن ترفع عقائرها صائحة لا أمان لبقاء الأقليات تحت الحكم العثماني الجائر الملوث بأدران التعصب الديني الفظيع!

وأي أمان بل أي تعصب تستند عليه الدول العاملة على محو الدولة الشرقية الوحيدة التي وقفت حائلًا قويًّا عدة قرون دون تدفق التيار الغربي في البقاع الشرقية؟

أفذلك الأمان الذي يريدونه هو تحكم أقلية عنصرية معادية متفقة مع الأجنبي ملوثة الأكف بالدماء في أكثرية تبلغ تسعة أعشار الأمة أو أربعة أخماسها على الأقل؟

وهل يريدون بلفظة التعصب ذلك الدفاع المشروع عن النفس والنفيس والأهل والولد؟ وأية شريعة في الكون لا تجيز للقوي وللضعيف على السواء حق الدفاع عن النفس؟ وهل من مصلحة العثمانيين الذين تكالبت عليهم المصائب والأهوال أن يضعوا فوق رءوسهم مصيبة أخرى بتحرشهم بالأروام أو بالأرمن في هذا الموقف العصيب؟ أليس من المعقول أنهم بذلوا الجهد الجهيد في تسكين ثائرتهم وإفهامهم حقيقة المقاصد السيئة التي يُرمَى إلى إثارتهم للاستفادة من وراء أعمالهم الضارة بهم وبمجموع الأمة والوطن؟ على أن مواطننا العزيز هـ. زاده لم يغفل هذا الموضوع بل ألم به في عرض رسائله الممتعة، إذ ذكر المساعي العديدة التي بذلتها الحكومة الوطنية لتهدئة الأروام المنتشرين على سواحل البحر الأسود، وهم أنفسهم الذين عادوا إلى الهياج مرة أخرى ائتمارا بتحريضات الدسائس الاستعمارية، فاضطرت الحكومة الوطنية بحكم الضرورة إلى تخير أهون الشرين، فنقلتهم من مواطنهم إلى داخل البلاد، وربما نجم عن انتقالهم من مساقط رءوسهم عدم توفر المواد الغذائية لديهم، فهلك منهم بضع مئات أو بضع ألوف، وكذلك ربما عمدت الحكومة إلى مقابلة الشدة بمثلها زجرًا واستئصالًا لأسباب الفتنة بتاتًا، وكذلك من المحتمل أن يكون الفريق المسلم من الأهالي لم يطق صبرًا على حرب العصابات الرومية، وهو في أشد حالات الضيق والكرب من جراء الحرب اليونانية العثمانية الحالية، فقابل العدوان بمثله وحمل السلاح ونظم العصابات التي تقتاف آثار العصابات الرومية وتغير على قوى الأروام منكلة بمن تجده فيها.

كل هذا جائز الحدوث إذا صح ما تزعمه الدولة الصائحة الآن والمطالبة بإجراء التحقيق، بيد أن الحكومة الوطنية رفعت صوتها بالتحذير من هذه السياسة الجديدة، التي إنما يراد بها التجسس على القوة الوطنية لمصلحة الدويلة اليونانية! وربما أريد بها كذلك بث الفتن والدسائس أثناء مباشرة التحقيق الوهمي …

وعلى كل حال فإن الأروام والأرمن العثمانيين قد أخلوا بواجبهم الوطني ولم يساووا في الحكمة والتدبر والبصر بالعواقب إخواننا مسلمي الهند وإخواننا الأقباط — وكنت أود أن لا أذكر لفظة الأقباط لأنها تدل على وجود عنصرية في مجموع الشعب المصري، ونحن بفضل الله شعب واحد غير قابل التجزئة — فللأمة الهندية وللشعب المصري أن يفاخرا بوطنيتيهما الصادقتين المتينتين.

شبهات باطلة

روج المسيو سون في صدور الناس أثناء الحرب الكبرى ضلالة يريدون أن يفرقوا بها بين المصريين وإخوانهم العثمانيين ليستعينوا بالأول على الآخرين، ويظهر أن تلك الضلالة قد راجت وتمكنت من نفوس أناس كثيرين لا علم لهم بحقائق الدسائس الأجنبية الهائلة ومقدار تفننها وبراعتها وإحكامها. والمظنون أنها أثرت بنوع أخص في عقول شبابنا الأعزاء الذين لم يخبروا دخائل أولئك الماكرين المفرقين.

فينما أنا في غيابة السجن قبيل الهجوم العثماني على قناة السويس إذ أقبل إليَّ نفر في الخفاء يسائلونني عما أشيع من أن العثمانيين إذا دخلوا مصر امتلكوها وأعادوا حكم (الكرباج!) إليها.

قلت هذه ضلالة يراد بها التفريق بيننا وإخواننا القادمين إلينا لإنقاذنا ليستعينوا بنا عليهم. أما حكم الكرباج فلن يعود إلى هذه البلاد مطلقًا.

قيل لي: وهل لم يستعمل الأتراك الكرباج في حكمهم الأول؟

فأجبت: إذا كان الكرباج قد صار من نصيبنا يومًا فقد كان قاع البسفور من نصيب الألوف من الأتراك أنفسهم، وذنب أولئك المغرقين حبهم لوطنهم ورغبتهم في إزالة حكم الكرباج وأمثاله من الأحكام التي لا تتفق مع روح العدل والإنصاف والحرية. فكل تلك المظالم قد زالت منذ أن نشر الدستور ظلاله على أرجاء الدولة العثمانية، وهيهات أن يعود مرة أخرى لأن أحرار العثمانيين على تمام اليقظة والحذر.

علي أن المهم في هذه الدسيسة ليس هو إعادة حكم الكرباج، بل هو عودة العثمانيين إلى إدارة شئون البلاد بأنفسهم، لأن مجرد التفكير في هذا الأمر باعث على اشمئزاز النفوس الحرة التي تأبى الخضوع مطلقًا لأي نوع من أنواع السيادة. فالذين أرادوا التفريق أحكموا تلفيق دسيستهم. وحقيقة الأمر أن العثمانيين آتون لإنجاد المصريين وإنقاذهم من الاحتلال الأجنبي لا لاحتلال البلاد المصرية، وبين المصريين والعثمانيين عهود ومواثيق كتابية يرجع عهدها إلى عام ١٩٠٩ بأن تكون الرابطة التي تربط مصر بالدولة العثمانية أشبه شيء بالرابطة التي تربط المجر بالنمسا، فنظام الجيش والبحرية واحد والسياسة الخارجية واحدة، وما عدا ذلك فمصر حرة التصرف في سائر شئونها الخاصة.

وهنالك أمر آخر يجب أن تفهموه وأن تذيعوه في طول البلاد وعرضها، وهو أن العثمانيين مدينون بالجميل العظيم للمصريين في مساعدتهم العظيمة المتوالية، وفي

عطفهم الشديد عليهم، وفي دفاعهم المجيد بأقلامهم وألسنتهم عنهم، سواء أفي مصر أم في الخارج، وتطوعهم في سائر الحروب التي أشهرها عليهم أعداء الشرق. ومن جهة أخرى يعتقد العثمانيون اعتقادًا جازمًا لا يتحولون عنه البتة أن المصريين أعرق الشعوب الشرقية في المجد وأذكاهم عقلًا وأوسعهم علمًا وأشرفهم نفسًا، فليس من المعقول ولا من المصلحة العامة إخضاع مثل هذا الشعب للسلطة المتحكمة وإنما المعقول والمفيد الاتفاق مع هذا الشعب الحر النبيل على ما فيه فائدة الشرق بأسره.

وزيادة على ذلك فإن بضعة أشخاص من المصريين يديرون شئون الدولة العثمانية إدارة غير مباشرة، ولهم كلمة مسموعة ورأي نافذ في كل مشروع سياسي ترسمه الدولة العثمانية. وهؤلاء الأشخاص هم الذين سعوا في جمع كلمة العناصر المختلفة التي تتكون منها الأمة العثمانية حول دولتهم وحمل هذه الدولة على إشراك كل هذه العناصر إشراكًا فعليًّا قويًّا في تولي شئون البلاد، فالشعب الذي يكون لأبنائه هذه المنزلة وهذا التأثير في أعمال الدولة العثمانية لا يعقل أن يحاول العثمانيون استعباده.

أما الحملة العثمانية على مصر فلم تكن موجهة ضد المصريين، وهي من مقترحات المصريين المقيمين في الأستانة، وقد ظلوا يلحون على وزارة الحربية العثمانية بإرسال هذه الحملة على عجل قبل فوات الفرصة السانحة حتى اضطرت إلى تسيير ما تيسر لها حشده من القوى بسرعة تحت ضغط النفوذ المصري المتسلط على الأستانة، وقبل إتمام الاستعداد اللازم لمثل هذا العمل العظيم.

هذا ما أجبت به في ذلك الوقت أي في أوائل عام ١٩١٥. وأزيد الآن على ما تقدم أن الحملة العثمانية على مصر كانت مصرية بحتة، فكثيرون من ضباطها مصريون وأكثر جنودها مصريون، والذين يديرون شئونها في سوريا مصريون، حتى إن جمال باشا قائد الجبهة الغربية كان في مبتدأ الأمر آلة في أيدي المصريين.

وأسباب فشل هذه الحملة انصياع وزارة الحرب العثمانية لأوهام إخواننا المصريين غير الحربيين والشروع في الاشتباك قبل توفر القوة الكافية وقبل تنظيم طرق المواصلات، وقبل إيجاد المقادير العظيمة من الذخائر. والذي أعلمه علم اليقين قبل تحركي من الأستانة أن النية كانت معقودة على عدم الشروع في الزحف قبل احتشاد خمسة وعشرين ألف جندي نظامي بسائر أدواتهم وذخائرهم في المرحلة الثالثة، أي خط الهجوم إزاء رفح واجتماع خمسة وعشرين ألف أخرى في المرحلة الثانية، وهي بئر سبع، وخمسين ألف في المرحلة الأولى معان، ووصول الأنباء المشعرة بسنوح الفرصة المناسبة للبدء في

الهجوم. ولكن إخواننا المصريين المقيمين في الأستانة حملوا وزارة الحرب على مباشرة الهجوم قبل وصول أي نبأ من مصر، وقبل احتشاد أية قوة من القوى المتقدم ذكرها ظنًّا منهم أن المصريين لا يلبثون أن ينهضوا على بكرة أبيهم خلف ظهر العدو، فيسقط العدو بين قوتين عظيمتين قبل استعداده الحربي …

ليس هذا المقام مقام النقد ولا سرد التفاصيل التي لم يحن وقت إيضاحها، بل المراد من إيراد هذه الخلاصة إفهام المصريين أن الدولة التي ضحت نفسها لأجل سواد أعينهم، والتي يتحكم فيها المصريون إلى هذا الحد لا يمكن أن تحاول استعبادهم، وأنها لا تتمنى لمصر وأبنائها إلا السعادة والسمو.

وإذا كان هذا مبلغ حب العثمانيين للمصريين، وهو أقل ما نستطيع أن نبسطه في هذه الملاحظات الوجيزة، فهل يجمل بالمصريين أن يقتصروا على التبرعات اليسيرة التي سخت بها أكفهم إلى الآن؟

وأعود إلى إيراد شبهة باطلة كانت قد وقرت في بعض الأذهان في أوائل الحرب الكبرى.

ذهبت قبل اعتقالي إلى إحدى جهات الأرياف زائرًا بعض إخواني، وكان يقطن هذه الجهة جم غفير من إخواننا الأقباط، فلما شعروا بقدومي من الأستانة حديثًا هرعوا إلى مقابلتي وسألوني إذا كان ثمت خوف على حياتهم وأموالهم.

قلت لهم: مما تخشون؟ فإن كانت خشيتكم من العثمانيين فهم لا يجيئون فاتحين متحكمين، بل منقذين مستعينين بنا. وإن كنتم تخشون من إخوانكم مسلمي مصر، فهذه مسألة أخرى يرجع الحكم فيها إلى سلوككم معهم أثناء الحرب، فإن اعتبرتم أنفسكم وطنيين واشتركتم مع السواد الأعظم من الشعب في شعوره، ولم تجعلوا للدسائس الأجنبية سبيلًا عليكم فأنتم آمنون أبد الدهر وإن مالأتم العدو وتأثرتم بوساوسه كنتم أعداء مصر وعوملتم معاملة الخونة المارقين.

وهبوا أن العثمانيين سيديرون مدة الحرب شئون مصر، وهذا أمر مستحيل، فإن البلاد العثمانية غاصة بالإسرائيليين والأرمن والبلغاريين والأروام الذين لا يعاملون إلا بالرحمة والعدل والمساواة، ولا يقع اعتداء على أحد منهم إلا إذا أراد أن يمالئ ذوي المطامع الاستعمارية على خيانة دولته ووطنه، فحينئذ يكون عقابه كعقاب المسلم الذي يرتكب هذا الجرم نفسه.

ولقد اطمأنت نفوس إخواننا الذين لاقوني على إثر هذا البيان. ولست أدري إذا كانوا قد أذاعوه سرًّا في الجهات الأخرى أم لم يذيعوه، إلا إنهم التزموا طول مدة الحرب

وبعد انتهائها أقوم خطة، والتحموا بكتلة الأمة حتى لا يكاد الأجنبي يجد فارقًا يفرق بينهم وبين إخوانهم المسلمين.

ولا أزال أذكر أن أناسًا منهم خفوا إلى ملاقاتي عقب تخلصي من الاعتقال وعرض عليَّ بعضهم مساعدات مالية وكثرت عليَّ تهنئاتهم.

فالآن أذكر هؤلاء الإخوان الأعزاء وبقية إخواننا الأقباط مرة أخرى بوجوب التضافر مع إخوانهم المسلمين على إعانة الوطنيين العثمانيين الذين يجاهدون في سبيل الشرق أجمع.

بقي أن نلم بنقطة أخرى، وهي أن نفرًا من أبناء وطننا الذين كانوا قد ذهبوا إلى الأستانة في حرب البلقان أو قبلها أو بعدها، وهم يحسبون أنهم سيعودون إلى مسقط رأسهم بالأموال الوفيرة، أو سيتنسمون قمم العلياء والمجد في بلاد الدولة العثمانية بمجرد وصولهم إلى عاصمتها، أو بعد قضاء بضعة أشهر أو سنوات قلائل في وظائف حكومتها، سواء أكانوا من ذوي العلم والكفاءة أم من الشذاذ السابحين في لجج الأوهام قد أخفقوا في حسبانهم، فعادوا ناقمين على الدولة واصمين رجالها بكل نقيصة، منفرين القلوب منها، داعين إلى عدم الاهتمام بها والاتفاق معها، فهؤلاء الذين آثروا مطامعهم الشخصية على مصالح أمتهم ووطنهم قد ساعدوا أعداءنا مساعدة لم يكونوا يحلمون بها، من غير أن ينفقوا في سبيلها درهمًا واحدًا. ولقد حادثت كثيرين منهم وأقنعتهم بوجوب العدول عن مطاعنهم الجارحة، وأفهمتهم أن الدولة العثمانية لا تملك خزائن الأرض، ولا يسعها أن تخلق الوظائف جزافًا، ولا أن تنزع ذوي الكفاءة من موظفيها القائمين بالأعمال لتحملهم هم محل أولئك الموظفين بمجرد وصولهم إلى الأستانة واندماجهم في سلك التوظف. كما أنني أوضحت لهم أن العثمانيين من كبار إلى صغار ليسوا سوى آدميين غير معصومين من الخطأ، وأنهم قضوا أعوامًا طوالًا تحت ضغط الاستبداد محرومين من التجارب، وأن واجبنا الوطني يقتضي التجاوز عن هفواتهم، إن لم يكن لمجرد كونهم إخواننا في الدين وفي الجامعة الشرقية الكبرى، فعلى الأقل لمجرد مصلحتنا الوطنية الخاصة. فكانوا يتظاهرون بالاقتناع ولكني كنت أعلم أنهم لا يلبثون أن يفارقوا المجلس الذي يجمعني بهم حتى يعاودوا خطتهم المضرة.

ويوجد أفراد قلائل من الصحفيين، الذين كانوا ينتحلون النزعة الوطنية في مبتدأ ظهورهم، شهروا نصلًا ماضيًا على الرابطة المتينة التي كانت تربطنا بإخواننا العثمانيين، زاعمين أن مصلحة مصر تستدعي نفض أيدي أبنائها من المسألة العثمانية بتاتًا، لأن

مصر قد انفصلت من الدولة العثمانية التي أصبحت من جهة أخرى غير قادرة على حفظ كيانها وأخذوا يتقولون على المرحوم فريد بك أقوالًا يبرأ منها شلو فريد بك في قبره.

ولقد قلنا وكررنا القول ولا نزال نقول إن العثمانيين لا يطمعون في مصر ولا يحلمون باستعباد المصريين، فالجلبة المغرضة التي أثار غبارها أولئك المفرقون لم يكن لها سبب ولا نفع، اللهم إلا انتفاع المستعمرين منها بجعلنا أمامهم وجهًا لوجه، وإخراج المسألة المصرية من صبغتها الدولية القائمة على المعاهدات والاتفاقات التي أبرمتها الدول الأوربية مع الدولة العثمانية.

على أن الشعب المصري الحازم البصير بعواقب الأمور لم يلبث أن فطن إلى الحقيقة، فضرب بتلك الأقوال المفرقة أديم الثرى وأظهر شعوره القوي بأدلة محسوسة قضت على تلك الدسيسة، وأهم وآخر تلك الأدلة الاكتتاب للأناضول الذي أخذ يزداد ويعم نطاقه يومًا بعد يوم، حتى لنكاد نحسب أن هذا الاكتتاب سيبلغ على توالي الأيام مبلغ ما حدث من قبيله في الحرب البلقانية.

وقد كان من جراء هذه اليقظة المباركة أن خرست الألسنة المفرقة واضطرت إلى مجاراة التيار الجارف الذي اكتسحهم أمامه.

فهاتان الفئتان هما اللتان أحذر منهما أبناء وطني المخلصين الأذكياء الكرام، الذين دلت التجارب العديدة على أنهم لا ينخدعون بالأقوال المدسوسة عليهم المموهة بطلاء الوطنية الفتان!

الجامعة الإسلامية

الجامعة الإسلامية أو الاتحاد الإسلامي هي غول أوربا المستعمرة، فما تكاد تسمع هذه اللفظة حتى تقوم وتقعد من الفرق والهلع والغيظ والغضب زاعمة أن الإسلام سينقض على المسيحية فيمزقها إربًا إربًا!

ونحن إذا تصدينا لخوض هذا المبحث فلا نريد بهذا التصدي إزالة رعب أوربا من هذا الغول الوهمي أو إفهامها حقيقة الجامعة الإسلامية والغرض المقصود من تحقيقها، لأننا لو شئنا هذا الأمر لوضعنا كتابًا خاصًّا فيه باللغة الفرنسوية التي هي أكثر اللغات الأوربية انتشارًا، بل نريد إزالة ما قد يكون عالقًا بأذهان إخواننا الشرقيين غير المسلمين، ولا سيما مواطنينا الأقباط والإسرائيليين، كما نريد أن نشرح للذين لا يدركون فائدة

هذه الجامعة من المسلمين على العموم والمصريين منهم على الأخص ما ينتجه تحققها من الفوائد التي لا يمكن تقديرها للشرق بأسره.

من تأمل في حقيقة الدين الإسلامي وجده دستورًا اجتماعيًّا يراد به خير المجتمع البشري. وليس أدل على هذه النظرية التي يحق أن تعتبر بديهية من النظر في قواعد الإسلام الخمس: فالشهادتان ترميان إلى توحيد القوة التي تدبر الوجود وإبعادها عن التجزؤ والتجسد والتمثل للقضاء على المعتقدات الوثنية التي كانت تستوجب الجهل والجمود والخنوع للاستعباد، فلم يعد من الممكن بمقتضى هذا الدستور أن يزعم أحد الناس أنه إله أو شريك الإله أو أخوه أو ابنه أو مثاله، بل أصبح سائر الناس متساوين من الملك إلى الصعلوك ومن النبي إلى أجهل إنسان، وإنما الذي يرفع المرء عمله النافع للمجتمع البشري، ثم إلى الاعتراف برسالة محمد الذي إذا لم يعترف بها المسلم لا يجد نفسه مرغمًا بحكم الدين للأخذ بما حض عليه والانتهاء عما منع عنه. ثم الصلاة بلوازمها وهي الاغتسال والوضوء وطهارة الثياب، وهذه اللوازم من جملة قانون الصحة، والصلاة نفسها حركات رياضية منشطة مقوية للأعصاب. والصوم تنقية للدماء وتطهير للجوف وتذكير بألم المسغبة. والزكاة رحمة من جانب الأغنياء بالفقراء. والحج هو الركن الأهم في هذا الدين من الوجهة الاجتماعية البحتة لأنه اجتماع المسلمين في صعيد واحد لمقصد وحيد؛ فهنالك يتعارفون ويتآلفون ويتناجون بما فيه مصلحتهم جميعًا.

وإذا كان المسلمون في هذا العصر قد جهلوا هذه الفوائد الجليلة التي يشتمل عليها دينهم الاجتماعي وأغفلوا التمسك بها، فإن إهمالهم فائدة الحج التي لا يمكن تقديرها قد عاد عليهم بأوخم العواقب.

إذا كان المسلمون في العهد الأول لم يعقدوا المؤتمرات في موسم الحج ولم يتشاوروا ويتفاوضوا في شئون الأمة الإسلامية أجمعها، فما ذلك إلا لأن الإسلام كان من الشوكة والمنعة في المرتبة التي تغنيه عن تشاور أبنائه وتفاوضهم في الذود عن حياضه، وفي التآزر والتناصر لإنقاذ بعضهم بعضًا. فلم يكن ثمت باعث على الجامعة الإسلامية لأن قوة الخلافة كانت تجمع كلمة المسلمين كافة، وكان هذا الاتحاد المقدس خير وسيلة لحفظ كيان الإسلام وسلامة بلاده من كل عدوان.

فلما انقسمت الجمهورية الإسلامية إلى ثلاث خلافات وعدة ممالك وإمارات دعت الحاجة إلى البحث في مسألة الجامعة الإسلامية، ليتعارف الجمهور الإسلامي ويتفاهم ويعاضد بعضه بعضًا.

فمسألة الجامعة الإسلامية ليست مسألة تعصب ديني كما يصورها بعض الواهمين من الأوربيين، ولا يقصد بها قتل المسيحيين أو إجبارهم على اعتناق الدين الإسلامي قسرًا أو الإغارة على القارة الأوربية واكتساحها، كما حدث في عهد بعض ملوك السلجوقيين وبعض السلاطين العثمانيين، بل هي رابطة تربط جميع العناصر الإسلامية بعضها ببعض فيصبح مجموعهم قويًّا لا يطمع فيه الطامعون.

قد يقال هنا إن الإسلام دين السيف والقوة وإنه انتشر بسواعد أبنائه أكثر من انتشاره بالدعوة والتبشير، فمحاولة جمع كلمته هي محاولة إعادة قوة الاعتداء الأولى إليه، فالجامعة الإسلامية إذن خطر كبير.

وهذه الشبهة إنما تتبادر إلى أذهان الذين لا يعرفون الإسلام على حقيقته، فالإسلام ليس بدين السيف وما قام محمد في بادئ أمره والسيف في يده يدعو الناس إلى اتباعه قسرًا، بل لقد أخذ يدعو الناس تارة في الخفاء وأخرى في العلن: إلى توحيد الله، وترك العادات المستقبحة، والجنوح إلى العدل والإخاء، وعدم قتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، وتجنب اعتداء بعضهم على أعراض البعض. فهال سروات قريش — وهم خيار العرب إذ ذاك — قيام محمد من بينهم بأمر يرفع قدره على سائر العرب، بل ينشر ذكره في الخافقين، وحسدوه وعز على نفوسهم الأبية أن تطيعه، فسخروا منه وكذبوه وتحرشوا به وآذوه، حتى اضطر إلى أن يهاجر من مكة في نفر من رفاقه إلى يثرب. وهناك علت كلمته وكثر مناصروه، فاشتد مشائخ العرب حسدًا له وموجدة عليه وعلى أصحابه، وأبوا إلا أن ينكلوا به جميعًا، فكان ما لا بد من حدوثه، وهو دفع العدوان بالقوة، فالمسألة إذن مقصورة على دفع الشر. ويكفي أن نلفت الأنظار إلى ما جاء في القرآن من أمثال قوله تعالي: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ و﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ و﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ و﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ إلى غير ذلك مما يثبت أن الدين الإسلامي دستور اجتماعي يراد به الخير العام، وأن لا سبيل إلى حمل الناس على اتباع هذا الدستور بالقوة، بل الذي ينبغي على الداعين إلى هذا الدستور أن يبينوا محاسنه ويقيموا الدليل على صحة قواعده، فمن شاء بعد ذلك أن يتبعه فعل، ومن لم يشأ فهو حر في إرادته، على شرط أن لا يتخذ من مجافاته هذا الدستور سببًا للتحرش بالآخذين به والداعين إليه، فإذا ما جنح إلى المشاكسة والمعاداة فعلى كل مسلم حينئذ أن يرد العدوان بكل ما في استطاعته من حول وقوة، لأن هذا الدستور يأبى على الآخذين به أن يكونوا أذلة صغار النفوس.

على أن المسلمين الآن في حالة لا تجعلهم يفكرون أثناء اجتماعهم في الاعتداء على أحد، بل في الطرق التي تمكنهم من البقاء على وجه الكرة الأرضية. فإذا سلب منهم هذا الحق بالمثل فقد أريد محوهم من الوجود، ولن تقابل هذه الإرادة إلا إرادة التشبث بالبقاء.

أما العناصر غير الإسلامية الهادئة في أحضان الشعوب الإسلامية، فهذه ستلبث آمنة مطمئنة ما دامت راضية بمقاسمة مواطنيها حظهم في حالتي السراء والضراء وعاملة على سلامة الوطن وسعادته وسموه.

وإذا ألقت هذه العناصر بأبصارها إلى العهود المنصرمة، لتتذكر الحوادث الفردية التي اقترفها بعض الملوك أو الأمراء والقواد والوزراء المسلمين في إبان الجهل والظلم والاستبداد، لتجعلها مقياسًا لما يمكن حدوثه في عهد الجامعة الإسلامية، أو بالأحرى في عهد الجمهورية الإسلامية الكبرى، فإنها تخطئ في هذا القياس جد الخطأ، لأنها لو وجهت بأنظارها إلى الحوادث الأخرى التي كانت تقع في تلك العصور المظلمة، إلى جانب الكوارث التي أصابت أفرادًا من العناصر غير المسلمة، لرأت أن أولئك الملوك الطغاة المستبدين كانوا يصادرون الوزراء والقواد ويستبيحون أموالهم ودماءهم بغير محاكمة ولا لعلة، سوى انحرافهم عليهم، فالظلم إذن كان عامًّا لا خاصًّا. بل لو ألقت هذه العناصر نظرة منصفة إلى أوربا نفسها في تلك الأعصر لوجدت محكمة التفتيش تفعل ما لا يستطيع وصفه قلمُنا، ولرأت لويس الرابع عشر يستأصل شأفة البروتستانتيين كافة من فرنسا في عشية وضحاها، ولرأت إنجلترا البروتستانتية تحاول القضاء على العنصر الكاثوليكي، بل لو أنصفوا لتذكروا أن الروسيا المستبدة أبادت عشرات الألوف من الإسرائيليين في أوائل هذا القرن، القرن العشرين قرن المدنية والعلم والاختراع، قرن الكهرباء والراديوم والطيارات الحربية والفناطيس السيارة والمدافع الرشاشة والغازات الخانقة! بل لعلهم يتذكرون قيام الإنجليز على الإسرائيليين منذ عدة سنوات فقط في بلاد الغال!

ولكنهم إذا استبعدوا هذه الحوادث الفردية وجدوا تاريخ الصدور الأولى من الإسلام حافلة بنوادر عجيبة من التسامح الإسلامي، وعطف المسلمين على العناصر الصغيرة المندمجة فيهم، فقد اتخذ أمراء المسلمين الوزراء والكتاب والأطباء بل القواد بالمثل من غير المسلمين.

بل لقد بلغ من جنوح ملوك المسلمين إلى مهرة الصناع من غير المسلمين أن اصطفى محمد الفاتح أحد المهندسين الفنيين البيزانطيين ووثق به، وعهد إليه صنع مدافع جيشه الذي فتح بيزانطة أي القسطنطينية.

وهذا الغازي مصطفي كمال باشا قد عهد إلى مهندس أوربي تشييد بيته الخلوي بأدوات معمارية خلقها ذلك المهندس الأوربي خلقًا.

ولا حاجة بنا إلى ذكر استوزار محمد علي باشا أحد الأقباط، واستوزار إسماعيل باشا نوبار وتكران ويعقوب أرتين وسواهم، ولا إلى ذكر استوزار الحكومة العثمانية الدستورية سليمان البستاني أفندي وبساريا أفندي وسواهما من الأروام والأرمن.

أما الحوادث الموجبة للأسف التي تكرر وقوعها في البلاد العثمانية، فهذه منشؤها الدسائس الأجنبية، ولا شأن مطلقًا للتعصب الديني فيها، ولقد حدثت أمور من أمثالها في الهند، وأحدثت المكائد الاستعمارية فظيعة من قبيلها أثناء الثورة العرابية، وكادت تحدث أشياء أخرى مماثلة لها في عدة مرار أخرى خاتمتها في عام ١٩١١، لولا أن أنعم الله على عناصر هذا الشعب النبيل بمنة الرزانة والتدبر.

ولسائل أن يسأل: ولماذا تكون هذه الجامعة إسلامية ولا تكون شرقية ما دامت فائدتها على الشرق بأكمله، وما دامت البلاد الإسلامية مقطونة بعناصر أخرى غير إسلامية؟ وألا تكون الفائدة أعظم إذا ما انضمت الأمم الكبرى الوثنية في آسيا وأفريقيا إلى هذه الجامعة العظيمة؟ وألا تمنع مثل هذه الجامعة كل تقول وتنفي عنها صبغة التعصب الديني؟!

والرد على هذه الأسئلة المعقولة في منتهى البساطة: فمن ذا الذي من المسلمين لا يريد أن يكون الشرق كتلة واحدة تقف في وجه الغرب وتصد تيار مطامعه؟ لقد حاول عبد الحميد أن يوجد هذه الرابطة العظمى فبعث بالباخرة أرطغرل العثمانية إلى اليابان تحمل وفدًا يصحب هدايا قيمة إلى الميكادو، ولكن تلك الباخرة غرقت وهي على مقربة من البلاد اليابانية، وكان هذا المشروع منذ ثلاثين حولًا تقريبًا. وأراد عبد الحميد أن يعود إلى تنفيذ هذه الفكرة مرة أخرى، إلا أن المشاغل العديدة التي كانت الدولة المستعمرة تخلقها للدولة العثمانية حالت دون تحقيقها، فهذه الجامعة الواسعة أحب إلى كل مسلم غيور على مصلحة وطنه من جهة، وعلى مصالح الشرق أجمع من جهة أخرى من تلك الجامعة المجدودة؛ بيد أن هنالك حائلًا قويًّا يحول دون تحقيق هذه الأمنية، وذلك أن مثل هذه الجامعة تحتاج إلى أحد أمرين؛ أولهما: عقول مستنيرة تدرك فائدتها، وتحتم

من تلقاء نفسها على الشعوب غير الإسلامية أن ترتبط بها بمحض اختيارها، وهذا ما لا يتوفر في أغلب الشعوب الشرقية مسلمة وغير مسلمة، وثانيهما: وجود سلطة روحية قوية تجبر النفوس بالإرهاب من جانب — وبالترغيب من جانب آخر — على الارتباط بها، وهذه السلطة لا تتوفر إلا في الدين الإسلامي الذي يَرهب النار ويرغب بالنعيم.

على أننا نتمنى من صميم الفؤاد أن يتوفق ذوو العقول السامية في اليابان وفي البلاد العثمانية إلى إيجاد هذه الجامعة الكبرى، التي لا نقول باستحالة وجودها وبصعوبته، بل نرى وجودها ميسورًا إذا صحت العزائم وتفاهمت سائر العناصر الشرقية بواسطة الأمتين العظيمتين المستنيرتين اليابانية والعثمانية. وإلى أن تبرز هذه الجامعة الكبرى إلى حيز الوجود لا يحسن بنا أن نقف مكتوفي السواعد لأجل ما يقال عن الجامعة الإسلامية من الأقاويل التي لا نصيب لها من الصحة، في حين أننا لا نريد بها، كما بينا، سوى الدفاع عن استقلال الشعوب الشرقية بأجمعها، بل الذي يجب هو العمل بكل ما في الوسع لإيجادها واغتنام فوائدها.

والآن فَلْنَتَناجَ فيما بيننا نحن المسلمين: يحسب أناس منا أن الجامعة الإسلامية وهم، وأنها إذا تحققت، من باب الفرض، كان شرها أعظم من نفعها، وأن مثل هذه المسألة تليق بالأعصر الوسطى لا بعصر المدنية والاشتراكية والمشاعية، هذا العصر الذي قضى على الأديان وأبادها، وإنما يليق بهذا العصر تحرير الأوطان وتحضيرها وتزويدها بأوسع ما يستطاع من ضروب العلوم والفنون.

فلنواجه هذه الاعتراضات بروية وإنصاف: ما هي الجامعة الإسلامية؟ أهي اجتماع للصلاة أو للوعظ والإرشاد أو للتنفير من الخمر والميسر والفحشاء؟ كلا الجامعة الإسلامية هي اتفاق كلمة الإسلام على تحرير بلاده وشعوبه من الاستعمار والاستعباد، وسواء اجتمع المسلمون في مكان واحد، أم تفاهموا بالمراسلات، أو بما تنشره صحفهم وكتبهم، فقد اتحدت كلمتهم وتكونت الجامعة الإسلامية. ولقد يسخر البعض من هذا الإيضاح ذاهبًا إلى أن شعوبًا كثيرة متحدة كلماتهم ومتفقة أفكارهم، ومع ذلك فلم يتحرر واحد منها، فهل يعقل أن العالم الإسلامي إذا أجمع على كلمة واحدة صارت شعوبه وبلاده بمجرد هذا الإجماع حرة مستقلة؟ والجواب على هذا الاعتراض أن الاتحاد لا يتم إلا إذا تحققت معانيه وإلا فهو تفرق. فهذا الجسد الإنساني مثلًا لولا تضامن سائر أعضائه، بل مجموع ذراته لما أصبح كتلة واحدة حية متحركة شاعرة. فكل جزء من الجسد يقوم بواجبه للمجموع، فإذا ما أخل أحد الأعضاء بواجبه ولم يقم عضو آخر

بمهمته دب دبيب التخاذل والضعف في سائر أجزاء الجسد، وآل به الأمر إلى الانحلال فالزوال.

ومع ذلك فما لنا ولهذه القضايا المنطقية؟ ألا نرى بأعيننا في كل يوم المؤتمرات التي تعقدها دول أوربا التي كانت متعادية متقاتلة بالأمس لإزالة أسباب الجفاء ولإصلاح ما أفسدته الحرب ولإنعاش الحالة الاقتصادية في أوربا؟ إذن فهنالك جامعة أوربية تنظر في مصلحة أوربا، وهذه الجامعة تريد أن توسع دائرتها لتصير جامعة غربية بإدخال أمريكا في عقدها، ولكنها لا تريد أن تتسع لأكثر من ذلك، أي إنها لا تقبل أن تدخل دائرتها أية دولة شرقية.

واليابان؟ أليست دولة شرقية؟ ألم تحضر مؤتمرات أوربا؟ فهل هي من طينة خاصة لم تجبل منها أراضي الشرق وأقوامه؟

نعم إنها من تربة خاصة، من تربة القوة والعزم! اليابان دولة شرقية، إلا أنها أفسحت لنفسها مكانًا في مؤتمرات أوربا بنصل البتار، فمتى بلغنا شأو اليابان تفتحت لنا أبواب المؤتمرات، بل تفتحت لنا قلوب الأمم! أنسينا يوم أن دخل أنور باشا أدرنة وقد حظرت عليه أوربا دخولها فقال: «لقد دخلت بحد السيف ولن أخرج من هنا إلا بحد السيف.» فصمت الجميع وبقيت أدرنة عثمانية! على أن إنجلترا هي التي تجتذب اليابان إلى جانبها لتستفيد صوتها في الشئون التي يراد الفصل فيها في المؤتمرات. أما شئون أوربا خاصة فمن الجلي أن اليابان ليس لها نصيب من النظر فيها.

إن الاشتراكية والمشاعية ليستا سوى مبدأين من مبادئ الجامعة الإسلامية، فيهما زيادة يسيرة لا تتفق وروح الإسلام، ونحن نرى أن هاتين الجامعتين تعقدان المؤتمرات في كل آونة، فتزداد روابطهما إحكامًا ويكثر أشياعهما حتى لتوشكا أن تغمرا أوربا الاستعمارية بتيارهما الجارف. فلماذا لا نحاول نحن بالمثل أن تكون لنا جامعة تشمل جميع العالم الإسلامي؟ ليكن كل فرد منا كيفما شاء إن متعبدًا وإن عربيدًا، فمرجع الأمر في أخلاقه وأعماله الخاصة إلى نفسه ثم إلى الله، فلو شاء الله لهداه، ولو أريد له الضلال لبقي طول حياته ضالًّا، والله يتكفل جزاءه إن عقابًا وإن ثوابًا. ولكن ليكن كل واحد منا مسلمًا قلبًا، وليعمل لنفسه ولأهله ولوطنه ولمجموع الأمة الإسلامية. وهذه الأعمال لا تنجح أمام الطرق الاستعمارية الحديثة إلا إذا كانت محمية بقوة منظمة فعالة، وهذه لا تتوافر إلا في الجامعة الإسلامية.

إن الجامعة الإسلامية تستطيع تنشيط أعمال الأفراد الحاصلين على رءوس أموال وإيجاد أعمال لمن ليست لهم رءوس أموال وإمداد الأسرات المحتاجة بما يعوزها من

مطالب الحياة والتكفل بتربية الأيتام وتثقيفهم وتغذية عقولهم بضروب الفنون التي تعينهم على خوض غمار الحياة، وعلى القيام بالأعمال التي تعود بالفوائد العظيمة على المجموع. والجامعة الإسلامية هي التي تستطيع أن توفر لكل شعب أسباب المطالبة الفعلية بالحرية والاستقلال.

ولنتكلم الآن بطريقة أوضح من هذا الإجمال المبهم لتنقشع آخر غمامة من الشك عن أفكار المترددين والساخرين: بماذا تستقل الشعوب والأوطان؟ بالمظاهرات والاحتجاجات وبحملات الصحف وحماسة الخطباء فقط؟ كلا إننا لم نسمع أن أحد بلاد العالم تحرر بهذه الوسائل الابتدائية الضعيفة، ولا سيما في هذا العصر الذي أصبح الاستعمار فيه فنًّا منظمًا قائمًا على قواعد علمية مستخلصة من التجارب العديدة. فالدولة المستعمرة إذا رأت الشعب الذي تستعبده قد أكثر من التظاهر والاحتجاج صادرت حريته تارة، ثم خففت عنه قيود المصادرة تارة أخرى، ونفت خطباءه آونة، ثم عفت عنهم وردتهم إلى مساقط رءوسهم آونة أخرى، وابتاعت الصحف والأقلام، وبثت العيون والأرصاد، ونشرت الرسائل والكتب وجاملت الشعور العام، وأرضت المطامع الوطنية إرضاء ظاهريًّا، وخدرت أعصاب الشعب، ولا تزال على هذه الوتيرة ما بين جذب وإرخاء، والعام يتلو العام والجيل يعقبه الجيل، وكل جيل ينسى مجهودات سلفه، وإذا ألم بشيء منها استخف بها واعتدها من السفاسف، وحَسِب أن مجهوداته هو موصلة إلى الأمنية المنشودة، ولكنه لا يلبث أن تخور عزيمته عندما يرى صوته ذاهبًا سدى في فضاء لا نهاية له، وكذلك تعمد الدولة المستعمرة إلى إيجاد الشقاق بين أبناء الوطن الواحد، وإلى خلق الأحزاب التي تتخاذل وتتحاقد ويعمل بعضها على محو بعض، ويرمي بعضها بعضًا بالمروق والخيانة والارتشاء وممالأة العدو، وأخيرًا تزول النزعة الاستقلالية على تمادي الزمن، ولا يعود الشعب يحلم إلا بشيء من التوسعة، ثم يستصوب أن تكون له حقوق أبناء الدولة المستعمرة أنفسهم، ليخلصوا من كل قيد وكل إرهاق، فتكون هذه أخرى مراحل الاستعمار، إذ يصبح الوطن المستعمر جزءًا من الدولة المالكة. ومن أبرع الطرق التي يتوسل بها الاستعمار الحديث استمالة الشعوب النزاعة إلى الاستقلال من طريق نزعتها باستئجاره أشد الصحف تطرفًا، فتضرب على نغمة الجمهور علنًا وتنحرف به عن السبيل القويم بطريقة غير محسوسة؛ مثال ذلك أن يكون الشعب مطالبًا باستقلاله مصممًا على إدراك حريته، غير قابل أن يساوم فيها أو يقبل أية توسعة في الحكم الإداري يجود به الاستعمار عليه، فتنادي الصحف المتطرفة في الوطنية بمطلبي الشعب جهارًا،

ولكنها تقبل المناقشة فيما تعرضه السلطة المستعمرة من المنح، فتنقل الجمهور بهذه الوسيلة من الجوهر إلى العرض، وبهذه الطريقة تتسمم الأفكار وتنحرف عن جادتها المثلى.

ومن هذا البيان يتضح أن التخلص من أشراك الاستعمار الحديث الفني المنظم بوسائل التظاهر والاحتجاج والنشر بواسطة الصحافة والكتب وبث الحماسة في النفوس بالخطب مستحيل، وإن اعتماد أي شعب في مطالبته بالحرية والاستقلال على مجهوداته فقط غير مؤد إلى هذين المطلبين العسيرين. ولو تصفحنا تواريخ سائر الأمم والشعوب التي تحررت واستقلت بلادها لوجدناها استعانت في بذل جهودها ببعض الدول القوية التي تكون في حالة خلف وعداء مع الدولة التي تحتل بلادها، فمن قبيل ذلك أن الولايات المتحدة التي لبثت تجاهد أعظم جهاد أكثر من نصف قرن بلا مرة حتى إذا وصل لافييت في عام ١٧٧٦ على رأس فريق كبير من متطوعة الفرنسويين، ثم تلاه روكامبو على رأس فرقة كاملة من الجنود وأعقبهما أسطول فرنسوي تحت قيادة ديستنج، وكذلك أرسلت فرنسا إلى الجيش المجاهد مقادير جسيمة من الأسلحة والذخائر والأدوات الحربية، ابتدأ دور الجهاد العملي النافع، وأخذ جيش الولايات المتحدة ابتداء من عام ١٧٧٧ ينتصر تحت قيادة واشنجتون على الجيش البريطاني.

وكذلك كان شأن إيطاليا في تحررها واستقلالها، فإن مجهودات مازيني وغاريبالدي وكافور لم تؤد إلى الغرض المقصود إلا بتداخل فرنسا في المسألة الإيطالية منذ منتصف القرن الماضي.

واليونان لم تحرر إلا في سنة ١٨٢٩ على إثر اجتماع أساطيل أوربا في مياه نافارين وإحراقها الأسطول العثماني المصري.

ورومانيا لم تستقل إلا بعد حرب القرم سنة ١٨٥٥.

وبلغاريا والصرب لم تدركا حريتيهما إلا بعد الحرب العثمانية الروسية في سنة ١٨٧٨.

وهذه بولونيا لبثت عشرات السنين تعالج الخلاص وتضرم نيران الثورات المتتالية على غير جدوى حتى تم تحريرها بعد انتهاء الحرب الكبرى.

ولسنا الآن في مقام الشرح المسهب لنورد تفاصيل الأعمال التي قامت بها كل دولة لمساعدة البلد الذي أرادت تحريره، ولكننا أوردنا هذه السطور القلائل لكي ندرك الحقائق ولا نسبح في لجة الحلم الكاذب، حاسبين أننا سنتغلب بمجهوداتنا المتفرقة على الدول المستعمرة المتألبة علينا.

فإذا أدركنا الحقائق وجب علينا أن نتساءل عن الدول التي يمكنها أن تظاهرنا وتمدنا بكل الوسائل اللازمة لأعمال الاستقلال، فإذا ما ولينا وجوهنا شطر أية دولة غربية نجدها تأبى إمدادنا بيد المعونة إلا إذا كانت تريد ثمنًا باهظًا، فكأننا لا نتفلت من قبضة استعمارية إلا لنسقط في قبضة أخرى قد تكون شرًّا من الأولى فلم يبق أمامنا إلا أن نوجه أبصارنا صوب الدول الشرقية. ومن بين تلك الدول التي تستطيع أن تنبري لمساعدتنا مساعدة فعالة؟ فأما اليابان فدولة لا هم لها إلا تقليد إنجلترا في الاستعمار والأنانية، وقد سرها الآن أنها صارت في عداد الدول الكبرى، فلا تريد أن تثير ثائرة سخطهن عليها وارتيابهن فيها، وأما فارس فلم تكد تنجو من أشراك الاستعمار إلا بالجهد الجهيد بمعونة أحرار العثمانيين سواء أفي الحرب الكبرى أم فيما بعدها إلى العام الماضي، وأما الأفغان فبعد أن ساعدها أحرار العثمانيين على الإفلات من الإشراف الأجنبي شرعوا ينظمون شئونها وينيرون أبناءها بأنوار العلوم. فلم تبق أمامنا إذن سوى الدولة العثمانية القوية من قبل، والتي اعتادت منذ أزمان طوال على المكافحة والمصابرة في سبيل الزود عن الإسلام والشرق. فهذه الدولة هي التي يجب أن تكون مركز دائرة الجامعة الإسلامية، ولكن هذا المركز لا يجوز أن يصير متحركًا خوفًا من تلف هذه الدائرة، بل ينبغي أن يبقى ثابتًا مكينا في مستقره ولن يثبته ويمكنه سوى التفاف العالم الإسلامي حوله، وهذا الالتفاف لا يتسنى إلا إذا قام كل مسلم بما يجب عليه من العمل لإعادة تشييد هذه الدولة بما تبعثر من أنقاضها؛ فالأمر موكول إلى المسلمين إن شاءوا أبرزوه من حيز التفكير والتمني إلى حيز الظهور والعمل، وإن شاءوا قضوا عليه القضاء الأخير فينفرط عقد الإسلام ولا يعود بعد اليوم إلى الالتئام وتمسي آمال الشعوب الإسلامية في الحرية والاستقلال أضغاث أحلام وأوهامًا في أوهام …

وهنا ننبه المسلمين قاطبة — وأبناء العرب منهم خاصة — إلى أن أوربا التي وقفت الآن موقف المكاشرة والعداء للوطنيين العثمانيين، زاعمة أنهم اقترفوا مظالم هائلة، قضت على مئات الألوف من الأروام والأرمن من رجال إلى نساء ومن شيوخ إلى أطفال، وراغبة باتحادها مع الولايات المتحدة الأمريكية إجراء تحقيق في دائرة البقاع العثمانية التي يتولى الدفاع عنها الوطنيون العثمانيون، تحاول أن تضرب الجامعة الإسلامية ضربة ساحقة بإيجاد جامعة عربية تحت الإشراف الأوربي، فهذه الجامعة التي أراد الله خيرًا بالمسلمين كافة إذ كشف لهم أسرارها بسبب المطامع الاستعمارية المتضاربة التي جعلت كلتا الدولتين المتناظرتين في الشرق تفضح أعمال الأخرى وتعرقل مساعيها، ولكن هذا

الاختلاف القائم بينهما ربما لا يدوم طويلًا، فقد تتفقان على قسمة توافق مصلحتيهما كما حدث فيما سبق، إذ اتفقت إنجلترا وفرنسا على حساب مصر ومراكش في سنة ١٩٠٤، وكما اتفقت فرنسا وألمانيا في سنة ١٩١١ على حساب مراكش والكونغو، فالاتفاق غير مستحيل بين دول الغرب، ولكنه مستحيل بينهن وبين أمم الشرق وشعوبها.

فلينتهز المسلمون كافة هذه الفرصة السانحة وليعضدوا الوطنيين العثمانيين بكل ما في وسعهم من ضروب التعضيد. وليعلم المسلمون أن كل ما ينفقونه في هذا السبيل يعود عليهم بالخيرات المادية التي لا يمكن تقديرها. وأن خير دليل مقنع للمسلمين بإثمار الأموال التي يمدون بها إخوتهم المجاهدين قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

بعد كتابة هذا الموضوع قرأت في الصحف نبأ سرني جد السرور، وهو تبرع أهل بيروت بثلاثة آلاف ليرة للهلال الأحمر العثماني، وإرسالهم هذا التبرع إلى أنقرة بواسطة متصرف مرسين.

فهذا التبرع شمل، من غير شك، المسلم والمسيحي والإسرائيلي من سكان بيروت، وهو عمل جليل يدل على إخلاص وبعد نظر أبناء ذلك الثغر المشهورين من قديم الزمن بحميتهم ونخوتهم وشهامتهم وإخلاصهم للدولة العثمانية، على الرغم من وجود أفراد كانوا يعملون لتنفير القلوب منها وخدمة المصالح الأجنبية. ولقد تحققت بنفسي في أوائل الحرب الكبرى مقدار ما تنطوي عليه قلوب أهالي ذلك الثغر من الولاء لدولة الخلافة، فلا غرو إذا أيدوا الآن بالدليل القاطع المحسوس صحة نظري على الرغم من مركزهم الدقيق. فحيا الله هِمم أولئك الغيورين الذين ضربوا خير الأمثال لسواهم من بقية السوريين خاصة وسائر العرب كافة. إنهم في حماستهم وأريحيتهم يكادون يماثلون إخوانهم السكندريين مثال النخوة والشهامة والمروءة.

الشرق والغرب

الشرق مهد المدنيات القديمة والحديثة ومنبع الحكمة الفياض ودار النبوة ومنبت الشجاعة وأرض الخصب والكنوز، التي لا يعلم مقدار ثروتها إلا الذي أودعها جوف هذه الأرض المباركة، الشرق الذي تخلقت من تربته المقدسة وشمسه المنعشة المنضجة وأمواهه الحافلة بعناصر الحياة أول نسمة تسعى، الشرق الذي أرسل أبناءه يجوبون

أنحاء الكرة الأرضية معمرين وأنهضت همم قيوله أعظم الآثار التي بقيت على توالي الأدهار، هذا الشرق المهيب العجيب يبلغ أمره مع ترامي أطرافه ووفرة أبنائه أن يصبح نهبًا مقسمًا مستعبدًا للغرب الذي لا يدانيه اتساعًا ولا يحاكيه غنى وسكانًا! أليس من المدهش بل من المخجل أن تتسلط بقاع الغرب البالغة مساحتها نيفًا وتسعة وخمسين مليون كيلومتر مربع ونفوسها ٦١٥ مليونًا على ديار الشرق البالغة ثلاثة وثمانين مليونًا من الكيلومترات وأنفسها ٩٦٢ مليون نسمة؟ أليس هذا منتهى الصغار وغاية الفضيحة والعار؟ فبماذا تعلل هذا الحادث الغريب؟ أبما يرتئيه بعض علماء الغرب الاجتماعيين من أن شدة الحرارة في الشرق هي التي تولد خمود الذهن وفتور الهمم؟ ولكن الشرق ليس مقصورًا على منطقة خط الاستواء التي يشتد حرها إلى درجة هائلة يمكن أن يرجح لأجلها هذا الرأي، بل في الشرق جهات يشتد فيها البرد إلى درجة لا يمكن تحملها، وفيه جهات أخرى متناهية في اعتدال الجو وطيب المناخ. وثمت أمر يكذب هذا الزعم وهو ظهور محمد ﷺ وأصحابه الأجلة في البلاد العربية المشهورة بشدة حرها. على أن معظم بقاع خط الاستواء صحاري أو بحيرات واسعة قليلة السكان، فلا يحكم على قارتين عظيمتين بمنطقة لا تكاد تشغل خمس مساحتها، ولا يكاد يقطنها خمسة في المائة من مجموع سكانها. فالعلة إذن ليست علة الحر أو البرد، بل ترجع إلى اندفاع تيار من الخمول في الشرق اكتسح عزائم أبنائه في طريقه فأدى بهم إلى أن تتحكم هولاندا التي لا يتجاوز أبناؤها بضعة ملايين في جاوه التي يبلغ أبناؤها أربعين مليونًا! وإلى أن يحكم ستون ألف انجليزي ما يقارب مائتي مليون من الهنود! وإلى أن يسوس عشرة آلاف بريطاني أبناء وادي النيل البالغين عشرين مليونًا! ولو اتسع نطاق هذا التذييل للشرح الطويل لأفضنا في سرد عجائب هذا الخمول، إلا أننا نقتصر على القول بأن هذه الأعداد القليلة من الغربيين إنما تدير شئون مئات الألوف من الشرقيين بسواعد الشرقيين أنفسهم، فإنجلترا لم تضرب الدولة العثمانية إلا بالعرب والسوريين والمصريين والهنود، ولم تخمد كل حركة في مصر والهند إلا بالشرطة المصرية والجيش المصري في مصر والشرطة الهندية والجيش الهندي في الهند. فنشاط الغربيين واستخدامهم ذكاءهم في مصالح دولهم هما السببان الجوهريان لسؤددهم واستيلائهم على البقاع الشرقية.

وكنا نود أن نرى اليابان موجهة همّمها إلى إنهاض الأمم الشرقية الكابية بإنارة عقول أبنائها بأنوار العلوم والفنون وبتشجيعها أحرار الشرقيين على الاستمرار في مجهوداتهم الشريفة حتى تثمر، ويكون الفضل في تحرير الشرق واستقلاله راجعًا إليها،

لا أن نراها نافضة يديها من هذا الأمر، ولا هم لها إلا موالاة الدول الغربية المستعمرة من جهة والعمل في السر والخفاء للاستيلاء على الأمصار الشرقية المجاورة لها ...

ولهذا اتجهت أبصار الشرق إلى المجاهدين العثمانيين الذين تريد أوربا المستعمرة أن تقضي عليهم القضاء الأخير، لتأمن مغبة التفاف قلوب الشرقيين كافة حولهم.

لقد تدفق تيار الهنود من وثنيين إلى مسلمين قبيل الحرب الكبرى نحو البلاد العثمانية كما ابتدأ تيار الجاويين والجزائريين والتونسيين يتدفق صوبها، فخشيت الدول المستعمرة بأس هذا الحادث الجديد، وأخذت تفكر في الوسائل التي تمنع بها شره، فجاءتها الحرب الكبرى بنتائج لم تكن لتحلم بها، إذ تمزقت الدولة العثمانية شر ممزق، ولم يبق إلا أن تقضي على الثمالة المتخلفة منها. فإذا شاء الشرقيون أن يستبقوا هذه البقية لمصلحتهم العامة فليشدوا أزرها وليمدوها بوسائل الحياة والقوة، والظهور على أعدائها الذين هم أعداء الشرق بأسره وأعداء السلام العام.

الوطنيون العثمانيون

إن موقف الوطنيين العثمانيين دقيق جدًّا، فهم محصورون من كل جانب بأعداء طامعين فيهم، أو خاشين بأسهم يدارونهم حتى تأزف ساعة القضاء الأخيرة، فينقضوا عليهم انقضاض الطيور الجوارح على الشلو الممزق في الخلاء. وإذا كان الروسيون قد تظاهروا بمحالفتهم وممالأتهم فما هذا التظاهر إلا ستار كاذب يستر حقيقة آمالهم، فقد انفضح رياؤهم في مؤتمر جنوة إذ وقفوا موقف الريب والتردد إزاء المسألة العثمانية، فلم يجعلوا وجود العثمانيين في حلقة الدول المجتمعة شرطًا أساسيًّا لصحة عقد المؤتمر، ولما ارتفع صوت نجم الدين عارف بك بالاحتجاج لم يحرك تشيشرين لسانه بكلمة مؤيدة للاحتجاج. بل استخدمت الروسيا سكون العثمانيين في هذه الآونة للتغرير بأوربا موهمتها أنها ذات النفوذ الأعلى في الشرق، وأنها قادرة على تخدير أعصابه إذا أرضتها أوربا وبذلت لها الأموال الطائلة. وهذه فرنسا صديقة الإسلام وحليفة الوطنية العثمانية، وأولى الأمم التي رفعت صوتها للمدافعة عن حقوق الإنسان، كانت في صف الدول التي لم تسمح بدخول العثمانيين مؤتمر جنوة، ولماذا؟ لأنهم شرقيون! ولأنهم لا يزالون في حالة حرب مع أوربا! فهل اليابانيون غربيون؟ وهل العثمانيون حتى الآن في حالة حرب مع فرنسا؟ ومع إيطاليا؟ ومع الروسيا؟ ومع ألمانيا؟ ومع البلجيك؟ الخ ... أليست الحقيقة أن لا صداقة بين الغرب والشرق ما دام الأول طامعًا والثاني مطموعًا فيه، وما دام الأول

مساومًا والثاني مادة التساوم؟ أجل هذه هي الحقيقة التي لا ريب فيها والتي يجب علينا نحن الشرقيين أن نتعظ بها.

فبعد معركة سقاريا المشهورة التي لم تؤد إلى أية نتيجة حاسمة وقف أولئك الأبطال المحروبون ينشدون الإنصاف والمرحمة من الإنسانية الأوربية! ولكن هذه الإنسانية صخرية القلب جامدة الشعور لا ترق ولا تتحرك إلا عندما يتحرك الأروام والأرمن من وراء الجبهة العثمانية ويحاول الوطنيون إخماد حركاتهم! فلماذا إذن لم يستمر الوطنيون العثمانيون على مطاردة العدو المغير على بلادهم وإجلائه عن إسكي شهر وأفيون قرة حصار وبورصه وسواها؟ بل لماذا استسلموا إلى الأوهام التي لا يمكن تحققها؟ ذلك لأن القوة التي تحرك الجسم قد قاربت النفاذ، فهي في حاجة إلى التجديد، وإلى أن يتيسر لهؤلاء الأبطال توفير القوة اللازمة للشروع في الهجوم يتوكئون على ذلك العكاز الضعيف، عكاز الإنسانية الاستعمارية! فالمسألة إذن اضطرارية لا اختيارية. وإذا شئنا أن نعرف مقدار ما تقتضيه الحرب فما علينا إلا أن نرجع إلى آخر قتال أصبحت معلوماته حقائق ثابتة، وهو القتال الذي دار بين الروسيين واليابانيين. ففي معركة موكدن تقاضى قتل وجرح مائة ألف رجل ثمانين مليون رصاصة، فكأنما تعطيل رجل واحد من الاستمرار على القتال يتطلب ثمان مئة رصاصة. فالحرب الآن ليست منازلة قرن لقرن بالسيف والرمح والمجن والدرع، ولا ترام بالنبال والمقاليع والمجانيق، بل تبارٍ في إحكام الخطة الحربية وكثرة الجنود ووفرة الآلات الحربية وذخائرها. وهذه كلها أمور متوقف وجودها في هذا الزمان على المال. فمن للوطنيين العثمانيين بالمال الكافي؟ لهذا وجهنا أغلب أقوالنا ولا نزال نوجهها إلى إنهاض همم المسلمين واستدرار أكفهم السخية.

وبما أن المالية العثمانية لا تساعد على توفير وسائل الهجوم فقد استصوب أولئك الأبطال أن يرابطوا لعدوهم حتى يجدوا لهم فرصة تمكنهم من مهاجمته أو يشرع هو في مواثبتهم، فيكبدوه أفدح خسارة يستطيعونها، ولكن هذه السياسة القائمة على التدبر والحكمة إذا أفادت إلى بضعة أشهر من المؤكد أنها تعود بأوخم العواقب إذا امتدت إلى عام فأكثر. ولهذا كنا ننتظر حدوث طارئ جديد ما بين آونة وأخرى إذ لا بد من المجازفة بعد هذا الانتظار، فقد انقضى الشتاء والربيع وتناصف الصيف فإذا لم يَجِدّ شأن آخر أقبل الشتاء وحال بزمهريره دون القيام بعمل حربي مثمر. ومن المعلوم أن الأروام يحتلون الآن أغنى البقاع العثمانية وأشهر مدن الأناضول. والأصقاع التي تحت سلطة الوطنيين — إذا استثنينا منها أطنه وأضاليا — تكاد تكون أكثر البلاد العثمانية إقفارًا

وامحالا. ومن جهة أخرى فإن أوربا تجتهد في هذه الفترة في تخدير أعصاب الشرق وإخماد حركاته الوطنية، فإذا لم يتحرك إعصار مكتسح يفسد خطط أوربا الاستعمارية ويجمع الوطنيات الشرقية في سلك قوي يحول دون انفراطها، فإن هذه الوطنيات، التي كادت تنهض وتتقوى، تسقط السقطة الأخيرة وتتلاشى قواها بتاتًا.

أمام حكومة الأناضول الآن المشكلة التي خلقتها إنجلترا وتريد أن تتوكأ عليها فيما تضمره لهذه الحكومة التي تلتف حولها قلوب الهنود والمصريين من قديم الزمن، وأصبحت تلتف حولها قلوب الفلسطينيين والعراقيين منذ عامين، وهذه المشكلة هي ما نسميه اضطهاد الأروام والأرمن. ولكن هذه المشكلة التي أحدثت دويًّا هائلًا في الغرب عند ظهورها واسترعت جميع الأسماع لم تلبث أن ظهرت أوجه بطلانها، فالعدد المزعوم فناؤه من الأروام لا يوجد خُمسه في سائر الجهات المقول بحدوث الاضطهاد فيها، ومن جهة أخرى فقد انجلى الغبار عن الأمريكيين اللذين لا يستبعد أن يكونا أجيرين للمطامع الاستعمارية، فإنهما هما اللذان لفقا تلك الإشاعة الباطلة التي كذبها الغربيون النقية أكفهم وجيوبهم من أدران الأغراض. فالتحقيق المطلوب القيام به، والذي وافقت عليه الدول الغربية بالإجماع — ولا عبرة بما أدخله بعض الدول من شرط التحقيق في البقاع التي تحت النفوذ اليوناني الآن — إما أن تقبله حكومة الأناضول، على خلاف ما بدأت بإعلانه، وفي هذه الحالة لا بد للأصابع البريطانية أن تشتغل في الخفاء فتعكر جو الأناضول وتفسد صفاء القلوب العثمانية، وإما أن ترفضه بتاتًا كما أعلنت من قبل، ولن يصيبها من هذا الرفض فوق ما هي مصابة به، وحينئذٍ تسيغ الدولة البريطانية لنفسها مساعدة اليونانيين. وعلى كل حال فإن هذه المشكلة الحديثة أرجأت النظر في التوفيق بين العثمانيين واليونانيين، وإنه لأشأم وأتعس توفيق …

ونجم عن هذه المشكلة الملفقة اعتداء الأسطول اليوناني على صامسون، وقد قيل من مدة إن لحكومة أنقرة أسطولًا … ولكن هذا القول لا يعدو حد التعلل بالوهم، فمن الممكن أن تكون حكومة الأناضول قد ابتاعت من الروسيين بضع غواصات أو استوهبتها شيئًا من قبيل ذلك، ولكن هذه الغواصات القلائل لا تعتبر أسطولًا، ولا يمكنها أن تخرج عن حد التعرض للسفن اليونانية في البحر الأسود على الأخص، وربما في بعض سواحل بحر الأرخبيل، فمسألة الأسطول العثماني لا تزال إذن تصميمًا متوقفًا تحققه على مقدرة حكومة أنقرة من الوجهة المالية، فإذا انحلت هذه العقدة، وحلها في استطاعة العالم الإسلامي، وإذا توفرت المواد الحربية لدى جيش الغزاة المدافعين عن الإسلام والشرق،

فعلى اليونان وعلى الاستعمار الغربي العفاء، وإذا لم يتوفر شيء من ذلك فعلى الإسلام والشرق السلام. عطف الله الشرقيين على المجاهدين الأبرار.